علي حسين

غوايات القراءة





غوايات القراءة

غوايات القراءة / مقالات

تأليف علي حسين

الطبعة الأولى 1440 / 2019

ردمك 978-1-947836-23-5



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net



العراق - بغداد - شارع المتنبي

هاتف: 07819141219 - 07702931543

E-mail : darktbalmya@yahoo.com

غوايات القراءة

علي حسين



قراءة الكتب تجدد حياتنا

"على الأرض ما يستحقّ القراءة"

غوركي

دائمًا ما يطرح عليّ هذا السؤال: كم استغرقت في قراءة الكتب؟ والإجابة تكون في كل مرة: لقد استغرقت الكتب حياتي كلها. نعم إن فعل القراءة ربما يحسب بالسنين، لكن رفقة الكتاب هي رفقة عمر كامل، هذا هو حالي مع الكتب، وهو الحال الذي أريد أن أقدمه للقارئ في هذا الكتاب الذي أعدّه أشبه بخلاصة لتجربتي في الحياة.

لماذا نقرأ؟ وماذا تقدم الكتب لنا؟ سؤال حاول أن يجيب عنه عالم الفلك الشهير غاليليو الذي رأى أن القراءة أفضل طريقة لامتلاك قُوى الإنسان الخارق. وكان كافكا يصر على أن الكتب مثل "الفأس الذي يكسر البحر المتجمد بداخلنا"، ويعتبر الشاعر الفرنسي بول فاليري أن مجرد فتحنا لصفحات الكتاب يمكنه أن يمنح أفعالنا رؤيا جديدة، وبالنسبة للكاتبة الإنكليزية فرجينيا وولف فإن القراءة الحقيقية هي التي لا تمنعنا من استبعاد كل التصورات المسبقة عندما نقرأ.

في مرات عديدة وأثناء عملي في إحدى المكتبات الأهلية، وكانت واحدة

من أشهر مكتبات بغداد، كنت أجد أن البعض يشير إلى بعض الكتب باعتبارها كتبًا سيئة، وأنه يجب علينا أن نتوقف عن قراءتها. رأيت ذلك يحدث مرات ومرات، يعلن بعض زوار المكتبة أن هذا الكتاب خادش للحياء، أو أن ذاك المؤلف لا يعرف التاريخ، ويذهب البعض إلى اعتبار بعض الكتب بأنها مسيئة أو أنها تعزز الأمية التاريخية، لكنني مع مرور السنين والتجارب ومن خلال القراءة تعلمت أنه لا توجد كتب سيئة على الإطلاق، ولهذا ما زلت أحتفظ بنصيحة الروائي الأميركي هنري ميلر التي قرأتها في كتابه الممتع (الكتب في حياتي) أن الكتب التي لا تروق لك ربما تصبح فيما بعد مدخلاً لكتب أخرى ستحبها وتتعلق بها.

ربما كنت محظوظًا، كانت هنالك مكتبة كبيرة في بيتنا، وأيضًا كان بعض أقاربي يمتهنون مهنة بيع الكتب ولم يمانع هؤلاء الأقارب من وجود صبي صغير يبحث بين الأرفف عن روايات مثيرة أو كتب مصورة أو مجلات تسحره بمعلوماتها الغريبة والعجيبة عن الأرض والسماء والنجوم والهواء. وظل هذا الصبي حتى اليوم يؤمن بأن الكتب ستبقى إلى نهاية الكون حتى وإن تطورت التكنولوجية وانتقلنا بالكامل إلى عالم الإنسان الآلي، فإن رائحة الكتاب الورقي وملمسه ستظل تشعرني دومًا أن الحياة أفضل وأكثر إشراقًا.

بالنسبة لي ليس مهمًا أن أكون قارئًا، بل يجب أن أكون قادرًا على بث الشغف بالقراءة عند الآخرين، وعندما أكتب عن الكتب وأستذكر مؤلفيها لا يمكنني غض الطرف عن الروابط العاطفية بيني وبين الكتب والقراءة. وقد تعلمت أن السبيل نحو اكتساب عادات قراءة تستمر مدى الحياة يعتمد على التعود على العيش بنمط حياة قائم على القراءة.

منذ أكثر من عام كنت قد قرأت أن جامعة أكسفورد أجرت بحثًا على أكثر من عشرين ألف شخص من مواليد ١٩٧٠ بشأن أنشطتهم في سن

السادسة عشر ومهنهم في سن الثالثة والثلاثين، ووجدت الجامعة أن "قراءة الكتب هي النشاط الوحيد لذوي الستة عشر عامًا الذي يرتبط بالحصول على وظيفة إدارية أو احترافية في مرحلة لاحقة من الحياة"، وارتبطت القراءة أيضًا بالتمتع بفرص أعلى في الالتحاق بالجامعة وقد توصل تقرير لليونسكو أن "القراءة المنتظمة لا تعزز فقط إمكانية النجاح الأكاديمي والاقتصادي للفرد، وإنما تحيي أيضًا الحس الاجتماعي والوطني لدى المرء".

في كتاب (أسس تنمية عادة القراءة) تضع لنا الباحثة الأميركية دونالين ميلر خصائص عامة يتشارك فيها الأشخاص المواظبون على القراءة لمدى الحياة وهي:

١- يخصصون وقتًا للقراءة طويلاً على الرغم من حياتهم المليئة بالمشاغل.

٢- يختارون ما يقرؤونه بأنفسهم ويتمتعون بالثقة عند اختيار كتب للقراءة، ولديهم من الخبرة ما يكفي للنجاح في اختيار الكتب التي تشبع اهتماماتهم واحتياجاتهم وقدرتهم على القراءة.

٣- يشاركون الكتب والقراءة مع قراء آخرين ويستمتعون بالبحث عن الكتب بقدر حبهم للقراءة.

٤- يضعون خططًا للقراءة، ويعرفون لماذا يقرؤون ونجدهم يترقبون الكتب الجيدة.

٥- يظهرون تفضيلاتهم لأنواع أدبية أو علمية أو فلسفية، حيث نجدهم يتابعون كتّابًا معينين ويهتمون بآخر إصداراتهم.

في سن الشباب كنت أسأل دومًا ماذا يمكن أن أقرأ من كتب، وأذكر أنني كنت أتلقى إجابات من بعض الذين لديهم خبرة في القراءة، ولعل أبرز نصيحة سمعتها كانت من الراحل جبرا إبراهيم جبرا: "اقرأ كل ما

يصادفك". ومشت بي الحياة، وكرست وقتي للقراءة، أنفذ وصية الأستاذ جبرا، سعيدًا بها أقرأ. وبعد رحلة طويلة مع الكتب والمكتبات حاولت أن أنقل تجربتي هذه في عدد من الكتب كان أبرزها (في صحبة الكتب) و (دعونا نتفلسف) و (سؤال الحب)، لكني حتى هذه اللحظة أواجه بسؤال ما هي الكتب التي تنصحنا بقراءتها. ولهذا تساءلت مع نفسي؛ ألا يمكن أن أنقل تجربتي إلى الآخرين وخصوصًا الشباب، وأن يكون هناك أشبه بدليل لأهم الكتب التي عشت معها بسعادة، ربما تنفع البعض في البحث عن الكتب التي استطاعت أن تغيّر حياتي؟ وقد يتساءل البعض، ولماذا تريد للبعض الاستعانة بك كدليل، ولا تتركه يقرأ ما يختاره هو.. كنت قد قرأت قبل سنوات بحثًا مهمًا عن القراءة الجادة، وضع فيه أحد الأخصائيين برنامج قراءة قال عنه: "إذا واظب المرء على تطبيقه فسيكون متأكدًا أن خلايا مخه لن يعلوها الصدأ".

وهذا البرنامج يتخلص في النقاط الأربعة التالية:

* كتاب واحد جيد أسبوعيًا على الأقل.

* جريدة أو مجلة بين يوم وآخر.

* رواية ممتعة في أوقات الفراغ.

* كتاب لمراجعة الكتب المهمة.

وبرغم مئات الصفحات التي كتبتها في مديح الكتب، سأظل طوال عمري أتذكر نصيحة الروائي الراحل الكبير عبد الرحمن منيف، عندما قال للشاب العامل في المكتبة «الذي هو أنا»: "حاول أن تجعل من القراءة واقعًا تعيشه".

1

عندما أنقذني الكونت دي مونت كريستو!!

"هناك من لا يستطيع تخيل العالم بلا طيور، وهناك من لا يتخيل العالم بلا ماء، أما بالنسبة إليّ، فأنا غير قادر على تخيل العالم بلا كتب".

بورخيس

عند سؤال الشاعر الفرنسي بول فاليري حول الحالة المثالية التي يتفرغ فيها للقراءة، قال إن هناك فرقًا بين أن نرى شيئًا ونحن نمسك كتابًا، وبين أن نراه دون ذلك: "مجرد فتحنا لصفحات الكتاب يمكنه أن يمنح أفعالنا رؤيا جديدة". فاليري يحذرنا من مخاطر القراءة التي لا تنتج شيئًا: "إنني لا أبحث في الكتب إلا عما يسمح لكتاباتي بأن تفعل شيئًا ما".

المطبخ هو المكان المناسب الذي يقرأ فيه وليم فوكنر كتبه: "كنت أفضّل أن أبقى في منزلي، في مطبخي مع كتبي وعائلتي من حولي، ويداي تلاعبان الأوراق". كان فوكنر يمضي ساعات طويلة بين القراءة والكتابة أمام طاولة صغيرة أهدتها له أمه، حيث يستيقظ في الرابعة صباحًا، ينزل من غرفته بالطابق الأول من البيت، ويجلس إلى الطاولة المزدحمة بالكتب والأوراق. يحب ارتداء ملابسه الكاملة وهو يقرأ أو يكتب، يفتح النافذة المطلة على

الحديقة، يبقى لساعات طويلة منغمسًا بما يسميه مهنة الكاتب. يحرص على الاحتفاظ بخصوصياته، وعندما حصل على جائزة نوبل عام 1949 وذاعت شهرته، اندفعت الصحافة والنقاد ومحبي الأدب إلى الذهاب إلى منزله أملاً في رؤيته والتعرّف على طقوس الكاتب اليومية، مما اضطره إلى أن يبني جدارًا عاليًا أحاط به منزله من أجل أن يحافظ على حياته الخاصة. لم يكن يريد لأي أحدٍ أن يزعجه في خلوته: "سأستمر على هذا الحال إلى نهاية عمري، وأتمنى أن أتلاشى من حياة الآخرين وأُحذف من التاريخ من دون أن يترك لي أي أثر ما عدا كتبي".

كثيرًا ما يفاجأ الروائي والمترجم جبرا إبراهيم جبرا بسؤال زوار بيته وهم ينظرون إلى المكتبة التي انتشرت على الحيطان لتأخذ حيزًا كبيرًا من البيت: "هل قرأت كل هذه الكتب؟" وتكون إجابته التي تعوّد أن يقولها: "لقد اطلعت عليها كلها". لم يكن الكتاب بالنسبة لجبرا سوى ضرب من العشق وهو يحفظ مقولة فرنسيس بيكون الشهيرة: "بعض الكتب وجدت لكيما تذاق، وبعضها لكيما تبتلع، والبعض القليل لكيما تمضغ وتهضم". يتذكر جبرا ما قرأه عن د. ه. لورنس عندما دخل يومًا إلى مكتبة أكسفورد وكانت تحوي مائة ألف كتاب، وفي ثلاث سنوات من الدراسة تعرف عليها جميعًا. هذا التعرف بمفهوم جبرا هو أساس الكثير من المعرفة، وهو الذي يدل القارئ إلى الاتجاه الذي عليه أن يسير فيه لطلب المزيد من المعرفة. لنا أن نتذوق الكتاب أو نبتلع بعضه أو نمضغه ونهضمه ببطء، في كل الأحوال نحن نعيش حالة عشق لا تملها النفس. يكتب جبرا في مقال بعنوان (عشق من نوع آخر): "كانت تراودني فكرة أشبه بالحلم، فكرت في كتابتها منذ أكثر من أربعين سنة، وهي عن رجل كان يعشق الكتب اشترى بقعة نائية على كتف عال لتلة صخرية مشرفة على وادٍ كثير التعاريج والشعاب، وبنى

عليها فندقًا جميلاً يجتذب الناس، أولئك الذين يريدون الاختلاء بالطبيعة البعيدة عن ضوضاء المدن طلبًا للتعمق في ذواتهم، مقابل أجور معقولة، وكان ذلك جزءًا من خطة وضعها لنفسه. فهو ينفق معظم ربحه في كتب يشتريها بالمئات. وفي بضع سنوات تجمع لديه من المال ما يكفيه أخيرًا لأن يحوّل الفندق إلى صوامع، رتب فيها الكتب على رفوف لا تنتهي، وجعلها دارًا مفتوحة لكل من يريد أن يقرأ ويكتب، شريطة أن ينتهي ما يكتب إلى مؤلَّفٍ يزيد من حس الإنسان بروعة الوجود". لم يكتب جبرا قصته تلك، فقد كان يدرك آنذاك وهو في أواسط العشرينيات من عمره أنها غير معقولة وأشبه بالحلم. لكن الحلم زامله سنوات طويلة حتى استطاع في منتصف الستينيات من القرن الماضي أن يحققه ولو بشكل بسيط، فالدار التي حلم بها اكتملت ولم يبق غير المكتبة، وهي في نظره الجزء الأهم في هذا البيت. فجبرا الإنسان عاش طفولةً ضنكة، ونشأ في بيت ليس فيه إلا بضعة كتب حسب ما جاء بشهادته، والادخار آنذاك كان صعبًا، فلما سنحت له الفرصة أن يدخل الجامعة في إنكلترا، كان أول شيء عمله وهو المبتلى بعشق الكتب أن سعى إلى شراء الكتب بالجملة، بالعشرات كما كان يحلم بطل قصته الخيالية، وماهي إلا سنوات على الدراسة حتى وجد نفسه محاطًا بالكتب من كل مكان، وهو يتذكر في سني دراسته مصاطب الكتب في مدينة كمبردج وقد تزاحمت عليها كتب نادرة ونفيسة تباع جميعها بأسعار زهيدة، يقف جبرا متأملاً هذه المصاطب المليئة بالكتب، يقلب هذا ويقتني ذاك وهو أشبه بسارق المعرفة على حد تعبير الناقد الإنكليزي وليم هازلت، سرّاق المعرفة الذين يطيلون الوقوف أمام أكوام الكتب ليقرأوا بمتعة وتلذذ، حيث يؤكد هازلت أن "سرقة المعرفة هي السرقة المشروعة الوحيدة في حياة المجتمع"، وكان جبرا باعترافه واحدًا من هؤلاء السراق حين تختفي النقود من جيبه فلا يجد بديلاً من أن يقف ساعات ليقرأ بمتعة وتلذذ فقرة هنا أو فقرة هناك.

في روايته (لو أن مسافرًا في ليلة شتاء) يكتب إيتالو كالفينو: "إن القراءة تعني الاقتراب من شيء في اللحظة التي هو فيها على وشك أن يُخلَق".

***

"وأنت ما تزال صغيرًا كن حريصًا على أن تقرأ الكثير من الكتب، أعط وقتًا لهذا أكثر مما تعطي لأي شيء آخر".

زادي سميث

ذات مرة كتب الروائي الأميركي أرسكين كالدويل: "دائمًا ما تصبح الكتب التي أقرأها جزءًا من تجاربي الشخصية، وأتخيل أنني عشتها". ولعله يقصد إنه يحاول أن يعيش تلك التجارب التي استمدها من الكتب، ويتبناها يومًا بعد آخر بحيث تصير جزءًا من عالمه الواقعي، ومع هذا يظل السؤال: ماذا نقرأ؟

ربما تكون مثلي قد قرأت ذات يوم نصيحة غوستاف فلوبير التي يقول فيها: "لا تقرأ مثل الأطفال، من أجل المتعة، ولا مثل الطموحين، بغرض التعلم. لا، اقرأ كي تعيش". ولعل معظمنا يبدأ أولى خطواته في القراءة منطلقين من الفضول لمعرفة ماذا تخبئ هذه الصفحات، وكثير من القراء يؤمنون بمقولة: اقرأ من أجل المعرفة. ينصحنا الفيلسوف ديكارت بإعداد قوائم لتحديد الكتب التي يجب أن نقرأها، كتمرين من تمارين العقل واستكشاف العالم، ويكتب هذه النصيحة: "إن قراءة الكتب هي بمثابة محادثة مع أفضل الشخصيات من القرون الماضية". كان ديكارت مصابًا بأمراض في الصدر، وقد نصحهُ الأطباء بإراحة جسمه، فأجازوا له البقاء في الفراش طويلاً، ما ساعده على الاهتمام بقراءة الأدب الكلاسيكي أو كما

يخبرنا هو: "لأقوم بجولات فكرية في الماضي السحيق، فآخذ بطرف الحوار مع النبلاء الطاعنين في السن".

تمثل القراءة إحدى أجمل ذكرياتي في الصغر، وكل شيء بدأ عندي أشبه برحلة. ذات يوم وأنا ابن العاشرة من عمري في إحدى مناطق بغداد، أخذتني قدماي إلى مكتبة يملكها أحد أقاربي يبيع فيها الكتب والمجلات والصحف. في ذلك النهار وأنا أتجول بين العناوين وصور الأغلفة الملونة، اكتشفت أن هذا المكان يمكن أن يصبح كل عالمي. عندما أسترجع كيف قضيت سنوات طويلة من عمري في رفقة الكتب، أتساءل أحيانًا إن كانت هذه الكتب غيرت حياتي، أم أنها سجنتني في عوالم مثالية وخيالية.

كنت وأنا أدخل المكتبة، ألتفت باتجاه الرفوف التي تحوي مئات العناوين، وأشعر أن هذه الكتب تنظر إليّ وأنها تعرف عني أكثر مما أعرف عنها، وأحيانًا أتخيل أن كل كتاب يخفي داخله عالمًا سحريًا لا نهاية له، وفي المكتبة وقع في يدي ذات يوم كتاب مجلد بشكل جميل، غني بالرسوم الملونة ومطبوع على ورق من نوعية فاخرة عنوانه (المعرفة)، فيه الكثير من الموضوعات التي لم أكن أفهمها، لكن ذلك لم يكن هدفي. في واحدة من صفحات المجلد لاحت لي صورة رجل لديه لحية كثة اسمه داروين، كانت عيناي تتنقل بين صورة الرجل الملتحي وسطور الكلمات التي أحاول أن أحل ألغازها، ووجدت نفسي وأنا ألتهم السطور منشغلاً بسؤال محيّر يطرحه صاحب هذه اللحية البيضاء: من نحن؟ هل ولدنا أم إننا جئنا نتيجة بذور غُرست في الأرض، أم نتيجة لبيضة مفقوسة أم إننا خرجنا إلى العالم من الغرفة، أم إننا سقطنا من السماء، وربما نكون قد عشنا ثم وافتنا المنية أو تلاشينا أو تحطمنا وتكسرنا؟ لم أجد إجابات لأسئلتي. وحين اكتشف صاحب المكتبة حيرتي نصحني بالابتعاد عن مثل هذه الموضوعات الشائكة، فأنا ما زلت صغيرًا، وربما في

المستقبل أستطيع أن أفهم وأعرف أكثر. بعد سنوات اكتشفت أن من السهل طرح هذه الأسئلة، ومن السهل الإجابة عنها، وقرأت أن فيلسوفًا إغريقيًا اسمه طاليس عاش قبل أكثر من ألفي عام كان يعتقد أن الكتب ولدت بفضل أسئلة البشر، وظل يردد على تلامذته عبارة شهيرة: "كلما زادت الأسئلة ظهرت الكتب من تلقاء نفسها".

يخبرنا صاحب مقبرة الكتب الإسباني كارلوس زافون أن أحد زبائن المكتبة قال له يومًا: "لا شيء قادر على التأثير في القارئ أكثر من الكتاب الأول الذي يلمس قلبه حقًا. إذ إن صدى الكلمات التي نظن إننا نسيناها يرافقنا طوال الحياة، ويشيد في ذاكرتنا منزلاً سنعود إليه عاجلاً أم آجلاً".

في ذلك الوقت اعتقدت أنني أستطيع الحصول على أي كتاب، لأن المكتبة لا تبعد عن بيتنا سوى عشرات الأمتار، ثم إنني وجدت في شخصية صاحب المكتبة محفزًا لي على اختيار ما أريد قراءته، ولهذا كنت سعيدًا حين دلّني ذات يوم إلى سلسلة من الروايات المصورة، وقد جذبني كتاب كان يمتلئ بالرسوم الملونة عنوانه (الكونت دي مونت كريستو) أما مؤلفه فمكتوب اسمه على الغلاف وبالألوان: الروائي المشهور ألكسندر دوماس.

كان هذا أول عهدي بالروايات، لم أسمع بأسماء الذين يروي الكاتب حكاياتهم، ولا أعرف معنى (مونت كريستو)، وما الذي يمكن أن تنفعني مغامراته؟ لكن الحكاية استولت على عقلي، وأتذكر أنني قرأته خلال يومين، أتمدد على فراشي، وأعيد قراءة الصفحة الواحدة أربع أو خمس مرات لأفهم مغزى القصة.

بعد سنوات تعرفت جيدًا على صاحب الرواية ألكسندر دوماس الأب تمييزًا له عن ابنه حامل الاسم نفسه ألكسندر دوماس الابن مؤلف الرواية الشهيرة (غادة الكاميليا). واكتشفت أن هذا المؤلف الذي عاش ثمانية وستين

عامًا - ولد في الرابع والعشرين من تموز عام 1802 - كانت له عادات غريبة. يتباهى بأن له أكثر من مئة ابن غير شرعي، ويؤكد في كل مناسبة أنه لن يتزوج، ويُقال إنه كان لا يُرى إلا وهو يتأبط كتابًا، صاحب مزاج خاص في الكتابة. ويذكر كاتب سيرته أنه كان يكتب قصصه على ورق أزرق، أما أشعاره فيستخدم لها الورق الأصفر، ويخصص الورق الوردي لكتابة مقالاته السياسية اللاذعة. يعاني من مرض الدوار، لا يستطيع القراءة والكتابة وهو جالس على منضدة، وإنما وهو متمدد على بطنه، ويضع تحته وسائد عديدة. وبرغم هذه النزوات، فقد أصدر أكثر من أربعمائة مجلد، وكتب للمسرح مئة مسرحية، مُثلت جميعها في زمنه، وقامت بأداء أدوارها ممثلات معظمهن وقعن في أسر شخصيته المرحة. ربح من وراء كتبه أكثر من مليون جنيه استرليني، أنفقها جميعها على ملذاته، وحين حاصرته الديون قررت إحدى المعجبات به أن تشتري ديونه كي لا يدخل السجن، ثم ساومته بين قفص الزواج أو قضبان السجن، فقرر في النهاية أن يرضخ لطلبها ويتزوجها.

الكونت دي مونت كريستو التي قرأتها، سحرتني منذ اللحظة الأولى، ولم ينفع فيما بعد أنني اكتشفت أنها عمل يتسم بالبساطة وأن أحداثها لا تختلف عن أي فيلم عربي بالأبيض والأسود، مليئة بالمشاهد الميلودرامية والدموع والآهات، فهي برغم ذلك شغلت النقاد بسبب أنها لاقت إقبالاً كبيرًا في مختلف العصور، ولا تزال على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

***

تدور أحداث رواية (الكونت دي مونت كريستو) حول البحار إدمون دانتيس، الذي نراه في الصفحات الأولى وهو يستعد للزواج، إلا أن حادث إلقاء القبض عليه بتهمة مناصرة نابليون، وإيداعه في حصن إيفان الرهيب، يدمر مخططاته. وخلال الاثني عشر عامًا التي قضاها في الحبس كان يؤمن

أنه بريء مما نسب إليه من تهم، وأن سبب سجنه إنما هي مؤامرة حاكها ثلاثة أشخاص، كان لكل منهم سبب للتخلص منه. الأول فرنان الذي كان ينافسه على خطيبته مرسيدس، والثاني أنغلار منافسه في أعماله، أما الثالث فكان القاضي فيلفور الذي أيقن منذ اللحظة الأولى أن القضية ستعود عليه بفوائد كثيرة إن هو حكم على إدمون. وخلال سنوات حبسه الطويلة لا تشغله قضية سوى وضع الخطط للهرب من جحيم السجن وإثبات براءته والانتقام من الذين ظلموه.

وبفضل مساعدة يقدمها صديقه الأب فاريا، الذي يخبره قبل موته بمكان وجود كنز يمثل ثروة هائلة في جزيرة مونت كريستو، يتمكن إدمون من الهرب. وبعد مغامرات ومصاعب يحصل على الكنز، فيقرر العودة إلى الحياة العامة بهيئة جديدة واسم جديد؛ الكونت دي مونت كريستو، الثري الذي لا يعرف أحد شيئًا عن حياته الماضية. ويبدأ بوضع خطة للانتقام مستخدمًا ثروته الهائلة لتحقيق أهدافه في مطاردة الذين ظلموه. لقد تحول إلى قدر يلاحق ضحاياه، وتمضي الرواية لتخبرنا أن خطة السجين السابق نجحت، وأنه أخيرًا استطاع تحقيق العدالة الغائبة، ويعود في النهاية ليكشف عن نفسه بعد رحلة عاشها مع أسماء وهمية ومؤامرات كان يخطط لها بالخفاء، ليلتقي أخيرًا بخطيبته مرسيدس ليعلن لها أنه لا يزال يحبها ويتمنى الارتباط بها.

نشر ألكسندر دوماس الأب روايته (الكونت دي مونت كريستو) عام 1844. في ذلك العام توفت الفتاة ماري دوبليسيس عن عمر 23 عامًا نتيجة آلام شديدة في المعدة لم تمهلها طويلاً. كانت قد أخبرت إحدى صديقاتها أنها تشعر دائمًا بأن حياتها ستعود من جديد، ولم تكن تدري أن هناك مؤلفًا شابًا أراد أن يقلد والده الأديب المشهور، فقرر أن يكتب قصة هذه الفتاة التي شغلت البلاط الفرنسي بجمالها، لينشر عام 1848 روايته (غادة الكاميليا)،

وأصرّ الشاب أن يطلق على نفسه اسم ألكسندر دوماس الابن. كان الابن أحد الأطفال غير الشرعيين للكاتب الشهير، الجميع يعامله كفتى منبوذ، إلا أنه كان شديد الإعجاب بشخصية والده، فاختار أن يسير على نفس الدرب.

إذًا هذه هي ما يسمى بالرواية. وفي ذلك الوقت لو طلب مني أن أكتب تعريفًا عن هذه الرواية، لاختصرته بكلمة واحدة: "ممتعة".

في رسالة يبعثها الكاتب الإنكليزي مالكولم لاوري إلى ناشره يشرح له فيها المغزى من كتابة روايته الشهيرة (ما تحت البركان)، يقول: "يمكن ببساطة قراءتها على أنها قصة ستستفيد منها إن لم تتجاوزها، ويمكن اعتبارها موسيقى ساخنة، قصيدة، أغنية، مأساة، كوميديا، مهزلة، وهكذا إنها سطحية، عميقة، ممتعة، ومملة، على حسب الذوق".

ممتعة حسب الذوق، كانت هذه العبارة التي يمكن أن أطلقها على رواية ألكسندر دوماس التي أخذني فيها، أنا الصبي الذي لا يعرف من العالم سوى الشارع المؤدي من البيت إلى المدرسة، إلى بلدٍ غريبٍ وبعيد، وأدخلني عالمًا مسحورًا، وكنت وأنا ألتهم الصفحات أتخيل نفسي أدخل إلى شوارع باريس التي تدور فيها حكاية السجين إدمون، وألتقي بأناس أشعر بأنني قريب منهم، هكذا قرأت أول رواية مثل طفل يمتلئ دهشةً من عجائب العالم. لم أكن أعرف أن سياسيًا مثل لينين كان يُصرح لمعارفه بأن روايته المفضلة تَظل (الكونت دي مونت كريستو)، وإن هذا الكاتب الذي حصد الشهرة والمجد، باع ذات يوم كل ما يملك ليشتري بنادق ساهمت في تحرير إيطاليا وتوحيدها، وإنه كان يطلق عليه لقب ملك المسلسلات الروائية التي علّمت الشعب الفرنسي قراءة التاريخ من خلال الأدب، حتى إن دار النشر التي تولت إصدار أعماله في القرن التاسع عشر كتبت على غلاف الطبعة الكاملة: "التاريخ كما يرويه دوماس".

في الثلاثين من تشرين الأول عام 2002، وفي باريس، امتد بساط إلى البانثيون "مقبرة العظماء". وعلى أنغام النشيد القومي الفرنسي، كان الحرس الرئاسي يسير ببطء. كانت الآلاف التي وقفت تشارك في المشهد المثير تنثر الزهور عند مرور الموكب الذي يتكون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية. وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعوا إلى المنصة المقامة تحت القبة الكبرى التي جلس عليها أعضاء الحكومة وعلى رأسهم الرئيس جاك شيراك، الذي كان قد وقع مرسومًا جمهوريًا لنقل رفات دوماس الأب من قريته في الجنوب الفرنسي إلى مقبرة العظماء، ليدفن إلى جوار فولتير وروسو وفكتور هيجو.

وفي رحلته الأخيرة يمر جثمان ألكسندر دوماس بقصر مونت كريستو الذي تحوّل إلى متحف، حيث يمضي ليلة واحدة فيه، يستعيد مع جدران القصر الأحداث التي صاغها كاتب عاش ومات من أجل الكتابة ومغامرة الحياة.

2

قائمة أوسكار وايلد لأسوأ مئة كتاب

"من لا يقرأ يعِش حياة واحدة حتى لو اجتاز السبعين عامًا. أما من يقرأ، فيعيش خمسة آلاف عام. القراءة أبدية أزلية"

أمبرتو إيكو

من بين الكتب التي كنت أقتنيها في سنواتي الأولى، كان هنالك عدد من كتب سلسلة تسمى (أولادنا)، وقد احتوت تلك السلسلة على ملخصات لروايات عالمية مثل رواية جول فيرن (من الأرض إلى القمر)، و (أوليفر تويست) لديكنز، و (حصان طروادة)، و (حي بني يقظان)، ورواية ثيربانتس (دون كيشوت)، وكنت أحرص على اقتناء أعداد السلسلة التي تصل إلى المكتبة كل شهر، وكما هي العادة أندمج مع أحداث الرواية وأعيش مع أبطالها أدق التفاصيل. في الغلاف الخلفي لكتاب (دون كيشوت)، وقعت عيناي على عبارة وضعها المترجم عادل غضبان: "الفارس الباحث عن العدالة". المرة الأولى التي أسمع بمثل هذه الكلمة: العدالة، ورحت أسأل نفسي: هل العدالة شيء موجود وملموس، يمكن للواحد منا أن يبحث عنه ويحصل عليه؟

في قراءاتي المتقدمة اكتشفت أن هذا السؤال نفسه حاول فيلسوف عاش عام 427 قبل الميلاد اسمه أفلاطون أن يناقشه، فقد كان موت أستاذه سقراط بالنسبة له التعبير الأكثر حدة عن التناقض بين القانون والعدالة، فكان أول

عمل قام به أن نشر مرافعة أستاذه عن العدل التي يَرّد فيها سقراط على أحد تلامذته تريماخوس، حين كان يقول إن العدالة ليست سوى براءة سخيفة، وإن القانون مسألة تتعلق بحسن التصرف، إلا أن العدالة بالنسبة إلى سقراط ينبغي أن تكون شيئًا من الأشياء التي يجب أن يحبها الإنسان لذاتها، وإن هذه العدالة هي واحدة لا تتجزأ، ونجد أفلاطون يقول في كتابه (الجمهورية) على لسان سقراط: "ألسنا نقول أن ثمة عدالة ملائمة لإنسان بعينه، وأن هناك عدالة أخرى تصلح لمدينة بأسرها؟ لكن العدالة أيها السادة تقوم على أداء الإنسان لوظائفه وفقًا لتصوره، وهي عدالة مرتبطة بشكل مباشر مع العدالة العامّة".

ظلت شخصية دون كيشوت تمثل الإنسان الذي تتنازعه الرغبة في تحقيق العدالة والسلام، تلك القيم البسيطة التي كان يرى فيها الإسباني ميغيل دي ثيربانتس الحق الطبيعي للإنسان في هذه الحياة، لكنه حق يحتاج إلى من يسعى إليه، فهو مثل: "النجم البعيد البعيد الذي لا يني الإنسان - الإنسان الحقيقي طبعًا - يحاول الوصول إليه معتبرًا إياه حقه الطبيعي".

يكتب أرنستو ساباتو في (الكاتب وأشباحه) إن: "القراءة رحلة معرفية ووجدانية في نفس الوقت، ومن واجب الكاتب أن يُعد المسافرين في هذه الرحلة بما يحتاجونه من أدوات، ويعلمهم كيفية قراءة الخرائط وما ينبغي عليهم فعله عندما يضلون الطريق". كان هدفي من قراءة (دون كيشوت) هو الاستمتاع، فبالنسبة لي في تلك الأيام لم تكن القراءة تعني لي المعرفة، وإنما الدهشة من عجائب هذا الفارس النحيل، والمفاجآت التي كان يضعها المؤلف في طريقه، لم أكن أعرف أنني أُمسك بكتابٍ عظيم، قال عنه ميلان كونديرا: "إننا بإزاء عمل أدبي وضع أسس الأزمنة الحديثة"، وإن فيلسوفًا بأهمية كارل ماركس كان مفتونًا برواية ثيربانتس هذه وقال لإنجلز ذات يوم:

"ربما أستطيع أن أحاكي الأسلوب المتميز الذي ابتدعه ثيربانتس. نحتاج إلى كتب مثل (دون كيشوت) مليئة بالتناقضات، والفرضيات، والتفسيرات المبهمة، والسخرية غريبة الأطوار، والغرابة النادرة". تشير قائمة الكتب التي يَعود ماركس إلى قراءتها بين الحين والآخر إلى مؤلفات بلزاك وفرنسيس بيكون، وكتاب (الخطابة) لأرسطو وموسوعة (تاريخ أوروبا) التي وضعها تاسيتُس ورواية (دون كيشوت) لثيربانتس وكتاب لورانس ستيرن (حياة وآراء تريسترام شاندي).

في الخامسة والعشرين من عمري استطعت أن أرى بوضوح أهمية رواية (دون كيشوت). كانت الترجمة التي قرأتها فيما بعد لعبدالرحمن بدوي، وبالطبع مثل معظم القراء كنت أسرع من صفحة إلى صفحة، وقد استحوذ عليَّ التشويق. لم أكن أشعر بأنني أقرأ بدافع المعرفة، كما نقرأ أحيانًا العديد من الكتب، بل كنت أقرأ باستمتاع كبير، وكنت أسأل وأنا أتابع أبطال الرواية في مغامراتهم وأحلامهم وحياتهم اليومية: ما معنى العالم؟ إلى أي مدى يمكن لنا كأفراد أن تمتد أحلامنا؟ وبينما أتابع الأحداث التي يرويها ثيربانتس، المغامرات الوهمية، حكايات الحب، البحث عن العدالة، الحلم بحياة أخرى، كنت أشعر أن الأحداث تدور بالقرب مني، وعرفت وأنا ألتهم صفحات الكتاب معنى الفرح الإنساني، وإرادة الحياة، وقوة الأمل، وحقيقة الحب والعدالة. وكنت أثناء قراءتي الثانية للرواية أفكر بالصبي الذي التقط الرواية المصورة ذات يوم بعيد، لكي يُضيف كتابًا جديدًا إلى قائمة قراءاته، وحاولت وأنا أتابع مصائر الأبطال استعادة ذلك الصبي المتفائل، والذي ما يزال يظن أن الكتب تستطيع أن تريه كل شيء.

تكشف لنا دونالين ميلر في كتابها (الهامسون بالكتب) أنه ما من نشاط إنساني آخر أكثر إيجابية على الإنسان ومعرفته بالحياة مثل القراءة، وما من

حالة إنسانية يعيشها الإنسان أجمل من حالة التعاطف مع مؤلف الكتاب. بعد أن انتهيت من القراءة الثانية لدون كيشوت شعرت بالتعاطف مع ثيربانتس، فقد أثرت بي تفاصيل حياته التي عاشها. وإذا ما عدت اليوم بذاكرتي إلى الأيام الأولى التي اكتشفت فيها رواية (دون كيشوت)، أراني أطوف بنظراتي من ورقة إلى ورقة أخرى، وأنا أقرأ قصة مغامرة دون كيشوت ورفيقه سانشو، وكأني أعيش واقعًا كان بإمكاني أن ألمحه بمجرد أن أغمض عيني، ولم يهيئ لي أي كاتب، باستثناء دوستويفسكي، هذه المتعة الهائلة في الأدب.

يتأمل آندي ميلر في (سنة القراءة الخطرة) كيف غيّرت القراءة حياته، وكيف أن أسماء هذه الكتب تحولت إلى لافتات وضعت في طريق حياته، لافتات كل واحدة منها ترمز إلى الشخصية التي كان عليها أثناء قراءة الكتاب.

***

"إن ما ينتصر اليوم هو الكسل على السعي، والبطالة على العمل، والرذيلة على الفضيلة، والغرور على الشجاعة"

ثيربانتس

في مقدمة رواية (دون كيشوت) يكتب المؤلف ميغيل دي ثيربانتس: "أيها القارئ الخالي البال، صدقني إذا قلت لك إنني وددت أن يكون هذا الكتاب بلين ثمار الفكر أجمل وأبرع كتاب".

منذ أكثر من أربعمئة عام قرر رجل يعيش في قرية من قرى إقليم لامنشا في إسبانيا، رجل لم يتزوج، نحيف طويل يبلغ من العمر خمسين عامًا اسمه ألفونسو كيخادا، أن يكون فارسًا واتخذ لنفسه اسمًا: "دون كيشوت

دو لامانش". وبعد أن قرأ الكثير من كتب الفروسية فكر أن يعيد سيرة هؤلاء الفرسان، ومن أجل أن يستعد للمهمة استخرج من ركن خفي في البيت سلاحًا قديمًا متآكلاً، واتخذ من قطعة جلد عتيقة درعًا له، واختلس من حلاق القرية طبقًا نحاسيًا ليصنع منه خوذة. ولكي تكتمل الصورة لا بد أن تكون له امرأة تعشقه، فاتخذ من الفلاحة دولسينا عشيقة في الخيال، هو عاشق لأن: "الفرسان مرغمون على أن يكونوا كذلك"، ثم تذكر أنه لكي يصبح فارسًا جوالاً ينبغي أن يتخذ له تابعًا، فاستطاع أن يغوي فلاحًا ساذجًا هو سانشو بانثا لكي يكون تابعًا وحاملاً لشعاره، شأن أتباع الفرسان في قصص الفروسية، ويعده أن يجعله حاكمًا على إحدى الجزر. يخرج الفارس وتابعه إلى الدنيا العريضة، وأثناء خروجهما تصادفهما أحداث عادية، إلا أن خيال الفارس يحولها إلى مغامرات، فالمعركة مع طواحين الهواء توهّمها حربًا ضروسًا مع الشياطين، والمرأة المسافرة مع أفراد حمايتها، يزين له خياله إنها مخطوفة والواجب يحتم عليه تخليصها، وقطيع الأغنام يتحول إلى جيش عظيم. وبعد حوادث عديدة يتعرض لها دون كيشوت لا يريد أن يُدرك الحقيقة، إن زمن الفروسية انتهى، فهو يعتقد أن خصومه من السحرة قد أرادوا حرمانه من نصر مؤكد، فقد مسخوا بسحرهم العمالقة الشياطين إلى طواحين هواء، والفرسان المحاربين إلى أغنام! ومع تكرار المآسي لا يريد الفارس أن يتعظ ولا يستمع إلى تحذيرات تابعه، ولا إلى نصائح قسيس القرية، ولا نداءات الحلاق لتستمر حياته على هذا الشكل، ويسقط يومًا صريع المرض، ليعلن الطبيب أن لا شفاء له، وتملأ الكآبة نفوس أصدقائه، ويقرر تابعه سانشو ألا يفارق فراش سيده المريض. وفي لحظة من لحظات الصحو يعترف دون كيشوت إن الغشاوة رفعت عن عينيه، وشفي من الجنون الذي أصابه، فهو الآن ليس الفارس الجوال دون كيشوت وإنما عاد إلى حقيقته الأولى ألفونسو كيخاتا، الرجل الطيب كما عرفه أهل قريته، ونراه يقول لصديقه الحلاق:

"أيها السيد الحلاق، كم هو أعمى من لا يرى من خلال نسيج الغربال". بعدها يصاب بحالة غيبوبة ليفارق الحياة بعدها، عندها ينتهي المؤلف من كتابه عام 1615، وليموت ثيربانتس أيضًا بعد شهور.

على سرير مرضه كان الروائي مارسيل بروست يضع رواية (دون كيشوت) بالقرب من رأسه، يعيد قراءتها بين الحين والآخر، ويكتب في دفتر يومياته: "لا توجد في رواية ثيربانتس أي واقعة ليست خيالية.. توجد رواية بلا التباس، لم يكتبها ليتكلم عن حياته، بل من أجل أن يوضح لعيون القراء حياتهم هم".

تخبرنا سيرة المؤلف ميغيل دي ثيربانتس أنه ولد عام 1547، لم تتح له ظروف عائلته المادية أن يكمل دراسته فالتحق بالجيش يحارب الأتراك، وأن يده اليسرى عطلت عن العمل، وأنه أُسر من قبل المغاربة وبقي في السجن خمس سنوات، بعدها يعود إلى إسبانيا يعاني من الفقر والإهمال. كتب قصصًا قصيرة ومسرحيات لم تحظ بالاهتمام، بدأ بنشر الجزء الأول من رواية (دون كيشوت) عام 1608 بعد أن أمضى ثماني سنوات في كتابتها، ثم ظهر الجزء الثاني عام 1615. وفي السنة التالية لنشر الكتاب، توفي ثيربانتس في دير للراهبات في مدريد.

يكتب ميغيل أونامونو إن رواية (دون كيشوت): "بمثابة الإنجيل الإسباني الحقيقي، وإن سيدنا دون كيشوت هو المسيح الحقيقي".

إن قراءة (دون كيشوت) متعة لا تنتهي، وإنها مثلما يؤكد الناقد الإنكليزي هارولد بلوم ستظل "أفضل رواية وأول الروايات جميعًا".

بعد أن أنهيت القراءة الثانية لدون كيشوت أيقنت أن هناك جوانب في نفس كل قارئ لن يعرفها معرفة كاملة إلا حين يتعرف بشكل حقيقي على

دون كيشوت وسانشو.

في عام 1937، وقبل سنة من وفاته، كان هوسرل يلقي محاضرة حول ديكارت حين سأله أحد الحضور: كيف يرى جذور الأزمة التي تمر بها أوروبا الآن؟ صمت الفيلسوف الألماني قليلاً، ثم قال لمحدثه: "أنصحك أن تقرأ ثيربانتس، ربما تجد الإجابة في ثنايا حوارات دون كيشوت". كان هوسرل قد تحاور من قبل مع تلميذه هيدغر حول الفلسفة والأدب، وكان التلميذ يعتقد إن الفلسفة والعلوم قد نسيا كينونة الإنسان، وإن هذه الكينونة إنما تم الكشف عنها وإضاءتها بواسطة أربعة قرون من الرواية الأوروبية، منذ أن قرر ثيربانتس أن يخوض المغامرة البشرية.

كيف نحكم على رواية ثيربانتس إذًا؟ لنستمع إلى دون كيشوت يقول لتابعه: "أصغ يا سانشو، هناك ضربان من الجمال، أحدهما يخص الروح والآخر الجسد. أما جمال الروح فيفوق الجسد في معرفة الحشمة، والسلوك، والتربية الصالحة، وسماحة العقل، وكل هذه الفضائل يمكن أن تتجمع في إنسان قبيح".

***

العام 1886، سألت إحدى السيدات الكاتب الإنكليزي أوسكار وايلد، وكان يعمل رئيسًا لتحرير مجلة (عالم المرأة) عن الكتب التي ينصحها كامرأة بقراءتها، فكانت إجابته مقالاً نشره في المجلة بعنوان (مقدمة في الفن). والطريف إن المقال الشهير الذي وضع فيه وايلد نظريته في الفن والأدب ترجمه إلى العربية أحد أشهر أطباء علم النفس في العراق الدكتور علي كمال، ونشرته مجلة الرسالة المصرية عام 1942، ومن وصاياه التي تضمنها المقال: "ليس هناك كتاب أخلاقي أو غير أخلاقي. الكتب إما أن تكون كتابة جيدة أو رديئة، وهذا كل شيء".

لا أحد منا يسأل نفسه لماذا يقرأ، فالبعض ربما يقرأ من أجل قضاء الوقت، والبعض يسعى نحو المعرفة، والبعض يفتش في الكتب عن نفسه، فيما كثيرون يدفعهم الفضول. وإحدى فوائد القراءة كما يخبرنا جميع الكتاب هي أن نعد أنفسنا للتغيير. بالنسبة لي لا أعرف لماذا بدأت حكايتي مع الكتب بقراءة الروايات، وخصوصًا المليئة منها بالرسوم. من المؤكد إنني كنت أبحث عن الحكاية وسحرها، وعرفت من خلالها متعة اقتناء الكتب والتعرف على أصحاب المكتبات، وكان واحدًا منهم العم كمر الذي بدأ حياته يفترش الكتب بجوار جامع الأورفه لي، ثم افتتح مكتبة صغيرة أسماها السعدون. في بسطية العم كمر عثرت على رواية لم أسمع باسم كاتبها من قبل، وإنما الفضول تملكني وأنا أشاهد غلافًا ملونًا لكتاب بعنوان (شبح كانترفيل) ترجمة لويس عوض، وكان الكتاب مطبوعًا في 1968 وعلى صفحة غلافه الأخير قرأت: "هذه الرواية لكاتب إنكليزي اسمه أوسكار وايلد، صاحب الرواية الشهيرة (صورة دوريان جراي) والتي أثارت زوبعة كبيرة أدت إلى إلقاء القبض على مؤلفها وإيداعه السجن". من هو أوسكار وايلد؟ ومن هو لويس عوض وما حكاية دوريان جراي التي ذهبت بصاحبها إلى الحبس؟ سألت صاحب البسطية عن الرواية فقال لي إنها غير متوفرة عنده الآن وسيجلبها لي الأسبوع المقبل، أخذت (شبح كانترفيل) ووضعتها مع كتبي المدرسية على أمل أن ألتقي بصورة دوريان جراي الأسبوع المقبل.

لم تستهويني (شبح كانترفيل)، كانت قصة عن الأشباح، ونساء غريبات الأطوار، وقصر مسكون بالسحر، ومؤامرات لم أستطع أن أفهم منها شيئًا آنذاك. كنت في شوق لأعرف لماذا سجن أوسكار وايلد وهل للأشباح والسحرة الذين قابلتهم في روايته (شبح كانترفيل) دور في ذلك؟ لم أفهم أن الكاتب يعد واحدًا من أبرز كتاب المسرح الإنكليزي، وإنه قدم نظرية

خاصة عن الفن، وإن لويس عوض كرّس أكثر من عشر سنوات لترجمة عدد من أعماله إلى العربية. لم تكن الأشياء واضحة في ذهني. ولكن ظل سؤال لماذا سجن يطاردني.

***

في ظهيرة يوم ممطر من شهر تشرين الثاني عام 1895، وقف أوسكار وايلد بانتظار القطار الذي ينقله إلى السجن، كان قد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عامين بتهمة الأفعال الفاضحة. شاهد المارة الكاتب الشهير مكبل اليدين، في السجن تمت مراعاة مكانته فكلف بمهمة مساعد أمين المكتبة، مما أتاح له فرصة نادرة للحديث مع السجناء عن موضوع محبب إلى نفسه، وهو القراءة. في الوقت نفسه أخذ يقدم نصائح ممتازة عن الكتب لمن يريد أن يقرأ من السجناء.

التقارير التي كانت تقدم عن وايلد في السجن تقول إنه كان منهمكًا في إعادة قراءة الكلاسيكيات المحببة إلى نفسه، فقد طلب أن يحصل على سبعة كتب أبرزها (الكوميديا الإلهية) لدانتي، ويكتب في رسالة إلى شقيق زوجته إن: "الحرمان من الكتب فظيع مثله مثل الحرمان الجسدي في حياة السجن الحديثة، هذا الحرمان الجسدي لا يُقارَن بالحرمان التام من الأدب بالنسبة لشخص كان الأدب له أهم شيء في الحياة، الشيء الذي يمكن من خلاله إدراك الكمال، ومن خلاله وحده يمكن للعقل أن يشعر بأنه حي".

وفي عريضة قدمها إلى وزير الداخلية شرح وايلد معاناته من نقص الكتب التي هي أساسية لكي يحافظ الإنسان على توازنه العقلي. وقد سمحت له إدارة السجن بقراءة كتابين في الأسبوع، ولكن مكتبة السجن صغيرة جدًا، فتم السماح له بإدخال كتب جديدة، فطلب روايات غوستاف فلوبير وكتب إرنست رينان، وبعض مؤلفات شكسبير ورواية ثيربانتس (دون كيشوت)،

وكتب سبينسر وأشعار كيتس ومؤلفات أفلاطون ونسخة من الإنجيل، ومجلدًا يضم أعمالاً من المسرح الإغريقي، ونسخة من (إلياذة) هوميروس. يكتب في إحدى رسائله إن: "الكوميديا الإلهية لدانتي فوق كل الكتب ساعدته على فهم العالم البشع للسجن، لقد قرأت دانتي من قبل، كل صفحة فيه، لا المطهر ولا الفردوس كانا يعنياني... ولكن الجحيم! ما الذي يمكنني فعله سوى أن أعجب به؟ الجحيم، ألم نكن ساكنين فيه؟ الجحيم كان هو السجن".

بعدما قضى العام الأول من مدته، وضع وايلد مقترحات بشأن أفضل الكتب التي على السجناء الاطلاع عليها، وقد قسم قائمته إلى ثلاثة أصناف من الكتب.

يضم القسم الأول الكتب الواجب قراءتها ويضع وايلد (الكوميديا الإلهية) و (إلياذة) هوميروس و (دون كيشوت) في المقدمة، بعدها رسائل شيشرون وكتاب رحلات مارك بولو ومذكرات سان سيمون ورواية (مدام بوفاري) و (صومعة بارما) لستندال.

أما القسم الثاني فيضم الكتب التي تستحق أن تُقرأ مثل مؤلفات أفلاطون ودواوين كيتس وكتاب (دليل المرأة الذكية) لبرنارد شو.

إلى جانب هذين القسمين يضيف وايلد قسمًا ثالثًا وهو يخص الكتب التي يجب ألا تقرأ، وهو يقول: "مثل هذه القائمة بالكتب السيئة ضرورة مهمة، خصوصًا أننا نعيش عصرًا يقرأ المرء فيه كثيرًا إلى حد إنه لم يعد له الوقت ليتعجب ويفكر"، ويطالب كل قارئ كتب أن يضع قائمة بأسوأ مئة كتاب ليجنب الشباب فوضى القراءة غير النافعة.

في روايته (صورة دوريان جراي) التي نشرها عام 1891، والتي اعتبرت درسًا في الفن أكثر من كونها عملاً أدبيًا، يروي لنا أوسكار وايلد حكاية

الشاب الثري والجميل دوريان جراي، الذي قرر أن يكرس حياته للذة والجمال. وذات يوم، يهديه صديقه الرسام بازيل لوحة رسمها له، وقد عبّرت بشكل كبير عن جمال شكله وفتنة شبابه. وأمام هذه اللوحة، يحسّ دوريان بغصة وبألم، إذ أخذ يفكر في الزمن الذي يمضي بالإنسان سريعًا ويعجّل بالشيخوخة، ويتمنى أن يحفظ له الزمن شبابه الدائم وشكله الجميل دون أن تؤثر فيهما عوامل الشيخوخة، وأن تتحول علامات الزمن على اللوحة ليرى كيف سيغير الزمن ملامحه. أخيرًا تتحقّق له أمنيته، إذ أن اللوحة التي يخبئها دوريان جراي في مكان سري تحمل عنه كل الرذائل التي يمارسها وتعب السنين، وتنعكس على ملامحها آثار الزمن، أما هو فيبقى محافظًا على شبابه وجمال شكله.

وهكذا يتمكن دوريان جراي أن يعيش حياته كما يريد، ينصرف إلى ممارسة جميع أنواع الملذات مع صديقه هنري ووتون، الذي يصاب بالدهشة لأن دوريان جراي لا يشيخ بينما الزمن والسهر يؤثران على حيوية ووتون وصحته. ودوريان لفرط انصرافه إلى حياته يتجاهل النظر إلى اللوحة لكنه يتذكرها بعد أن تنتحر خطيبته سيبيل، فيجد أن صورته تظهر عليها أول ملامح القسوة، بعد ذلك تبدأ ملامح اللوحة تتغير بتغير سلوكيات دوريان جراي الذي يقرر أن يقتل الرسام بازيل، وتبدأ اللوحة تذكره بالخدعة التي يعيش فيها، وبأنه يعيش حياتين، وتضع له اللوحة أمام ناظريه وجهه الحقيقي، البشع والعجوز الذي لا يعرف عنه الآخرون شيئًا. وإذ تتصاعد مشاعر القلق والرعب والجنون داخل دوريان كلما نظر إلى اللوحة أكثر وأكثر، يشعر بأن هذه اللوحة هي حقيقته وليس وجهه الشاب الذي لا يشيخ، وينتهي به الأمر إلى طعن اللوحة بالسكين راغبًا في التخلّص منها، فإذا به يسقط ميتًا وكأنه وجّه الطعنة إلى نفسه لينهي حالة الانفصام التي عاشها.

3

وعلى السرير جلست وقررت السفر إلى القمر

"إن الكتب التي تساعدك أكثر هي الكتب التي تجعلك تفكر أكثر، فالكتاب سفينة من الأفكار، محمل بالحقيقة والجمال"

بابلو نيرودا

كان أندريه جيد يقول لصاحب دار غاليمار للنشر: "هناك ثلاثة أنواع من البشر يدخلون المكتبات: النوع الأول يستمتع بشكل الأغلفة، والثاني يبحث عما يشغل وقته الفائض، والثالث الذي يتمنى ألا يصل إلى نهاية الكتاب".

في السادسة عشرة من عمره وبعد أن أيقن أن مسيرته المدرسية ستنتهي بالفشل، قرر هيرمان هيسه أن يعمل بائعًا للكتب ليحصل على المال، وأيضًا ليكون قريبًا من عالم يعشقه جدًا، فهو يتذكر أن خلال فترة صباه كانت مكتبة جدّه المليئة بأمهات الكتب تثير في نفسه السعادة: "قرأت نصف أدب العالم منكبًّا على تاريخ الفن واللغات والفلسفة بمثابرة من شأنها أن تؤهلني للنجاح في أي جامعة اعتيادية".

كان هيسه قد عمل من قبل ميكانيكيًا، لكنه وجد في مهنة بيع الكتب متعة وفائدة أكبر من العجلات والبراغي التي اضطهدته. وأثناء عمله انغمس في قراءة التاريخ: "لاحظت أن في المسائل الروحية تكون الحياة في

الحاضر المعاش والأكثر معاصرة غير محتملة تمامًا وخالية من أي معنى. ومن الممكن فقط الوصول إلى الحياة الروحية بالعودة المستمرة إلى ما هو ماض، إلى التاريخ، إلى القديم، إلى البدائي"، ومن أجل العيش مع التاريخ انتقل من مخزن الكتب الذي يبيع الكتب الحديثة إلى مكتبة متخصصة بعرض كل ما هو قديم من كتب ومخطوطات.

في العام 1890 يحدث التحول الكبير في حياته، فقد قرأ خبر وفاة فريدريك نيتشه، لم يكن يعرف شيئًا عن الفيلسوف الألماني الكبير، فبحث في المكتبة عن كتبه، آنذاك كان هيرمان هسه مصممًا على أن يجعل الجميع يعترفون به شاعرًا. كتب عددًا من القصائد لم تنجح وحين عثر على كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) وجد أن الفيلسوف قد أخذ بيده: "كان الجفاف يحيط بي فأخذ نيتشه بيدي"، هكذا أصبح نيتشه بشاربه الكث ونظراته المجهدة هو الكاتب الذي شغف به ابن الثالثة عشرة، ليكتب في دفتر يومياته: "لقد أعاد نيتشه تقييم كل القيم التي كنا نؤمن بها".

اكتشف هيسه من خلال عمله في المكتبة أن حياته متعلقة بالكتب، وكان يستمتع كثيرًا حينما يجد نفسه لوحده مع الكتب: "ها أنا ذا وحدي بمحض إرادتي، وحيد وسعيد بوحدتي مع الكتب".

يخبرنا هسه أننا جميعًا في بعض الأحيان "نقرأ بسذاجة، نستهلك الكتاب كما نستهلك الطعام، نأكل ونشرب حتى نشبع، وبهذا نتحول إلى مجرد متلقين، لا ننظر إلى الكتاب كندٍ لنا، بل مثلما يَنظر الحصان إلى سائقه، أينما يقود الكتاب تجدنا نتبعه، نأخذ الأفكار وكأنها أمر واقع، ويطلب منا أن نواجه قضية القراءة بحرية كاملة، وألا نتطلع إلى التثقيف أو التعليم من خلال الكتب، بل علينا أن نستخدم الكتاب كما يستخدم أي شيء آخر في العالم، القراءة يجب أن تكون مجرد نقطة انطلاق وتحفيز." - (داخل المكتبة

خارج العالم) ترجمة راضي النماصي-.

من بين كل الزائرين للمكتبة التي كنت أعمل فيها، أعتقد أن لا أحد منهم يشبه شغف الروائي فؤاد التكرلي بالكتاب. قال لي يومًا: "أنا أحب الكتب التي تعيش طويلاً مع القارئ"، وحين شاهد حيرتي أضاف مبتسمًا: "عليك أن تعرف أن للكتب أيضًا حياة مثل الإنسان، فهناك كتب تعيش حياة طويلة وأخرى لها حياة قصيرة"، وأشار إلى رواية (آنا كارنينا) الموضوعة على أحد الرفوف: "هذا الكتاب استطاع أن يصمد طويلاً أمام متغيرات الزمن لأن تولستوي فيه استطاع أن يغوص في داخل النفس البشرية".

قلت له: "لقد قرأت (الحرب والسلم).. إنها تحفة".

قال وهو يتصفح الكتب التي قرر شراءها: "كنت قد قرأت تولستوي ودوستويفسكي في الخمسينيات، لكني شغفت أكثر بتشيخوف.. الغريب أنني قبل أسابيع أعدت قراءة (الحرب والسلم) فاكتشفت أن تخطيط الرواية عنده غير منظم ولا متسق، قد تجد عشرات الصفحات تُنفق في وصف شخصية من الشخصيات وصفًا دقيقًا، في حين أنك لا تجد هذا في (آنا كارنينا)، فهل هي مثل رواية (مدام بوفاري) لفلوبير حيث كل شيء منظم بدقة؟"

قلت له: "قبل أيام قرأت رواية (لعبة الكريات الزجاجية) لهيرمان هيسه، لكني لم أفهم منها شيئًا". قلت ذلك وأنا أنتظر أن يرشدني للطريقة الصحيحة لحل ألغاز هذه الرواية المعقدة.

وضع الكتب التي كان يتصفحها جانبًا: "هل تعرف أن هيرمان هيسه اشتغل في مسائل التحليل النفسي وكان صديقًا لفرويد؟ ولهذا تراه في معظم رواياته يحلل مشاعر الشخصيات بدقة ومعظم رواياته تعبر عن أزمة

الإنسان". ويكمل التكرلي: "رواية (لعبة الكريات الزجاجية) صعبة لأن هيرمان هيسه وهو يكتب الرواية أعاد قراءة مئات الكتب عن ثقافة القرون الماضية وأعاد قراءة أعمال نيتشه خصوصًا كتابه (مولد التراجيديا)، وتفرغ لسماع موسيقى فاجنر، واطلع على كتاباته الفلسفية. إنها رواية تتأرجح بين الموسيقى والفلسفة والأدب العميق، أوصيك أن تعيد قراءتها ثانية وبهدوء".

عندما صدرت (لعبة الكريات الزجاجية) عام 1943، كتب توماس مان رسالة إلى هيرمان هيسه بعد أن انتهى من قراءة الرواية: "روايتك هذه كتبت بأسلوب ساحر وعميق تذكرني بأزمة نيتشه وصرخته الأخيرة من أجل إنقاذ الروح البشرية".

في كل مرة نعيد فيها قراءة كتاب، نكتشف إننا إزاء كتاب جديد، في قراءاتي التالية للعبة الكريات الزجاجية صادفت عالمًا آخر، مثلما اكتشفت فيها بعد أن هناك قراءات كثيرة ومختلفة للرواية من قبل النقاد. لقد قيل أحيانًا أن هيرمان هسه في اهتمامه المعلن بالموسيقى والفلسفات الشرقية، وفي توكيده على ظاهرة التأمل الروحي، قد عزل نفسه عن التيارات الرئيسية في الأدب الحديث، ورواية (لعبة الكريات الزجاجية) قد أكدت هذه الفكرة، فقد قال العديد من النقاد إنهم وجدوا في روايته الأخيرة هذه دعمًا جديدًا للفكرة القائلة إن مؤلفها فنان عظيم، لكنه في الوقت نفسه فيلسوف يغلف أفكاره بأشكال فنية صعبة.

القضايا المطروحة في (لعبة الكريات الزجاجية) قضايا مثيرة من خلال محاولة هيسه وصف لمنطقة من العالم تعيش في المستقبل عام 2200، حيث نجد جماعة روحية تريد إحياء نهج الطرائق الدينية القديمة، حيث لا وجود للمال والزواج، الشاغل الوحيد هو الفن والعلم الخالص، ونجدهم يضعون نظامًا دقيقًا، لكل واحد وظيفته: "كلما ارتفع شأن المنصب زاد عمق

الارتباط، وكلما عظم شأن الوظيفة أصبح الواجب أشد وأقسى. فلا مكان للظلم والاستبداد".

في هذه المدينة المتخيلة يعيش بطل الرواية الشاب جوزف كنخت الذي يكتشف معلم الموسيقى مدى ذكائه، فيلفت نظر النخبة إليه للاهتمام به وضمه إلى نخبة الشباب الذين يدربونهم ويثقفونهم على أمل أن يصبحوا لاحقًا من نخبة المدينة. وجوزف يتلقى ذلك الاهتمام حيث تصبح الموسيقى همه الأساس، إضافة إلى تعلّمه ممارسة لعبة الكريات الزجاجية. ولكن بما أن قيادة النخبة تريد التقارب مع الفاتيكان في عالم الزمن المقبل 2200 حيث لم تعد هناك حروب وكوارث متتالية، ولا يوجد في العالم سوى قوتين كبيرتين هما النخبة التي تعيش في هذه المدينة والتي تمثل عند هيسه عالم العقل المطلق، والفاتيكان الذي هو عالم الإيمان الروحي، فإن مهمة جوزف ستكون الاتصال بالفاتيكان، لكن جوزف يرفض، على رغم تعيينه معلّمًا أعلى، لأنه يدرك أن الجماعة التي ينتمي إليها، كما لعبة الكريات الزجاجية نفسها، آيلة للفناء والزوال، أما الخلود فهو بالنسبة إليه في مكان آخر، هناك حيث حكمة التاريخ وقيم العلم. "يكتشف جوزف إن الحياة الحقيقية ليس في عالم القشتالية الجامد الأبدي اللامتغيّر. ومن هنا يأخذ على عاتقه مهمة جديدة من الواضح أن أحدًا لم يكلفه بها سوى عقله: مهمة خلط عالم النخبة الذي يمثل النقاء والطهارة الخالصين بالعالم الخارجي حيث الحيوية والحركة"، ولكي يحقق حلمه هذا، سيكون عليه أن يبدأ من البداية، أي من الاهتمام بتعليم الصغار، وتكون هذه البداية مع أطفال أحد أصدقائه الذي ينتقل للإقامة معه في الجبل، وذات يوم فيما يحتفل بحريته عبر رقصة فوق بحيرة جليدية، يغرق ويغرق ليختفي تمامًا ولا تبقى منه سوى قصائده وأوراقه. ويطرح هسه سؤال الرواية المهم: هل كان ذلك الاختفاء نهاية وجوده؟ على

الإطلاق، حتى وإن كانت الرواية تتوقف عند تلك النقطة، فإن هسه أراد أن يقول لنا إن الحياة في تطور مستمر.

كانت (لعبة الكريات الزجاجية) آخر رواية يكتبها هسه الذي حصل بعد نشرها بثلاث سنوات عام 1946 على جائزة نوبل للآداب، ليتفرغ بعدها لهوايته المحببة الرسم، حيث اعتاد سكان الحي الذي فيه بيته أن يشاهدوا كل يوم الرجل الذي كانوا ينعتونه بالمتمرد وهو يضع على رأسه قبعة من القش وحقيبته على كتفه يضع فيها فرشاة الرسم والأصباغ، وفي يومياته يكتب هسه: "إنني أعيش في وحدة كاملة، ولا أعرف شيئًا عن العالم، أقرأ وأرسم كثيرًا وأستمع إلى الموسيقى التي تساعدني على التأمل".

***

"يعيش القارئ ألف حياة قبل أن يموت. أما ذلك الذي لا يقرأ أبدًا فيعيش حياة واحدة فقط"

جورج مارتين

يتذكر الفيلسوف البريطاني برتراند رسل مكتبة جدّه التي أثارت اهتمامه لما حوته من كتب في التاريخ والسياسة: "كنت أعرف كل كتاب من كتب المكتبة، وكنت أبحث في أركانها عما يثير مخيلتي من التاريخ القديم".

لعل أجمل سني حياتي تلك التي قضيتها أعمل في مكتبة أقاربي. كانت السنوات بين عمر الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، أبهج أيام العمر بالنسبة لي، وعندما أسترجع اليوم ما كنت أقرأه في تلك السنوات لا تدهشني عدد الكتب بقدر ما تدهشني تنوعها، كان الفضل الأكبر في هذا للمكتبة التي قررت أن أعمل فيها من دون أجر سوى فرصة اقتناء الكتب دون

مقابل، سيل منوع بعضها روايات للفتيان ذات الطباعة الأنيقة والملونة، وما كان يؤلفه طه حسين والحكيم وعباس محمود العقاد وسلامة موسى ونجيب محفوظ. وكتب أخرى ما تزال منطبعة في ذهني حتى الآن واحد منها كتاب ممتع اسمه (الفيزياء المسلية) أصدرته دار نشر سوفيتية آنذاك وبنسخة عربية، وأتذكر أنني أخذت الكتاب إلى البيت. كنت أشعر بالإثارة وأنا أقرأ عن ظواهر نصادفها كل يوم ولكننا لا نعرف الإجابة عنها.

متى ندور أسرع حول الشمس؟ كيف يجب القفز من العربة المتحركة للأمام أم للخلف؟ أيمكن أن نمسك رصاصة متحركة؟ كم يزن الجسم عند سقوطه؟ كيف نعرف البيضة المسلوقة من النيّئة؟ كيف تنقل الماء بالغربال؟ هل صحيح أن الجليد لا يذوب في الماء المغلي؟ لماذا وكيف ينكسر الضوء؟ هل من السهل كسر قشرة البيضة؟ وأعجبتني طريقة المؤلف البسيطة في شرح النظريات العلمية المحيرة، وعرفت فيما بعد أن مؤلف (الفيزياء المسليّة) عالم روسي اسمه ياكوف بيرلمان، توفي في عام 1942. ولعل من أجمل الحكايات التي قرأتها في كتاب بيرلمان هي حكاية جول فيرن وروايته الشهيرة (من الأرض إلى القمر) والتي تخيل فيها الروائي الفرنسي إمكانية إرسال بشر إلى سطح القمر عن طريق وضعهم في كبسولة وإطلاقها عبر مدفع إلى القمر.

وبالطبع فإن من يقرأ رواية صدرت قبل أكثر من قرن ونصف، تتحدث عن الصعود للقمر، سيأخذها على محمل الخيال وضروب الجنون والخبل، وسيتعامل معها على أنها رواية طريفة خيالية يسلي بها وقته فحسب. لكن بيرلمان يأخذها على محمل الجد تمامًا، ويذهب في تفصيل إمكانية تطبيق نظرية جول فيرن عمليًا.

يخبرنا أنيس منصور أن العقاد قال له يومًا إن هناك نوعين من الصدمات، واحدة تفتح الرأس، وواحدة تفتح العقل، وهذه الثانية هي التي تحدثها

قراءة الكتب. وبعد انتهائي من قراءة (من الأرض إلى القمر) كان لابد لي من اتخاذ قرار يجيب على سؤال مهم: إلى أين يذهب أولئك الذين يملكون شغفًا بالكتب؟

في يوم من صيف عام 1839، خيّم جو من القلق على بيت المحامي بيير فيرن، فقد تغيب الابن الصغير فجأةً عن المنزل، وقالت شقيقته الكبرى إنها شاهدته يخرج في الصباح باتجاه البحر، وصرخت أمه إن هذا الصبي لا بد أن يكون قد غرق، وذهب الجميع باتجاه البحر فأخبرهم أحد البحارة أنه شاهد الصبي جول يصعد في مركب ليأخذه إلى واحدة من البواخر التي ستنطلق إلى الهند.

وصرخت الأم: يا إلهي.. الهند!

ويسرع الأب إلى المرفأ، وهناك يخبروه أن السفينة قد أبحرت، فيقرر أن يستأجر زورقًا للحاق بها، وقد نجح في الوصول إلى ابنه الذي وجده يَنظر إلى البحر. وحينما عاد جول إلى البيت سألته أمه عن سبب هروبه أخبرها أنه كان بصدد السفر إلى الهند ليحصل على عقد من المرجان يقدمه هدية لابنة عمه. كانت هذه أولى مغامرات الفتى الذي لم يبلغ الثانية عشرة من عمره، كان الجميع يدرك أن لجول تصرفات غريبة، فتتذكر أمه أنه حبس نفسه في غرفته حيث قام بتصنيع جزيرة سماها جزيرة فيدو، استمد شكلها من قراءته لكتاب ألف ليلة وليلة. كان الصبي جول يمتلك خيالاً مدهشًا ولهذا قرر أن يستخدم هذا الخيال في كتابة القصص التي كان يكدسها في غرفته، لم يشأ أن يطلع عليها أحد فقد كانت تلك الكتابات تدور حول إمكانية الطيران في الجو أو الغوص في أعماق الأرض، وهو موضوع استولى على تفكيره آنذاك، ورغم حلمه هذا فإنه لم ينس البحر ومغامرته الأولى فنراه يكتب عام 1855 في يومياته: "أحد الأصدقاء تكرم علي برحلة مجانية إلى اسكوتلندا". هكذا

استطاع جول فيرن أن يتعرف على البحر أكثر، ويبدأ بتسجيل انطباعاته على الورق يزينها برسومات ملونة، لكنه كان مشغولاً بقصة أخرى، حكاية رجل يصل إلى أفريقيا عن طريق بالون اسماها (قصة بالون) يقرر في عام 1862 أن يعرضها مع مجموعة من القصص القصيرة على أحد الناشرين، ما إن ينتهي الناشر من قراءتها حتى يقول له: "آسف. بالرغم مما تحمله هذه القصص من أفكار جديدة، إلا إنها مكتوبة بطريقة مفككة"، وينصحه بأن يركز في كتابة رواية واحدة متماسكة.

ويمر شهر ويعود جول فيرن إلى الناشر ومعه رواية عن رحلة حول العالم يقوم بها شخص من خلال بالون. يتصفح الناشر الرواية، ويدرك أخيرًا أنه وجد المؤلف الذي يبحث عنه، ويحرر معه على الفور عقدًا، يطلب من خلاله أن يزوده جول فيرن بروايتين كل عام مقابل عشرة آلاف فرنك عن الكتاب الواحد ولمدة عشرين عامًا. وبعد أسابيع يشاهد المارّة على واجهات المكتبات كتابًا ملونًا بعنوان (خمسة أيام في بالون)، وسارع الآباء إلى شراء نسخ لإهدائها إلى أبنائهم. تنفد الطبعة الأولى، وسرعان ما تترجم رواية جول فيرن إلى معظم لغات العالم، بعدها ينشر روايته المثيرة (رحلة إلى مركز أعماق الأرض). وفي عام 1864 ينشر روايته الثالثة والمثيرة (من الأرض إلى القمر) والتي قيل إنه استوحاها من قصة قصيرة لإدغار آلن بو، التي يروي فيها القاص الشهير حكاية رجل يقرر السفر إلى القمر بواسطة منطاد، إلا أن رواية جول فيرن تختلف في فكرتها حيث بنى الرواية على فكرة صنع مدفع عملاق يطلق قذيفة خارج جاذبية الأرض، وقد استعان فيرن بأحد أقاربه وهو عالم رياضيات لضبط الحسابات اللازمة لإطلاق المدفع، ليعرف ما هي السرعة المطلوبة التي تؤدي إلى انطلاق القذيفة خارج نطاق الجاذبية الأرضية. في الرواية نحن أمام مجموعة تقرر إرسال ثلاثة رجال إلى الفضاء

من خلال قذيفة يطلقها مدفع عملاق باتجاه القمر، ولم يعلم أحد من القراء ما إذا كان هؤلاء الرجال سيعودون إلى الأرض أم سيختفون في الفضاء. وكان على القراء أن ينتظروا الإجابة عن هذه الأسئلة حتى نشر جول فيرن روايته الرابعة (حول القمر) حيث يخبرنا عن مصير الرجال الثلاثة الذين نجدهم في الرواية الجديدة في حالة من انعدام الوزن، وهم يدورون حول القمر.

أول مرة رأيت فيها اسم جول فيرن كانت من خلال سلسلة مطبوعات باسم (كتابي)، وهي كتب بحجم كف اليد الصغيرة يلخص من خلالها مترجمها حلمي مراد أمهات الكتب. أتذكر أنني أخذت الكتاب وكان الوقت شتاءً، حيث ذهبت إلى السرير تلحفت بالغطاء حتى ذقني، وبدأت أقرأ رحلة جول فيرن إلى القمر، تخيلت نفسي داخل المدفع العملاق، ثم وأنا أحلّق في الفضاء. وبعد سنوات حين قرأت رواية الكاتب الإنكليزي ه. ج. ويلز (أول من وصل إلى القمر) كنت أتذكر ذلك الصبي الممدد على السرير، الحالم بالنجوم والسماء، يمسك كتابًا صغيرًا يبدو في شكله الخارجي مجرد رواية مغامرات، لكنه يكتشف أنه يعيش مع كاتب تحفل رواياته بالمفاجآت التي من شأنها أن تلقي السرور في نفس قارئ صغير أدهشته آنذاك تلك الرواية التي جعلت كاتبها يحاول أن يحل ألغازًا تدور في أذهاننا جميعًا. وبعد سنوات حين أعيد اليوم قراءة (من الأرض إلى القمر) أدرك جيدًا أن جول فيرن لم يكتب رواية مغامرات، بل حاول أن يقدم للقارئ عملاً فكريًا يلخص إيمان الكاتب بالإنسان وبالفكر الإنساني القائم على سلطة المعرفة، وعلى قدرة الحضارة على أن تُقدّم للإنسان، ليس أجوبة نظرية فقط، بل حلولاً عملية أيضًا.

4

مَن الذي لا يتمنى أن يلتقي (الأمير الصغير)

"معرفة القراءة هي أفضل شيء حدث لي في هذه الحياة"

ماريو فارغاس يوسا

كانت فرجينيا وولف تأمل أن تكتب رواية للأطفال شبيهة بما كتبه الفرنسي سانت إكزوبيري في (الأمير الصغير)، في يومياتها تكتب: "نحتاج إلى كتب تجعل القراءة بالنسبة إلينا متعةً، قبل أن تكون سبيلاً إلى المعرفة أو مجالاً لتصحيح آراء الأخرين". وبعد قراءتها لأعمال سانت إكزوبيري تخبر زوجها أن هذا الكاتب الفرنسي له: "موهبة فياضة في رواية القصة التي يكتبها، تلك الموهبة التي أصبحت أندر المواهب وجودًا بين كتاب القصة في العصر الحديث".

حين كنت في المدرسة المتوسطة أعطاني مدرس اللغة العربية نسخة مصورة من رواية (الأمير الصغير)، ومثل أي قارئ صغير كنت أعتقد أن هذه هي النسخة الوحيدة من الرواية. في البداية وأنا أقرأ الصفحات الأولى لم أفهم ماذا كان يريد مؤلف القصة، إضافة إلى أن هناك الكثير من الكتب لم أفهمها في قراءتي الأولى، فقد كنت أقرأ من أجل المتعة فقط، قاطعًا الطريق مع أبطال الروايات عبر الدروب التي يتنقلون فيها، تاركًا نفسي تنساق مع

أحداث الرواية.

ظلت كتب الأدب تسأل ما هو الإنسان؟ وجاء نيتشه ليطرح سؤالاً جديدًا: ماذا يستطيع الإنسان؟ وحاول سانت إكزوبيري أن يجمع بين السؤالين ويسأل: ماذا سيصير مصير الإنسان؟ فقد سعى إكزوبيري من أول كتاب أصدره (بريد الجنوب) عام 1926، وحتى كتابه (القلعة) الذي نشر بعد وفاته عام 1951، مرورًا بـ (أرض البشر) و (الأمير الصغير) و (طيران الليل)، ألا يتوقف عن تمجيد الإنسان. فالكاتب والميكانيكي والطيار وموظف البريد والهائم في الصحراء، كان في بحثه عن ماهية الإنسان أشبه بصاحب رسالة أخلاقية حاول من خلالها أن يمارس دور المرشد الروحي من خلال كتب لا تزال على قائمة الأعلى مبيعًا في العالم.

تكتب فرجينيا وولف في مقالة بعنوان (كيف نقرأ كتابًا كما يجب): "من البساطة أن نقول بما أن للكتب تصانيف، فيجب علينا أن ننتقي من كل صنف ما هو مفيد وخليق بأن يمنحنا الجديد. يبقى هناك الذين يسألون عما تعطينا إياه الكتب. غالبًا ما نأتي إلى الكتب أول مرة ونحن بعقول مقسمة ضبابية، نبحث وقتها عن الرواية التي حدثت في الواقع، وعن الشعر الكاذب، وعن السيرة الذاتية المغرية، وعن كتب التاريخ التي تؤجج كبرياءنا. إذا استطعنا إبعاد كل هذه التصورات المسبقة عندما نقرأ، فإن هذه ستكون بداية مثيرة للإعجاب، لا تُملِ. إذا تراجعت عن ذلك، وأصدرت حكمًا مُسبقًا في البداية، ستمنع نفسك من الحصول على أي فائدة دسمة مما تقرأه".

يمكنني أن أتذكر الانفعالات التي ولّدتها أول الكتب في نفسي، هكذا كتبت فرجينيا وولف في رسالة عام 1918، وجهتها إلى قارئة تسألها عن أهمية الكتب في حياة الإنسان. اعتادت وولف أن تقرأ في الصالة الخضراء في منزلها الذي اشترته، بيت بسيط في إحدى القرى مشيد بالحجر وسط حديقة

كبيرة، حيث كان هذا البيت بالنسبة لها ملجأ للهدوء والطمأنينة: "هذا البيت عبارة عن مركب يحملني فوق أمواج القراءة والكتابة المقلقة والمخدرة في آن واحد".

وفي غمار الحرب انزوت الكاتبة الإنكليزية الشهيرة في ركن من الصالة لتعيد قراءة شكسبير ولتتعرف على أهواء النفس البشرية وهي تواجه الدمار وآلة القتل: "شكسبير يزودنا برؤية واضحة ومخيفة عن الطبيعة البشرية ومصير الإنسان".

أتذكر أنني قرأت رواية فرجينيا وولف (السيدة دالواي) في ترجمتها العربية التي قام بها عطا عبدالوهاب في منتصف الثمانينيات، وما زلت أتذكر كيف أنني شعرت بالملل، وأعترف أنني فشلت منذ الصفحات الأولى في التعرف على أسرار هذه الرواية، وفشلت محاولاتي للظهور بأنني قارئ جيد أمام تلك السيدة التي تريد أن تشعرنا أن للساعات في حياتنا أهمية كبيرة علينا أن نعرف جيدًا كيف نقتنص لحظات الفهم والمعرفة فيها. كنت قارئًا كسولاً أو بتعبير أدق قارئًا عاديًا مثلما تصفنا فرجينيا وولف في كتابها الممتع (القارئ العادي)، هذا القارئ الذي دائمًا ما يبحث عن الأشياء السهلة التي تقدم له بعضًا من المعلومات الضعيفة والبعيدة عن الدقّة. صادفتني (السيدة دالواي) وأنا لا أملك خبرة في قراءة الرواية الحديثة. قبلها كنت جربت مع (يوليسيس) جيمس جويس بترجمة الدكتور طه محمود طه. وقد فشلت فشلاً ذريعًا في حل ألغاز الرواية، وعرفت فيما بعد أنني لم أكن الوحيد الذي ناله التعب. فقد سألت الكثير من الأصدقاء: هل قرأتم رواية (يوليسيس)؟ كان البعض منهم يضحك وآخرون يقولون: لم يقرأها سوى القليل، ومررت بالتجربة نفسها وأنا أصارع انفعالات ناتالي ساروت في ترجمة فتحي العشري. واكتشفت بعد سنوات أن ساروت وقبلها فرجينيا

وولف وقبلهما جيمس جويس، تخلوا بإرادتهم عن السرد التقليدي وألغوا الشخصية والعقدة والتسلسل الزمني مثلما تعودنا عليه في روايات القرن التاسع عشر، واعتمدوا بديلاً عن ذلك التكرار والملاحظة الدقيقة للأشياء الصغيرة والأحداث اليومية، وسعوا جميعًا إلى تغييب التسلسل الدرامي للأحداث. هكذا غيّرتني السيدة وولف لأصبح قارئًا يحمل شيئًا من النباهة، كما يقولون.

وفي سيرتها الذاتية التي كتبها ابن اختها كوينتين بيل يخبرنا أن رواية يوليسيس أثارت حفيظة فرجينيا وولف، وحركت فيها نزعة الخوف والحسد والإعجاب في نفس الوقت، فقد كانت تعتقد أن للرواية جوانبها الجمالية، لكنها لا تخلو من الخشونة والسوقيّة، لقد خيل إليها أن كاتبًا آخر قد انتزع قلمها من يدها ليحط في جرأة متناهية ما عجزت هي عن التعبير عنه.

***

"القليل من الناس يطلبون من الكتب ما تستطيع الكتب أن تمنحنا إياه"

فرجينيا وولف

حين ولدت فرجينيا وولف في الخامس من كانون الثاني 1882، لعائلة أرستقراطية تعيش في ضواحي لندن، ظن الجميع أنها لن تعيش طويلاً فقد كانت ضعيفة البنية، كادت تموت تحت نظر والديها، سترافقها الأمراض طيلة حياتها وتلزمها باتخاذ احتياطات طبية صارمة. هذا المرض تحول مع مرور الزمن إلى فرصة لأن تنسحب إلى عالمها الداخلي وتتفرغ لكتبها وأوراقها، في التاسعة من عمرها كتبت قصصًا قصيرة، كتمت منذ الصغر حبًا محرمًا لوالدها، توفيت والدتها وهي في الثالثة عشرة، فأصيبت بنوبات

من الهيستريا، وكانت تخاف الظلام. توفي والدها بعد عامين آخرين فأصيبت بانهيار عقلي، حاولت الانتحار أكثر من مرة، اعتقد المقربون منها أن زواجها يمكن أن يداوي آلام غياب الأب، تعرفت إلى زوجها ليونارد عن طريق أصدقاء مشتركين. عندما طلب الزواج منها استاءت وكتبت إليه رسالة حادة ينقلها لنا كوينتين بيل في سيرة حياتها: "أشعر بالغضب من طلبك، تبدو أجنبيًا للغاية، وأنا مضطربة إلى درجة تثير الخوف. كما قلت لك بقسوة، لا أشعر بأي انجذاب جسدي نحوك. مع ذلك يغمرني اهتمامك بي". ونجدها في نفس اليوميات تعترف أنها لم تشعر أبدًا بمتعة جسدية مع زوجها، رغم حبها الشديد له.

حار الأطباء في معرفة نوع مرضها وأسبابه، وعزاه عالم النفس جاك لاكان إلى الحساسية المفرطة التي لازمتها طوال حياتها وإلى الخوف من الجنس بعد أن تعرضت للتحرش الجنسي وهي في سنّ السادسة.

في رواية (السيدة دالواي) التي أعدت قراءتها من جديد بعد سنوات، وجدت نفسي أمام سيدة تتهيأ للاحتفال بعيد ميلادها، وهو حدث مهم تضطر السيدة دالواي لأن تغرق بسببه في الذكريات التي تزدحم بالأحاسيس والانطباعات والأسرار، ومن خلال "المنولوج" الداخلي نعرف كل شيء عن حقيقة هذه السيدة، ورغم أن الرواية تعرض لنا ثلاثة أزمنة من حياة دالواي، إلا أن أحداثها تدور في يوم واحد هو يوم عيد ميلادها، لكنها تستغرق أيضًا مساحة أخرى عريضة في حياة صاحبتها، مضافًا إليها مساحات زمنية أخرى تمثل علاقتها بالآخرين، وتستخدم وولف حيلة فنية وهي الاستعانة بساعة "بيغ بن" الشهيرة التي لا تكف عقاربها عن الدوران بشكل منتظم، بينما الزمن الخاص الذي تنتمي إليه السيدة دالواي ينبسط وينقبض، يتأخر ويتقدم وكأنه شريط سينمائي حافل باللقطات القريبة والبعيدة والمتوسطة،

يتأرجح ما بين الماضي والحاضر، ونرى فرجينيا وولف تأخذ دور المونتير في السينما، فهي تلتقط اللقطات التي تسجلها العدسة ثم تحاول إعادة ترتيبها وتوليفها، لتستقر في النهاية على نسخة العرض النهائية من الفيلم-الرواية، وهكذا نجد أنفسنا أمام روائية تحاول أن تضع الزمن الخارجي جنبًا إلى جنب مع الزمن الداخلي، فنلاحظ أن السلوك العام لكل من كلاريسا دالواي وبيتر والش وسبييموس سميث إنما محكوم بالزمن المادي، بينما يسيطر الزمن الداخلي - في نفس الوقت - على كل ما يجري في أذهانهم من صور وذكريات وأوهام.

في العام 1927 تنتهي فرجينيا وولف من كتابة روايتها (أورلندو) - صدرت عن دار المدى بترجمة توفيق الأسدي - وتهديها إلى إحدى صديقاتها التي جعلتها شخصية متحوّلة تبدأ حياتها فتىً، وتنتهي امرأة. أسرت بكتابتها جيلاً من الكتّاب الذين اعتبروها "منارة الرواية الحديثة"، تناولت في (الأمواج) ست شخصيات تروي حياتها من الطفولة إلى الشيخوخة. يخبرنا ابن شقيقتها بأن كل رواية كتبتها كانت تثير عندها صداعًا مزمنًا وتهيجًا عصبيًا وفقدانًا للشهية حتى عدّها الأطباء مجنونة، لكنها تغلبت على حالات الكآبة ومضت تعالج نفسها بالانصراف إلى الكتابة، ويضيف كوينتين بيل: "أن لحظات الاكتئاب كانت تعقبها لحظات الإبداع، وأن بوسع فرجينيا أن تنتفع من أمراضها".

من بين الذكريات المهمة في حياة فرجينيا وولف لقائها بعالم النفس الشهير سيغموند فرويد. في كتاب ممتع بعنوان (الأسس الثقافية للتحليل النفسي) كتبه بول روزان أحد أشهر مؤرخي حركة التحليل النفسي، يخبرنا أن اللقاء الأول تم عام 1938 . كان ليونارد وولف زوج الروائية فرجينيا وولف ناشرًا للكتب ومعجبًا بمؤلفات سيغموند فرويد الذي كانت شهرته آنذاك واسعة،

وعندما وصل فرويد إلى لندن عام 1938 ذهب ليونارد وفرجينيا للسلام عليه. في مذكراته يكتب ليونارد: "أدخلتنا ابنة فرويد آنا إلى مكتبه. كنت أحمل معي قصاصة جريدة نشرت موضوعًا حول محاكمة لص في لندن كان من بين سرقاته كتاب فرويد الشهير (مدخل إلى التحليل النفسي)، وكانت الحادثة قد تناقلتها الصحف خصوصًا بعد أن أصدر القاضي حكمًا بسجن اللص ثلاث سنوات وهو يقول له: "أتمنى أن أحكم عليك بقراءة كافة كتب فرويد". في ذلك اللقاء يقدم فرويد زهرة نرجس إلى فرجينيا، وتذكر فرجينيا وولف في يومياتها أنها قالت لفرويد: "إننا نشعر بالذنب - تقصد البريطانيين - لأننا كسبنا حرب ١٩١٤، لو لم نكسبها لم يكن هناك نازيين ولم يكن لهتلر أي وجود". ويجيبها فرويد أن مثل هذه التحليلات خاطئة، لأن هتلر سيوجد ومعه حركته النازية سواء فازت ألمانيا بالحرب أو خسرت.

بعد ذلك تكتب فرجينيا وولف في يومياتها وصفًا دقيقًا لفرويد: "كان يجلس في مكتبة كبيرة حوله تماثيل صغيرة مرتبة بدقة فوق طاولة كبيرة ولامعة. جلسنا على الكراسي كالمرضى، أمام رجل كبير بالسن منكمش وينظر بعينين رقيقتين، بالكاد تصدر منه حركات متشنجة ولكنه في وضعية تأهب دائمة. وحول هتلر قال بأنه لو عاش متأخرًا بجيل سيكون للسم مفعوله. وعن شهرة كتبه يقول: كنت سيء الصيت أكثر من كوني مشهورًا، لم أجنِ ٥٠ جنيهًا من كتابي الأول. كان حوارًا صعبًا، ساعدتنا ابنته وابنه مارتن بإمكانيات جبارة كشعلة مضيئة. لدى مغادرتنا كان يحدثنا عن موقفنا وما نحن فاعلين أمام الحرب الإنكليزية".

في اللقاء تحدثت فرجينيا وزوجها عن كتب فرويد، كان زوجها معجبًا بكتاب فرويد (علم النفس في الحياة اليومية)، واعترفت فرجينيا أنها أقل اطلاعًا على كتب علم النفس، وتخبرنا في يومياتها أنها بعد لقائها بفرويد

خصصت وقتًا كبيرًا لقراءة معظم أعماله.

كان فرويد مهتمًا بقراءة الأدب، وكانت فرجينيا وولف حريصة أن تهديه بعضًا من كتبها، وقد أخبرها فرويد أنه قرأ روايتها (الفنار)، صدرت الرواية عام 1927، وقد اهتم بها أصحاب مدرسة التحليل النفسي كثيرًا، حتى إن إدغار بيش في كتابه الشهير (فكر فرويد) يؤكد على أن مؤسس مدرسة التحليل النفسي كان مولعًا بقراءة الأعمال الأدبية، وأنه يولي اهتمامًا خاصًا للأعمال التي تتحدث عن النفس البشرية، ولهذا كتب عن دوستويفسكي ودافنشي وفان غوخ. كان فرويد يدرك أن فرجينيا وولف تعاني من مشاكل نفسية، لكنه لم يحاول أن يكلمها في الأمر رغم أنه مازحها في اللقاء الأول عندما سألها إن كانت ترغب في الجلوس على كرسي الضيوف أو على أريكة المراجعين. لم تذهب فرجينيا وولف إلى طبيب نفسي من قبل رغم اضطراباتها النفسية، ويخبرنا زوجها أنها رفضت لسنوات قراءة أعمال فرويد خوفًا من تداخل التحليل النفسي مع إبداعها الأدبي.

تعمدت فرجينيا وولف أن تفهم التحليل النفسي بطريقتها الخاصة، وكان البعض يرى أنموذجًا لفرويدية من طراز خاص في روايتها (الفنار) تضع معادلين نفسيين للحياة والموت كأساس للأحداث، وعلى لسان الشخصية الرئيسية في الرواية وهي الأب تقول لنا: "نحن جميعًا هالكون لا محالة". وفي يومياتها تكتب فرجينيا وولف عن هذه الرواية: "هذا العمل قد يكون أمرًا عاطفيًا: أبي وأمي، والطفل في الحديقة، والموت، والإبحار إلى الفنار، وشخصيات الرواية، والطفولة، وهذا الشيء غير الذاتي الذي تجرأت على إنجازه بمساعدة الأصدقاء وهو التحليق في الزمن".

تكتب آنا فرويد بعد اللقاء أن والدها استعد للقاء فرجينيا بالذهاب للحديقة واختيار أي زهرة ستكون الأنسب لها. "يبدو لي أنها مبالغة من نوع

غريب، من الممكن أن شخصًا آخر من العائلة قد اختار الموجود من الزهور للمكتب والتي بلا شك اختار فرويد منها اختيارًا فريدًا".

كتبت فرجينيا وولف ثلاث رسائل وداع، قالت في واحدة منهن: "إنني أجنُّ ثانية، وأشعر أنني لا أستطيع مواجهة وقتٍ صعب آخر. لن أشفى هذه المرة. بدأت أسمع أصواتًا ولا أستطيع التركيز، لذا سأقوم بما يبدو أفضل ما يمكن فعله... لا أستطيع إفساد حيوات القريبين مني أكثر مما فعلت". رأى زوجها الرسائل الثلاث وركض إلى النهر. كان الحذاء الذي ارتدته يعوم، تمنت بطلة رواية (أورلندو) ألا يجدوا جثتها، لكن جثة كاتبة بريطانيا الشهيرة وجدها الأطفال تطفو قرب الجسر، دُفنت في حديقة منزلها ومثلما طلبت في وصيتها بالعبارة الأخيرة من روايتها (الأمواج): "عليك ألقي نفسي بلا هزيمة أو استسلام يا موت".

***

"أنا أقرأ لكي أبحث عما يلمع.. فأنت تقرأ في النص من أجل شيء يضيء أمامك"

هارولد بلوم

كتب سانت إكزوبيري (الأمير الصغير) أثناء إقامته في نيويورك بناءً على طلب أحد الناشرين الذي أراد أن ينشر قصة للأطفال ويعرضها في واجهات المكتبات في أعياد الميلاد. كان يجلس في أحد المطاعم عندما رسم صورة لصبي صغير على غطاء المطعم، فاقترح عليه الناشر أن يجعل من صاحب الصورة بطلاً لرواية تكتب للصغار، ورغم أن الرواية كتبت خصيصًا للأطفال، إلا أن معظم النقاد والباحثين في الأدب يعتبرونها رواية لكل الأجيال لما فيها من

الأفكار العميقة التي تجعلها أشبه بنص فلسفي يقدم فيه مؤلفه أفكاره عن الحياة، لتضاف إلى سلسلة من الكتب اتخذت من الحكايات البسيطة موضوعًا لها تقدم من خلاله رؤى وأفكار ظلت راسخة في الأذهان مثل (أليس في بلاد العجائب) و (روبنسون كروزو) و (حكايات الأخوين غريم).

كانت (الأمير الصغير) آخر ما نشره الفرنسي سانت إكزوبيري المولود عام 1900، والذي ظل طوال عمره لا يريد أن يغادر عالم الطفولة: "من أين أنا؟ أنا من طفولتي". كان زملاؤه في المدرسة يسخرون منه بسبب أحلامه غير الواقعية، عمل طيارًا لكنه ظل يعشق الكتابة فنشر عام 1929 أول رواياته (بريد الجنوب)، بعدها بعامين تنشر له دار غاليمار روايته الثانية (طيران الليل) التي حققت نجاحًا كبيرًا، بعدها يقدم (أرض البشر) وكانت آخر أعماله التي نشرت بعد اختفائه كتاب (القلعة) وهو أشبه باليوميات.

تعرض سانت إكزوبيري للموت مرتين، الأولى في صحراء ليبيا والثانية في غواتيمالا، وأعطته هذه التجارب إحساسًا صوفيًا بدور الإنسان وهو يواجه الخطر، فبالنسبة لإكزوبيري فإن لحظة الميلاد بسيطة ولحظة الموت بسيطة ما دامت هذه المراحل تصل بالإنسان إلى نسيج يعمق الأخوّة البشرية.

في نهاية روايته (أرض البشر) يلتقي بطل الرواية الذي هو الكاتب نفسه في إحدى محطات القطار بعمال بولنديين يتم ترحيلهم من فرنسا إلى بولندا ويرى بين هذه الأكوام البشرية البائسة طفلاً كأنه فاكهة مُذهّبة مثلما يصفه: "هذا وجه موسيقي، هذا موزارت الطفل، هذه هدية جميلة من الحياة. وإن الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم في الأساطير لا يختلفون عنه في شيء. فماذا يصبح هذا الطفل لو وجد الرعاية والتثقيف؟ ما يعذبني هو موزارت الصريع في كل فرد من هؤلاء الناس. وليس هناك إلا الأرواح التي لو هَبت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان".

كتب إكزوبيري رواية (أرض البشر) عام 1939، وبعد أربعة أعوام يكتب (الأمير الصغير) التي يتناول فيها نقاء الطفولة. لم يتوقع أن يحقق هذا الكتاب الصغير كل هذا النجاح. فقد كان كل ما يأمله أن يعبر عن بعض الأفكار التي راودته ذات يوم حين تعطلت طائرته في صحراء خالية، في تلك اللحظة التي سيطر عليه الخوف والقلق وهو يحاول أن يصلح عطب الطائرة. يسمع فجأة وسط صمت الصحراء صوتًا طفوليًا يقول له: "من فضلك ارسم لي خروفًا". يلتفت في خوف وحذر ليجد أمامه طفلاً له هيئة غريبة ولكن ساحرة. يدور الحوار بين الطيار والطفل الذي يلح عليه أن يرسم له خروفًا، فيما الطيار يريد أن يعرف كيف جاء الطفل إلى هذه الصحراء.

لقد كان سؤال "ماذا نفعل هنا" مفتاح رواية (الأمير الصغير) التي حاول إكزوبيري من خلالها أن يقدم لنا حكاية أشبه بالحلم يرويها طفل صغير، نتعرف من خلاله على القيم الإنسانية التي يجب علينا أن نشيعها على كوكب الأرض. يحاول إكزوبيري في (الأمير الصغير) أن يلخص تجربته الحياتية، حيث نراه، في رواية تبدو للوهلة الأولى كأنها كتبت للصغار، يطرح أسئلة وجودية عميقة وجوهرية، كانت هي الأسئلة السائدة في تلك المرحلة من القرن العشرين، أسئلة التفت فيها الفرد إلى داخل ذاته ولا سيما في ضوء الحوادث العاصفة الدامية التي كانت تشهدها تلك السنوات الغريبة من تاريخ القرن العشرين.

الأمير الصغير يسقط من كوكب صغير يعيش فيه وحيدًا، كانت في هذا الكوكب ثلاثة براكين يستخدم اثنين منها في الطبخ، بينما الثالث خامد، وعمله اليومي الذي يقوم به هو تنظيف الكوكب من الأعشاب الضارة. من هنا يكشف الطيار سر طلب الأمير رسم الخروف حتى يخلصه من هذه الأعشاب.

ينشغل الطيار في إصلاح طائرته وهو يجيب عن أسئلة الأمير الصغير بمنطق الكبار، لكننا أمام طفل لا يعرف مثل هذا المنطق، فنراه ينفجر في وجه الطيار قائلاً قد عرف ذات يوم رجلاً يقوم بجمع الأرقام دائمًا ويردد: "أنا رجل جاد. أنا رجل جاد"، ولكنه لم يعرف في حياته كيف يتأمل نجمًا، أو يستنشق عطر وردة، أو يحب إنسانًا. ويعرف الطيار أن عالم الأمير الصغير به وردة هي كل همه الحقيقي، لقد أعجب بها ذات يوم فأجابت بغرور: "أنا فعلاً جميلة فقد ولدت مع الشمس"، وفي يوم تطلب منه أن يحميها من النمور وهي تعلم أنه لا توجد نمور في الكوكب، ويحتار الأمير الصغير أمام مطالبها فيقرر الرحيل عن كوكبه، ويخبر الطيار قائلاً: "إنني لا أفهم شيئًا على الإطلاق، كان يجب عليَّ أن أحكم عليها بناءً على الأفعال لا الأقوال. كانت تعطرني وتنير لي، فما كان يجدر بي أن أدرك حنانها وراء خدعها الواهية، فالوردة متناقضة على هذا النحو، ولكني كنت صغيرًا جدًا حتى أعرف كيف أحبها".

وتدخل الشخصيتان اللتان تنتميان إلى عالمين مختلفين في مناقشات تتراوح موضوعاتها بين العادي والوجودي. وببراءة الطفل، يخترق الأمير الصغير عمق الذات الإنسانية عبر لغة يمتزج فيها الواقع بالخيال. كلمات الطفل تبدو أكبر حجمًا حتى من الطيار، فهو يكشف عن حقائق وأفكار طفولية يراها أهمّ من مشاكل الكبار اليومية، حتى لكأنه يسخر من سذاجة الراشدين الذين يظنون أنّهم الأعلم في كلّ شيء. ولعلّ القصة حصدت ما حصدته من نجاح طوال تلك المدّة، حيث ترجمت إلى مئات اللغات وبيعت منها أكثر من 150 مليون نسخة، لأنّها نجحت في أن توجد عالمًا صادقًا يُعبّر عن أسئلته الكونية الكبرى بأسلوب بسيط يدخل قلب القارئ مباشرة. وبرع سانت إكزوبيري في أن يجعل قارئه، صغيرًا كان أم كبيرًا، يصاب

بالدهشة أمام بساطة هذه الأحداث وعمقها.

يترك لنا سانت إكزوبيري آخر صفحة من روايته خالية تمامًا، إلا من نجم معلق في السماء، ويقول لنا: "إذا قمتم بسياحة في الصحراء، أرجوكم ألا تتعجلوا، وانتظروا تحت هذا النجم، فإذا ظهر أمير صغير لا تتركوني في كآبتي.. اكتبوا لي أنه عاد".

في إحدى رحلاته الجويّة الاستطلاعية عام 1944، تقلع طائرة سانت إكزوبيري في منتصف الساعة الثامنة صباحًا من يوم 31 تموز، لكنه حتى منتصف النهار لم يكن قد عاد، وتمضي الساعات وطائرته لا تلمح في الأجواء، وبناءً على شهادة القس هرمان كروت فإن طائرته قد أسقطتها الطائرات الألمانية في البحر، ليتذكر العالم مقولته الشهيرة التي كتبها في روايته (طيران الليل): "الغرق في وسط المحيط أهون من الغرق في هذه الصحراء".

يكتب أندريه جيد عن الوجه النبيل لسانت إكزوبيري: "حيث الرجولة لم تمسح بل زادت في لطافة ملامحه الطفولية المشرقة". هذه الملامح التي حولت الطيار الشهير إلى أمير صغير يلوح لنا وهو صاعد إلى السماء: "وعندما سأطير على جهازي الجديد، ستصيح الجماهير: ليحيا أنطوان دي سانت إكزوبيري".

5

السؤال الذي يجعلك تعيش حياتك باطمئنان

"نحن نتذكر حياتنا أقل بقليل مما نتذكر رواية قرأناها ذات مرة"

شوبنهور

كان من عادتي وأنا صغير في السن إذا سمعت اسم شخص لا أعرف عنه شيئًا، أذهب للبحث عنه في رفوف الكتب، أو أسأل أحد رواد المكتبة عنه. في ذلك الحين وقعت في يدي مجلة اسمها (المختار) وفيها موضوعًا عن كاتب اسمه مارك توين كتبه ديل كارنيغي. من هو مارك توين؟ كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم، أما كارنيغي فسبق لي أن تعرفت عليه من خلال كتابه الشهير (دع القلق وابدأ الحياة).

"لكي يجد المرء مكانه في هذا العالم الذي يحيط به، ومن أجل أن يتعلم العيش والعمل فيه فإنه يتوجب عليه أولاً بأول التعرف عليه". هذه هي العبارة التي ما تزال في ذهني من كتاب كارنيغي.

يقول كارنيغي: "سل نفسك، ثم هيئ نفسك لقبول أسوأ الإجابات، ثم اشرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه". وبعبارة أخرى إن السؤال هو الذي يجعلك تعيش حياتك باطمئنان، وهكذا فإن فيلسوفًا مثل أبيقور يصف الأسئلة بأنها: "طبابة النفس، وأنها تهدف في نهاية المطاف إلى إفهامنا بأنه يجب ألا

نخشى المجهول".

أثناء تصفحي لأعداد قديمة من مجلة (الرسالة)، وهي مجلة ثقافية كان يصدرها في منتصف القرن الماضي أحمد حسن الزيات، عثرت على مجموعة مقالات بعنوان (حديقة أبيقور)، كانت هذه المقالات هي ترجمة لفصول من كتاب للأديب الفرنسي أناتول فرانس. لماذا الحديقة بدلاً من الفلسفة؟ سألت نفسي، وتبين لي فيما بعد أن الفيلسوف اليوناني أبيقور كان قد اشترى بميراث له من أبيه قطعة أرض أنشأ عليها مدرسة أحاطها بحديقة كبيرة تضم مختلف الزهور، وكان يعتقد أن هناك علاقة بين الجمال والمعرفة: "ليس ما هو أشرف للإنسان أن يزاول الفلسفة والزهور تحيط به".

كان أبيقور المولود عام 341 ق. م. في إحدى الجزر اليونانية، قد اهتم بالفلسفة منذ أن كان في العاشرة من عمره، وسافر إلى مدينة كولوفون لدخول إحدى المدارس الفلسفية، لكنه بعد سنوات قليلة أدرك عدم قدرته على الموافقة على الكثير من آراء أساتذته، فقرر بعد أن بلغ العشرين من عمره أن يؤسس فلسفته الخاصة به. وقيل إنه ألّف عشرات الكتب في جميع المجالات، عن الحب والطبيعة البشرية والعدالة والقانون، وما يميز فلسفة أبيقور تأكيده على أهمية السؤال: "منطق وجذر كل خير هو لذة السؤال". إذًا الفلسفة على نحو ملائم ليست سوى دليل على البحث عن إجابات للأسئلة التي نطرحها. وإضافة للسؤال كان أبيقور مهتمًا بنشر مفهوم اللذة الحسية: "اللذة هي غاية الحياة السعيدة". بعد عودته إلى أثينا شرع أبيقور بترتيبات لإنشاء مدرسة غريبة، جمع فيها معظم أصدقائه: "من بين جميع الأشياء التي تمنحها الحكمة لتساعد المرء على عيش حياة كاملة مليئة بالسعادة، يعتبر امتلاك الأصدقاء أعظمها على الإطلاق". وكانت مدرسة أبيقور أشبه بمنزل عائلي كبير، من دون إحساس بالضيق، ليس هناك سوى الصداقة

والتعاطف. يخبرنا أبيقور أننا لن نكون موجودين، ما لم يكن ثمة أحد يرى أننا موجودون، وما نقوله لا معنى له ما لم يسمعه أحد.

في كتابة (حديقة أبيقور) يكتب أناتول فرانس إن: "الكتب شكلت هاجسًا لي طوال حياتي، وكنت أجد في الكتب ما لا أجده في عالم الواقع من أشياء مضت وانطوت فلا تعود أشياء متوقفة نتخيلها ولا ندركها على التحديد".

كان برنادشو يقول إن أعظم ثورات شبابه، هي لحظة قراءة أعمال هنريك أبسن: "كنت في الخامسة عشرة حين وقع في يدي مجلد لأعمال النرويجي أبسن، حتى ذلك الحين كان كل الذين أعرفهم قد تعودوا أن يَحطوا من شأن المسرحية، إنها لا تهتم اهتمامًا حقيقيًا بمصائر البشر. وعندما انتهيت من قراءة أبسن أعلنت أن هذه المسرحيات يمكن أن تعلم الناس أفضل مما تستطيعه الجامعات". حلم أبسن في بداية حياته أن يصبح رسامًا بسبب افتتانه بالألوان، غير أنه اتخذ بسرعة شديدة القرار بأن يصبح مؤلفًا مسرحيًا. يقول برنادشو: "كان قرارًا مدهشًا، أن تنصت إلى العالم ساعيًا الدخول إلى قلبه".

بعد أن قرأت رواية (توم سوير) لمارك توين، تبينت للمرة الأولى أن ثمة أفكارًا هائلة يمكن أن تغير حياة الإنسان، وأن إحساسًا جديدًا قد نشأ عندي بشكل ما خلال قراءتي لمثل هذه الروايات، ولا شك أن اكتشافي في ذلك الوقت لطه حسين وتوفيق الحكيم قد لعب دوره أيضًا. إنني أستطيع أن أتذكر اللحظات الأولى التي بدأت فيها بالشعور بنوع من عاطفة الحب. كان ذلك بفضل رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم. كنت آنذاك في الثانية عشرة من عمري، وما زلت أتذكر ذلك الشعور حين كنت أتابع لهفة بطل الرواية الصغير محسن الذي سمع ذات يوم صوت فتاة: "كان نذيرًا أو بشيرًا بإعلان الاشتباك في الحب".

***

"هناك مؤلفون يظلون في ماضينا رغم إنهم يعلموننا أشياء كثيرة عن الحياة، ورغم إننا نقرأهم بحب وشغف، فإذا رجعنا لهم بعد سنوات، فليس لأنهم ما يزالون يتحدثون إلينا وإنما بدافع الحنين، متعة العودة إلى الزمن الذي قرأناهم فيه لأول مرة"

أورهان باموق

يُخبرنا مارك توين أنه استطاع أن يجمع أكثر من خمسة عشر ألف كتاب في منزله الضخم الذي بناه عام 1874، والذي أطلق عليه اسم (القصر الملكي). كان مارك توين آنذاك في قمة شهرته، ويقال إنه كان يمتلك ذاكرة حادة، وكان شغفه بالقراءة يعزله أيامًا وأسابيع عن الناس. جمع في مكتبته الكثير من كتب التاريخ والسيرة والفنون والروايات، ويظل تشارلز ديكنز أكثر الكتاب تأثيرًا عليه، يكتب لأحد الأصدقاء: "الجلوس إلى المكتب يعني إعادة التمعن بما كتبه تشارلز ديكنز، إنها روايات تبعث الحماسة في نفسي"، ويعترف في يومياته إن الكاتب الإنكليزي الشهير كان صاحب الفضل عليه في كتابة روايته الشهيرة توم سوير.

عندما بلغ مارك توين الأربعين من عمره، شعر أن قطار الكتابة يوشك أن يفوته، فقرر أن يكتب رواية عن مغامراته وهو صبي: "سأكتب حكايتي، حتى أبرهن للعالم أن لدي موهبة قوية ومتميزة". كان يكتب وسط فوضى عجيبة، كتب وأوراق وجرائد وأعقاب سجائر، كلها متناثرة على المكتب كما على الأرض. وأصدر تعليمات صارمة بمنع دخول أي شخص إلى المكتب سوى زوجته ليفي. لم يكن أحد من أفراد عائلته يجرؤ على طرق باب

غرفته، وكانوا ينفخون في بوق لمناداته عند الضرورة. وفي الأيام الحارة كان يترك باب الغرفة مفتوحًا ويثبت أوراقه بالحجارة. يكتب بلا توقف حتى عند الأعاصير، مرتديًا ملابس خفيفة مصنوعة من القطن، وبعد العشاء يقرأ ما كتبه خلال النهار على أفراد عائلته. كان يحب الحصول على جمهور ودائمًا يكسب موافقتهم، يشتغل على كتب عدة في نفس الوقت، إلا أن حنينه إلى مرحلة الطفولة وضفاف نهر المسيسبي وقرية أجداده يطفو على سطح الذاكرة، ومن هذا الحنين قرر أن يضع الكتب الخمس الأخرى جانبًا، ويبدأ في كتابة الصفحات الأولى من رواية توم سوير، أراد أن ينقل خلالها أجواء الحقول الكبيرة والطبيعة الهادئة التي رافقت طفولته. نجح مارك توين في وصف ذلك المنظر ونقله بكل تفاصيله التي استوحاها من ذكريات طفولته. يكتب في دفتر يومياته نوعًا من الوصايا للكاتب الذي يريد أن يعيد صياغة جزء من حياته على شكل رواية ممتعة: "ابدأ بأية لحظة من لحظات حياتك وتجوّل كما يروق لك في تفاصيلها طولاً وعرضًا من دون أن تأبه بأي تتابع زمني منطقيّ. ثم لا تحكِ إلا عما يثير اهتمامك في لحظة الكتابة نفسها. فهذا الذي يثير اهتمامك هو المهم مهما كان من شأن أهميته بالنسبة إلى لحظته التاريخية التي حدث فيها. ثم في اللحظة التي يلوح لك فيها أنه قد فقد أهميته، سارع بالابتعاد عنه للتكلم عن أشياء جديدة تلوح أهميتها أمام عينيك ولو في شكل مباغت".

ظل مارك توين يؤمن أن كتابة رواية عن حياته لا تحتاج إلى استحضار أشخاص استثنائيين، أو إلى مفاخر أو مآثر أو سرد حوادث تفوق المألوف: "إن مشوار الحياة لأفراد عاديين يوفر للكاتب مادة تكفيه لإيقاظ الفضول والحفاظ على اهتمام القارئ وحرصه".

يكتب إرنست همنغواي: "إذا استثنينا موبي ديك، فليس هناك كاتب

أميركي عُومل بمثل هذا الاهتمام من قبل النقاد كما حدث لمارك توين، فهم يلفتون الانتباه إلى النقد الاجتماعي والسخرية والوحشة في كتاب توم سوير، ويشيرون إلى لغته المباشرة دون التواء، والعادية في بساطة".

يروي مارك توين في (توم سوير) حكاية طفل بعمر اثني عشر عامًا، نشأ قبل قيام الحرب الأهلية الأميركية، على ضفاف نهر المسيسبي، وقد اختار مارك توين هذا المكان حيث إنه نشأ فيه وأثر في شخصيته. يعيش الطفل في مدينة خيالية سماها توين سينت بطرسبرغ مع عمته بولي، وهي امرأة متقلبة المزاج، كبيرة في العمر، متسلطة تفرض آراءها على الجميع متى ما سنحت لها الفرصة، لذا قد فرضت شخصيتها على توم وأخويه، وبالتالي رفض توم تسلطها، فهو ثائر لا يرضخ ولا يتذلل، وعشق توم سوير طفلة تعيش معهم في نفس البلدة، جميلة الوجه، كانت قد انتقلت مع عائلتها إلى بلدتهم مؤخرًا. نلحظ في الرواية أن توم سوير لا يخطط للعيش الطويل في البلدة، بل كان يريد الهرب منها بالاتفاق مع صديقه الذي يدعى هاكلبري، وكانوا يريدون أن يصبحوا قراصنة، ويدخلوا هذا المجال عن طريق سرقة أي قارب، والغوص في أعماق البحر، وبدأوا في تنفيذ خطتهم، والتي أوصلتهما إلى مغامرة أكبر وأخطر، حول جريمة قتل قام بها مجرم كبير وخطير، ليدخلوا رغمًا عنهم ضمن أحداث القضية. عدّ الكتاب عند صدوره أكبر هجاء للفساد السياسي المتفشي آنذاك فقد استخدم مارك توين الهجاء ليبين كم أن الناس ملتزمون بالقانون، فيما هم يعانون من ظلم بعض الأحكام المسبقة والمجحفة.

إن الشخصيات في توم سوير تعتمد بشكل أساسي على أصدقاء الكاتب وتجاربه في مرحلة صباه، حيث يخبرنا فيما بعد: "عندما كنا نتظاهر برسم صورة للحياة، كنت أقيد نفسي بالحياة التي أنا على دراية بها". كان اسمه الحقيقي صامويل كليمنس ولد في تشرين الثاني عام 1835، تسلسله السادس بين

سبعة أبناء ولدوا لمحامٍ حاول أن يجرب حظه في التجارة فحاصرته الديون، مما اضطره إلى أن يتنقل بعائلته الكبيرة للبحث عن عمل جديد، ليستقر أخيرًا في مدينة هانبيال التي تقع على الضفة الغربية لنهر المسيسيبي، وقد رمز لها مارك توين في روايته توم سوير بالسينت بطرسبرغ. وبالرغم من أن الحياة في تلك المدينة كانت صعبة، فقد كانت طفولة صامويل سعيدة جدًا. توفي والده وهو في سن الثانية عشرة، وكان عليه العمل مع أخيه الأكبر في أعمال الطباعة، ولم تكن تلك المهنة محببة لصبي يحب الحركة والمرح، شعر بسعادة غامرة عندما انتقل للعمل من الطباعة إلى قيادة البواخر على نهر المسيسيبي، وكان عملاً شاقًا لكنه مهم، إلا أن الحرب الأهلية الأمريكية التي تقع بين الشمال والجنوب تضع حدًا فاصلا لطموحات الفتى ليصبح بحارًا. انتقل بعدها للعمل كمراسل لصحيفة محلية، وبدأ يكتب الحكايات الفكاهية تحت اسم مستعار "دبليو إبيمينوداس". لقد أحب بشكل خاص كتابة الأشياء التي تظهر الفكاهة أو الضحك على قادة المدينة، لا سيما أولئك الذين كانوا أقوياء جدًا. في العام 1869 أصدر كتابه الأول وكان بعنوان (أبرياء في الخارج)، ليقرر استخدام اسم الشهرة التي عرف به وهو "مارك توين".

***

لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟ سوف يجيب مارك توين أن القارئ يرغب في أن يجد كتبًا تساعده على التغيير كثيرًا: "أظن أننا في البلدان المتكلمة بالإنكليزية لا نزال نتغير على طريقة شكسبير، أما أنا فأريد أن أتبع طريق ثيربانتس الذي تساعدنا قراءة روايته (دون كيشوت) في تعلم كيفية الإنصات للآخرين، ويعلمنا أيضًا كيف نتحدث إلى أنفسنا أكثر من الحديث مع الآخرين". ولدى سؤال مارك توين لماذا نقرأ؟ يدلنا بأن القراءة العميقة والمستمرة هي وحدها التي تقيم وتعزز الذات المستقلة. يكتب في يومياته: "ما فائدة

الإنسان إذا كان لا يجد نفسه".

في أواخر عام 1860 اشترى مارك توين من إحدى المكتبات نسخة من كتاب جديد ألفه عالم الطبيعة تشارلز داروين. قرأ مارك توين الكتاب باهتمام وكتب في دفتر يومياته: "كنت أتمنى أن يعكف السيد داروين على دراسة خصائص الإنسان وميوله. فحتمًا سيجد النتيجة فاجعة وستضطره إلى احتمال سحب تأييده لارتقاء الإنسان من الحيوانات السفلى، وسيهجرها حتمًا لمصلحة نظرية أصح وأحدث يمكن أن تسمى انحدار الإنسان من الحيوانات العليا".

في العام 1905 أصدر مارك توين كتابه (ما الإنسان)، وفي مقدمة الكتاب يخبرنا أنه فكر في تأليف هذا الكتاب منذ أكثر من أربعين عامًا: "هي أفكار كنت أعمد إلى إخفائها مع الاحتفاظ بها كعقائد شخصية، ولماذا لم أصرح بها لأنني كنت أخشى نقد الناس. وكنت أتصور أنني لا أقدر على احتمال ذلك النقد".

في واحدة من مقالات الكتاب والتي بعنوان (الجنس البشري الملعون)، يرد مارك توين على نظرية تشارلز داروين بأسلوب العلم التجريبي، ومن طرائف المقالة المقارنة التي يضعها توين بين الإنسان والحيوان، ففي فقرة عنوانها (الديك أرقى من الإنسان، والقطط أفضل أخلاقًا)، يصر مارك توين على أن التجارب أقنعته بأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يحمل في صدره الضغن والأذى وينطوي عليهما وينتظر حتى تتاح له الفرصة ليأخذ بثأره، بينما الحيوانات العليا لا تعرف الانتقام. ويضرب توين مثلاً بالديوك التي يقول إنها تتخذ لها حريمًا، ولكن بموافقة المحظيات ورضاهن بأنفسهن، وليس في هذا العمل خطأ بحق أحد، أما الرجال فهم على حد تعبير مارك توين يقتنون الحريم بالقوة الوحشية والقوانين الجائرة التي لم يكن للجنس

الآخر يد في وضعها. أما القطط فيرى توين أنها واسعة الذمم الأخلاقية ولكنها لا تعي ذلك. أما الإنسان فقد تحدر من القطط وأخذ عنها انحلالها الأخلاقي وترك اللاوعي وهو الميزة الرائعة التي تبرر لاأخلاقية القطط: "إن القطط بريئة والإنسان غير بريء". لنجد مارك توين يعلن أن: "الدناءة والهمجية صفات خاصة بالإنسان وهو الذي اخترعها".

كان كتاب تشارلز داروين قد صدر في تشرين الأول عام 1859، وكان مؤلفه قلقًا حول عدد النسخ التي يمكن أن تباع، فقد أقنع شقيقته أن تقرضه مبلغًا من المال سيعيده إليها بعد ثلاثة أشهر. صاحب المطبعة التي طبعت الكتاب كان يسخر من المؤلف الذي يريد أن يثبت للناس أنهم سلالة من القردة، كان ينظر إليه ويشير للعامل: "يبدو أن السيد داروين يطيل النظر إلى المرآة طويلاً، ليثبت نظريته". لكن المفاجأة كانت بانتظار الجميع، فقد نفدت 1250 نسخة في الأسبوع الأول، وكان باعة الكتب يلحّون على صاحب المطبعة أن يعيد الكرّة ويطبع نسخًا جديدة. في السنة الأولى يعاد طبع الكتاب ثلاث مرات، ويتجاوز عدد النسخ التي بيعت منه العشرة آلاف، البعض يبحث عن الكتاب ليرضي تطلعه المعرفي، وآخرون لإرضاء فضولهم والجواب على سؤال يشغلهم: "هل نحن حقًا سلالة من القرود المتطورة؟"

لكن الكتاب في الواقع لم يكن سوى فرضيّة علميّة يطرحها المؤلف للنقاش. وضعها داروين بعد ملاحظات وبحوث ورحلات وقراءات دامت أكثر من عشرين سنة، أراد من خلالها إيجاد السبل للإجابة عن سؤال لطالما حيّر العلماء حول الحلقة المفقودة في عملية التطور المعقدة التي تمت عبر ملايين السنين. وكان الأساس الذي بنى داروين عليه فرضيته العلمية، يتعلق برصد التغيرات التي طرأت على النباتات والحيوانات الأليفة، لا سيما منها تلك التي يتحكم بها الإنسان. ويقارن داروين ذلك، أي الفروقات في

الأنواع الناتجة عن "الانتخاب الصناعي"، بالتغيرات الحاصلة في الطبيعة من دون تدخل الإنسان، أي الناتجة عن "الانتخاب الطبيعي" ليخلص إلى أنه: "حيثما هناك حياة، ثمة تغير وتطور مستمران ناتجان أساسًا من الصراع من أجل البقاء".

ما بين عام 1875 و1894، نجد مارك توين يعيش في أوج شهرته وغناه، دخله يصل إلى مائة ألف دولار سنويًا لكنه وبسبب مغامراته المالية تعرض للإفلاس، ولاحقه سوء الحظ بسبب وفاة ابنته وزوجته، ليعيش "أبو الأدب الأميركي"، كما لقّبه وليم فوكنر، مكتئبًا. راودته فكرة الانتحار، تركت هذه المصائب آثارًا كبيرة على نفسيته، حيث كان يشعر بغضب على هذا العالم الذي لم يتركه يعيش مثل صبي في حرية لانهائية ومتعة. فاضطر أن يعتزل العالم ليبني في الريف بيتًا يعيش فيه مع ابنته، يكتب في آخر صفحة من يومياته: "إن السعادة والحب والشهرة والثروة ليست إلا قناعًا خفيفًا لحقيقة الإنسان المستترة خلفه، وهي الألم، والحزن، والخزي، والفقر". ليودع العالم في صيف 1910 بعد أن اعترف به باعتباره الأب الشرعي للأدب الأميركي، لكنه يكتب في وصيته: "إنني لأموت وقلبي يطفح حقدًا وكراهية لكل ما هو موجود".

6

الأوهام الضائعة من فلوبير إلى سارتر

"إن القراءة الذكية تنقذ الإنسان من كل شيء، حتى من نفسه، كما أننا نقرأ لمواجهة الموت، والوقت الذي نقضيه في القراءة مثل وقت الحب، يطيل وقت الحياة"

دانيال بيناك

في رسالة وجهها الروائي غوستاف فلوبير إلى أحد القراء يكتب فيها: "عمري الآن ثلاثة وخمسون عامًا، جعلت من الأدب شيئًا لا ينفصل عن حياتي، على الرغم من كل العوائق التي واجهتني، كنت أقول لنفسي: فلوبير كاتب ولا شيء سوى هذا، فتجارب الحياة والمرض والحب والقراءة آلت إلى شيء واحد هو الكتابة، والتي من أول شروطها ألا يصاب القارئ بالملل".

يخبرنا أميل زولا أن فلوبير كان يطرح السؤال الدائم على أصدقائه من الكتاب: "كيف يمكن أن تحافظ على انتباه القارئ، وما هي المتعة التي ستقدمها له؟" وبعده بأكثر من مئة عام يكتب أمبرتو إيكو في كتابه (اعترافات روائي ناشئ) هذه النصيحة للكتاب: "عليك أن تتمكن من جعل متعة القراءة متساوية مع الوقت الذي نمضيه في القراءة".

يكتب خطيب الثورة الفرنسية ميرابو في يومياته تعليقًا على الأعمال الروائية التي كتبها جان جاك روسو: "من ميزات الروائيين أنهم يخلقون

شخصيات تقتل شخصيات التاريخ، والسبب في ذلك أن المؤرخين يكتفون بالحديث عن أشباح، أما الروائيون فيخلقون أشخاصًا من لحم ودم".

في واحدة من محاضراته يقترح أمبرتو إيكو على طلبته الدرس التالي: "بما إننا نعرف أن آنا كارنينا هي شخصية من الخيال، ولا وجود لها في العالم إلا في ذهن كاتبها تولستوي، لماذا إذًا نبكي على مأساتها، أو على الأقل لماذا نتأثر بذلك؟"

يجيب صاحب (اسم الوردة) أن هناك بالتأكيد الكثير من القراء الذين لا يذرفون دمعة واحدة على مصير سكارليت أوهارا في (ذهب مع الريح)، ولكنهم يتأثرون لمصير آنا كارنينا، ويضيف إيكو: "لقد حاولت أن أفسر للطلبة بأن القدرة على انتزاع دموع قارئ ما لا تعود فقط إلى الميزات التي تتوفر عليها الشخصية التخيلية، بل أيضًا إلى العادات الثقافية للقراء، أو إلى العلاقة القائمة بين القارئ والكتاب".

معظم الكتّاب يواجههم سؤال مهم هو: كيفية المحافظة على انتباه القارئ. كان ميشيل فوكو قد واجه مثل هذا السؤال، وهو يلاحظ أن الجميع يقول: "إن كتب الفلسفة مملة"، ويكتب ذات يوم: "علينا أن نقدم للقارئ كتابًا يحمل في ثناياه الكثير من التشويق والمتعة".

كان ميشيل فوكو آنذاك يريد أن يقدم تحليلاً فلسفيًا لمفهوم العقاب في العصر الحديث، ولكي يشد انتباهنا نحن القراء قرر أن يبدأ كتابه (المراقبة والمعاقبة) بطريقة روائية، فقدم لنا مشهدًا تصويريًا لعملية تنفيذ حكم الإعدام عام 1757 على روبرت فرانسوا ديمي، الذي حاول اغتيال لويس الخامس عشر. يبدأ فوكو بوصف تصويري حي لتعذيب شخص وإعدامه: "لقد استخدموا كماشة ساخنة ومتوهجة في تمزيق جسده، وكانوا يصبون الزيت المغلي فوق الجروح، كما ربطوا ذراعيه وقدميه في رقبة حصانين، ثم

تركوا لهما فرصة الجري بأقصى سرعتهما لتمزيقه. وعندما لم تنجح تلك المحاولة البشعة قاموا بتقطيع ذراعيه وقدميه بضربات على قدميه بصورة متوالية". في كتابه الممتع (السير فوق الماء) يخبرنا الأميركي ديريك جنسن إنه عندما قرأ هذا المشهد الافتتاحي في كتاب فوكو (المراقبة والمعاقبة) اعتبر الأمر في البداية فظيعًا وشنيعًا ووصفه بالمشين، كيف يمكن لفيلسوف يريد أن يقدم تحليلاً علميًا لمفهوم العقوبة أن يسعى إلى اللعب بمشاعر القراء؟ ويضيف جنسن: "لكنه في النهاية جعلني أقرأ الكتاب، وكنت أثناء القراءة أتوقع المزيد من المشاهد، لكني في النهاية لم أحصل على شيء، بل حصلت على مئات الصفحات من الفلسفة الجادة". ويضيف: "هل شعرت بأن الكاتب خدعني؟ أجيب بالتأكيد لا، إذا كانت الفلسفة مملة لأصبح الكتاب خدعة رخيصة، لكن الفلسفة علم مثير للانتباه ويحمل في ثناياه كثيرًا من التشويق والمتعة، لقد نجح الكتاب تقريبًا وأستطيع القول بأنها لم تكن خدعة رخيصة".

يصف لنا غوستاف فلوبير اللقاء الأول بين شارل بوفاري وإيما التي ستصبح فيما بعد مدام بوفاري بهذا المشهد المثير: "وجلست الفتاة إلى المائدة مع شارل، وجرى الحديث عن المريض أولاً، ثم عن الجو وموجات البرد القارس، والذئاب التي تعدو خلال الحقول في الليل، كانت الفتاة ترتجف أثناء تناول الطعام لفرط رطوبة الصالة، مما كشف قليلاً عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما في أوقات الصمت. وكانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان، لفرط نعومتهما، قطعة واحدة، تنشق إلى شعبتين عند الرأس بخط مستقيم ينبع استدارة الرأس، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ، لا تكاد أذنا الفتاة تبينان خلالهما، أما وجنتا الفتاة

فكانتا متوردتين، وكانت ثمة عوينة في إطار من الصدف تتدلى من زرين في صدارها".

يكتب أمبرتو إيكو أن القارئ الذي يسحره هذا الوصف للفتاة إيما سيتأثر حين يكتشف أنها بعد أن أصبحت مدام بوفاري ستنتهي حياتها بشرب السم.

كان تولستوي قد قرأ (مدام بوفاري) وقد نشرت متسلسلة، ونتعرف من يومياته أن موضوع الخيانة قد شغل باله منذ زمن طويل، لكنه يجد أن الكاتب الفرنسي كان قاسيًا مع بطلته فقد طاردها بمشاعر متجمدة ومتواصلة بلا رحمة، ويتساءل تولستوي لماذا أصر فلوبير على أن تحيا مدام بوفاري حياة خالية وهمية، ونجده برغم إعجابه الشديد بالرواية، يأخذ على المؤلف محاولته عكس الكثير من طباعه على إيما بوفاري.

***

"كلما كان الكتاب مكتوبًا بشكل جيد، شعرت بأنه بالغ القِصر"

جين أوستين

كنت في الخامسة عشرة من عمري حين خاطرت ذات يوم واشتريت نسخة من رواية (مدام بوفاري). كانت النسخة تتكون من مئتي صفحة وعلى غلافها صورة مرسومة بالألوان لامرأة جميلة جدًا تقرب ملامحها من الممثلة الشهيرة بريجيت باردو، وخلفها يقف شاب جميل يبدو أصغر منها عمرًا، ولا زلت أتذكر العبارة التي خطت على الغلاف: "مدام بوفاري.. الزوجة الخائنة". أخذت الكتاب وأخفيته عن الأنظار، فمثل هكذا كتب ربما تسبب لي مشكلة. لكنني قررت أن أقرأ الكتاب وأعرف لماذا خانت هذه الزوجة.

لم أجد في مقدمة الكتاب التي كتبها الناشر سوى معلومات قصيرة عن المؤلف. "ولد جوستاف فلوبير - هكذا كتب اسمه - في مدينة روان في فرنسا عام 1821، وكان والده طبيبًا. اعترف له بالزعامة الأدبية وبالإمارة على فرسان البيان في عصره وقصته (مدام بوفاري الزوجة الخائنة) أعظم قصة لاقت رواجًا في اللسان الفرنسي. نشرت للمرة الأولى في إحدى المجلات وقدم المؤلف والناشر للمحاكمة لما فيها من أدب مكشوف، وقد قامت أصول القصة على حوادث الحياة نفسها، فكان المؤلف نفسه طرفًا فيها. إنها قصة من الحياة كتبها أعظم كتاب البيان الفرنسيين ووضع فيها حسه وأعصابه، وتمنى والألم يصهر نفسه لو أنه كان غنيًا ليشتري كل الطبعات ويحرقها". كنت ألتهم صفحات الكتاب وأُمني النفس بحكاية مثيرة مثلما وعدني الناشر "بالأدب المكشوف"، لكن ما أن وصلت إلى منتصف الكتاب حتى خاب أملي. وقلت مع نفسي يجب أن أثق بالناشر حتى أتمكن من الانتهاء من الرواية.

إليكم ملخص الرواية كما فهمتها في القراءة الأولى. كان هناك طبيب اسمه شارل بوفاري قادته الصدفة لأن يعالج رجلاً كبيرًا في السن، وفي بيت هذا المريض سيعثر على زوجة المستقبل، إنها إيما. وفي الوقت الذي تعرف فيه على إيما كان هو طبيبًا معروفًا في المدينة الصغيرة، وشابًا ذكيًا، وكانت الفتاة تعيش في عالم من الخيال صنعه لها شعراء وأدباء الرومانسية، عالم كله كتب وحكايات وأشعار وأحلام، كانت إيما تحلم بأن تحب، وأن تتزوج الرجل الذي تحبه. وعندما التقت بالطبيب شارل بوفاري أيقنت أنه فتى أحلامها فتزوجته لتصبح مدام بوفاري، لكن الزواج خيّب أملها، لا أشعار ولا خيال ولا حديث عن القمر، فهي تجد نفسها كل يوم نائمة إلى جوار رجل أنهكه العمل، كانت كل يوم تجلس إلى جوار النافذة تنتظره، تتعطر وترتدي أجمل

الملابس، وما أن تراه حتى تركض باتجاهه، أما هو فقد كان يذهب باتجاه السرير ليأخذ قسطًا من الراحة، لتعود لتجلس تتذكر روايات الحب التي قرأتها، والحلم بالفارس العاشق الذي يدخل عليها وبيده باقة حمراء من الزهور. ونجدها تردد حين تكون لوحدها تنتظر: "يا إلهي لماذا تزوجت؟"، وتحاول أن تتخيل حياتها مع الزوج الذي تخيلته، رجلاً وسيمًا وفطنًا ومتميزًا وجذابًا، وتسأل نفسها ما العمل؟ هل سيدوم هذا الحال إلى الأبد، كانت تتوق إلى الحياة المرحة، تبحث عن الحب، عن رجل يختطفها ويطير بها بعيدًا، لقد قررت أن تفتح الباب المظلم، ففي مقابل احتقارها للحياة الرتيبة التي تعيشها مع شارل بوفاري، نظرت في المرآة إلى جمالها وأيقنت أن بإمكانها أن تحوِّل أحلام اليقظة إلى واقع، قررت أن تكتشف عالمًا أكثر إثارة يحقق لها وجودها. بدأت تبالغ في إنفاق الأموال على الألبسة والحفلات دون أن يعلم زوجها، وسرعان ما تراكمت عليها الديون، وبعد أن تفقد الرغبة في الملابس والحفلات، تقرر أن تقيم علاقات حب مع رجال آخرين. في البداية كان العشيق جارًا لها يدعى لويس كامبيون، ثم عامل المزرعة، ثم كاتب العدل. ويكتب فلوبير في الرواية: "لقد بدأت تعيد إلى ذهنها بطلات الروايات التي قرأتها، وبدأ هذا الفيلق من النساء العاشقات يغرد في رأسها".

أهملت زوجها وابنتها الصغيرة وأقاربها وجيرانها، لكنها في النهاية بدأت تشعر بالملل، كل هؤلاء العشاق بدوا لها أيضًا مخيبين للآمال، وأخيرًا في فجر السادس من آذار عام 1848 بدأت المشاكل تحاصرها: زوجها أفلس، العشاق تبخروا، تقرر أن تتناول جرعة مميتة من الزرنيخ لتنهي حياة بلا طعم ولا أمل.

كان فلوبير يكتب ببطء وإتقان شديدين، ست صفحات في الأسبوع، قال لأمه: "يا لها من مهنة صعبة مهنة الكتابة، القلم أشبه بمجذاف ثقيل".

ظل يعمل سبع ساعات في اليوم على مدى أكثر من خمس سنوات، درس خلالها كل ما يتعلق بالروايات الرومانسية، وحاول دراسة تأثير مادة الزرنيخ على وظائف الجسم، ومن حين لآخر كانت الكتابة تصيبه بالمرض: "عندما كنت أصف تسمم إيما بوفاري كنت أحس بطعم الزرنيخ في فمي، وقد عرّضني ذلك إلى آلام في المعدة وسوء في الهضم رافقني طوال حياتي. يكتب إلى أحد أصدقائه: "لقد توقفت عن الكتابة. لا أستطيع مغالبة دموعي"، ولم يكتف بمشاهداته وقراءاته لمعظم الروايات التي صدرت في عصره، بل ذهب يبحث عن قصص مشابهة لحكاية مدام بوفاري، وفي الدوائر الرسمية ومراكز الشرطة اطلع على التقرير التالي: "يوم السادس من آذار 1848 انتحرت في قرية ري نورمانديا، سيدة في السادسة والعشرين من عمرها بتعاطي كمية كبيرة من الزرنيخ". في النهاية يجد نفسه قد كتب: "كانت ثمة ظاهرة غريبة، فبينما كان شارل بوفاري يفكر باستمرار في إيما أخذ ينساها، واشتد به الأسى إذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التي كان يبذلها للاحتفاظ به".

***

بعد سنوات أتيحت لي الفرصة أن ألتقي بالناقد والعلامة علي جواد الطاهر، كان موعده لزيارة المكتبة التي أعمل فيها مساء كل أربعاء، يدخل المكتبة بأناقته التي تنم عن روحه الشبابية وابتسامته التي لا تفارقه وسؤاله الدائم: "هل وصلت كتب جديدة بالفرنسية؟" كان الراحل الطاهر قد حصل على الدكتوراه من السوربون، وعلى مدرجات الجامعة كان يحتفظ بنصيحة أستاذه محمد مهدي البصير في أن يغترف أولاً من تجربة الغرب في الأدب واللغة، ولهذا نراه يكتب: "إني لم أطمح من الدراسة في فرنسا إلا من أجل الإلمام بأدب آخر عالمي". وذات يوم تجرأت وأنا أشاهده منهمكًا في قراءة

عناوين الكتب لأسأله عن رأيه بالأدب الفرنسي، التفت إلي وعلى وجهه ابتسامته المعهودة: "هذا سؤال طويل وعريض، هل تعرف أن عمر الأدب الفرنسي من عمر الحضارة الأوروبية؟" صَمتُ ولم أكن أدري بماذا أُجيب، وعندما شاهد حيرتي اقترب مني وهو يقول: "عندما عشت في باريس خمسة أعوام وكم شهر، كنت مثلك أعتقد أنني أستطيع أن أتعرف على معظم ما كتبه أدباء فرنسا، لكنني عدت وأنا لم أقرأ سوى عشرات الكتب".

قلت له: "أنا قرأت فلوبير وستندال وبلزاك وموبسان"، ورحت أعدد..

قاطعني قائلاً: "هل قرأت حقًا فلوبير؟"

قلت: "نعم. حكاية الزوجة الخائنة".

وابتسم عميد النقد العراقي: "الزوجة الخائنة؟ تعني (مدام بوفاري)؟".

قلت وأنا أعتقد إنني استطعت أن أثير اهتمام الناقد الكبير: "نعم هي (مدام بوفاري)".

وراح الطاهر يشرح لي ما فات على هاوٍ للكتب مثلي: "لقد ولد فلوبير شغوفًا بالأدب، لكنه يمتاز عن معظم أدباء عصره بأنه كان دقيق الملاحظة، دائمًا ما ينصح الأدباء بأن يروا جيدًا، وأن ينظروا إلى كل ما يريدون التعبير عنه نظرة طويلة وبانتباه ليكتشفوا فيها صورة جديدة لم يروها من قبل ولم يكتب عنها أحد"، بعدها يكمل الطاهر: "هل تدري أن فلوبير عندما أراد أن ينهي حياة مدام بوفاري بالسم، أخذ يقرأ عن السموم وتأثيراتها، وكان يذهب كل صباح إلى أحد المختبرات ليسمع حديثًا عن أخطر أنواع السموم، وكان يدوّن العديد من الملاحظات، وكان أحيانًا يمضي يومًا أو يومين في كتابة سطر واحد؟"

ثم أخبرني الطاهر أنه ما من رواية أثارت جدلاً مثلما أثارته رواية (مدام

بوفاري) التي كتب عنها عشرات المؤلفات، وكان أبرزها حسب قول الطاهر ما كتبه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في كتاب تجاوزت صفحاته الثلاثة آلاف صفحة.

في مقدمة كتابه عن فلوبير، والذي ترجمت بعض فصوله إلى العربية، يخبرنا سارتر أن هناك عددًا من الأسباب دفعته إلى أن يكتب عن فلوبير. أول هذه الأسباب إن قلة فقط من الشخصيات في تاريخ الأدب، تركت وراءها كل هذا الكم الذي تركه فلوبير من معلومات وتفسيرات تتعلق بأدبه. ثانيًا يقول سارتر إن فلوبير يمثل النقيض التام لتصوّري الشخصي عن الأدب، حيث إنه لا يكفّ عن إعلان تنزّهه التام عن كل التزام. وثالثًا وأخيرًا، كون دراستي لفلوبير تمثّل بالنسبة إليّ استكمالاً لما طرحته في واحد من أوائل كتبي، وهو كتاب (التخيل).

متى بدأ المشروع؟ يخبرنا سارتر أن صاحب فكرة الكتاب كان صديقه الفيلسوف الماركسي روجيه غارودي الذي اقترح أن يتشارك مع سارتر في كتابة سيرة فلسفية لكاتبهما المفضل فلوبير، غارودي يكتب من وجهة نظر ماركسية وسارتر يبدي وجهة النظر الوجودية. وبدأ سارتر يكتب الجزء الخاص به ويفتتحه بالعبارة التالية: "ماذا نعرف عن فلوبير بعد كل هذا الزمن الطويل؟ إنه أكثر مما نتخيل، هناك الكثير من الوثائق والأدلة والشواهد التي تحتاج إلى غربلتها، وتفحص الآراء المتناقضة عن فلوبير والفرضيات المشكوك فيها والاستنتاجات المتسرعة". وبعد مئات الصفحات وتخلي غارودي عن المشروع يكتشف سارتر أنه في ورطة حقيقية، فهو يريد أن يُبدي وجهة نظر وجودية في فلوبير، لكنه يميل في العديد من الفصول إلى استخدام المنهج الماركسي في تحليل الخلفية الاجتماعية لصاحب (مدام بوفاري)، ولهذا نجده في فصول أخرى يستعين بمنهج التحليل النفسي الفرويدي لدراسة شخصية فلوبير التي وصفها بالمتناقضة، وهكذا ومع مرور الزمن وتراكم الصفحات

يكتشف سارتر أن كتابه عن فلوبير يأخذ من حياته أكثر من سبع سنوات.

ولكن لماذا فلوبير؟ يخبرنا سارتر أنه قد تأثر في طفولته بفلوبير وغوته وأنهما سمما طفولته بنزعاتهما التشاؤمية، ولهذا يحاول في الكتاب أن يعمل مقارنة بين طفولته وطفولة فلوبير. كلا الكاتبين نشأ في عائلة بورجوازية تقليدية تمارس الفضيلة دون أن تؤمن بها، كان سارتر قد تعوّد على شكوى جدته من جهة الأم التي كانت تكررها حين بلغت السبعين من العمر من زوجها الأناني، وكيف كانت حياتها مليئة بالحقد والضغينة، أو ما كان يرويه جده من جهة الأب عن اكتشافه في اليوم الثاني لزواجه أن عائلة زوجته التي كان يظنها ثرية، كانت في حقيقة الأمر قد أصابها الإفلاس، ومنذ تلك اللحظة لم يكلم زوجته قط، ولم يتبادل معها سوى الإشارات إذا أراد منها شيئًا، وعاشا على هذا الحال لأكثر من أربعين عامًا. كان جد سارتر كثيرًا ما يذكره بوالد فلوبير، أما جدة سارتر فقد كانت تشبه إلى حد كبير مدام بوفاري بطلة رواية غوستاف فلوبير الشهيرة.

إن الطفل سارتر الذي رحل والده قبل عام يقول إن موته "أكبر ضربة حظ. لم يكن عليّ أن أنساه". هكذا يكتب في (الكلمات)، والذي فيه أيضًا يسخر من فرويد ومقولته الشهيرة من أن الطفولة تقرر مصير الفرد، فقد كان طفلاً خجولاً، وكانت أمه تُصر على أن تلبسه ثياب البنات، لكنه تعلق بجده: "إنه صاحب التأثير الأكبر على نشأتي".

نجد سارتر في دراسته الموسعة يصر على اعتبار فلوبير نموذجًا للرجل الذي أدار ظهره لمجتمعه وعصره، وكتب عن عالم حكم فيه بالإعدام على معنى المسؤولية والالتزام، وتمسك فيه بحرية زائفة. لأنه وحسب تعبير سارتر لا حرية بغير مسؤولية. وقد اختار فلوبير الحرية، وكان سارتر يريد من خلال كتابه الضخم (فلوبير أبله العائلة) أن يثبت أن مؤلف (مدام بوفاري) لم يكن يمتلك القدرة الكافية ليكون مسؤولاً عن أفعاله.

7

لكي تعيش حياتك بشكل حقيقي عليك أن تهتم بالآخرين

"بحثت عن الطمأنينة في كل مكان، فلم أجدها إلا بالجلوس في ركن منزوٍ وفي يدي كتاب"

توماس دي كيمبيس

مثل كثير من الناس كانت هناك كتب أدين لها بالفضل، لأنها غيرت مسار حياتي. عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري اتسمت طبيعتي بالخجل، وكنت أعاني من صعوبة التعرف على أصدقاء جدد، ونادرًا ما أتحدث مع أحد، ولا أفعل ذلك إلا بصعوبة، وتشاء الصدف أن يقع بيدي كتاب صغير الحجم مطبوع على ورق أسمر مثل معظم الكتب التي تسمى "شعبية" عنوانه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) للأميركي ديل كارنيغي، في تلك الأيام كان الكتاب يعد الأكثر مبيعًا، حتى أن العديد من دور النشر تعيد طباعته باستمرار، وكنت وأنا الصبي الصغير أسأل بيني وبين نفسي: "هل يمكن لكتاب أن يجعل لك الكثير من الأصدقاء؟" وحين سألت قريبي صاحب المكتبة ذات يوم عن الكتاب، قال لي بلهجة ساخرة: هذه كتب بلا منفعة، هدفها المال. لم أقتنع بالحجة التي ساقها، فكيف يمكن أن أقاوم كتابًا يمهد لي الطريق لأن يصبح لي أصدقاء وأوثر فيهم.

كانت أول نصيحة تعلمتها من مؤلف الكتاب ديل كارنيغي أنني اشتريت دفتر ملاحظات لأسجل به ما أشاهده كل يوم وما يمر بي من مواقف وما أقرأه في الكتب، إذ يخبرنا كارينغي: "لكي تعيش حياتك بشكل حقيقي عليك أن تهتم بالآخرين، ينبغي أن تصغي إليهم وأن تكون سخيًا في محبتك لهم. ويطلب منا أن نكون صادقين". نقرأ في سيرة ديل كارنيغي إنه ابن لمزارع فقير، كانت أمه تطمح أن يصبح ابنها كاهنًا. اسمه الحقيقي ديل كارناغوي، لكنه غير نطق اسمه: "كنت أريد تحسين حظوظي في الحياة". عمل وهو طالب بائعًا جوالاً، يقطع المسافات الطويلة على قدميه ليبيع الصابون ومنظفات المنازل، وبعد أن أكمل كليته قرر أن يدرس الفنون الدرامية لكي يصبح ممثلاً، إلا أن مسيرته الفنية انتهت في دور صغير بمسرحية لاقت فشلاً كبيرًا، بعدها عمل بائعًا للسيارات المستعملة، وفي هذا الوقت قرر أن يكتب عن الطريقة المثلى لكسب ود الناس، فاستأجر غرفة صغيرة لإقامة دورات عن كيفية التأثير في الآخرين وكان يردد مقولة الفيلسوف الأميركي إيمرسون: "افعل الشيء الذي تخاف أن تفعله، وسيصبح موت الخوف عندئذ أمرًا مؤكدًا بصورة مطلقة".

يبدأ كتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) بفصل طريف ومثير اسمه (إذا أردت جمع العسل لا تبدأ بحرق خلايا النحل)، وهذه الفكرة يرجعها كارنيغي إلى الرئيس الاميركي بنيامين فرانكلين الذي قال لمواطنيه في إحدى خطبه: "عزمت على ألا أتكلم بالسوء عن أي إنسان مهما كان"، ومثلما يخبرنا ديل كارنيغي إن فكرة فولتير كانت تتلخص في أن "أي أبله يمكن أن ينتقد ويدين ويشكو. لكن لكي يكون المرء متفهمًا، فإن الأمر يقتضي شخصية متسامحة قوية، وضبطًا للنفس". ويتبع هذه الفكرة بصفحات نابضة بالحيوية تعود إلى الفيلسوف البريطاني توماس كارليل: "إن

الرجل العظيم يظهر عظمته في الطريقة التي يعامل بها البسطاء"، ويستخدم كارنيغي أمثلة من حياة مفكرين وفلاسفة كانوا يتصرفون بالطريقة التي يجب أن يتصرف بها الإنسان. لقد صرح وليم جميس ذات يوم بأن: "أعمق مبدأ للطبيعة البشرية هي التلهف على أن تكون محل تقدير"، ويسمي كارنيغي الأسلوب هذا بالأسلوب السقراطي ويصف الفيلسوف اليوناني سقراط بأنه "فتى عجوز لامع"، ويثني على سقراط لقدرته على إقناع الآخرين، ويحاول كارنيغي الاستفادة من أسلوب سقراط في توجيه الأسئلة واستخراج المعرفة منها، فقد كان سقراط يحاول أن يقدم لمستمعيه طريقة بسيطة تمكنهم من تمييز ما هو صحيح بأنفسهم. كان سقراط يُصر أن بإمكان أي شخص يملك عقلاً فضوليًا أو سعيًا إلى التدقيق في المعتقدات السائدة أن يبدأ محادثة مع شخص آخر في أحد شوارع المدينة بحيث يصل إلى فكرة خلاقة، ويؤكد كارنيغي على إمكانية التوصل إلى تفاهم مع الآخرين، دون الإغراق في التفلسف.

كان من عادة سقراط أن يبدأ أسئلته بالإفصاح عن جهلة العميق بالموضوع، حتى يجذب الآخر إلى حلبة المناقشة، ويحول بصره إلى الصعوبة الحقيقية في الموضوع ثم يدخل إلى عمق الموضوع، وهكذا كان يشجع الآخرين على سلوك درب الفلسفة دون حاجة إلى كرسي المعلم، ومن دون أن يعطي النصائح والأوامر، فقد كانت براعته تتمثل في قدرته على أن يجعل المحاور يصل بنفسه إلى الحقيقة. وقد رأى سقراط إن الفضائل تعتبر تجليات لجوهر واحد هو المعرفة التي تعادل الفضيلة، وإذا كان على الإنسان أن يعلن أنه لا يمكن أن يلم بكل جوانب الحقيقة، واستحالةً أن يحيط بكل جوانب العلم، فإن الفضيلة تشير إلى وعي الإنسان، ومن ثم يتوجب عليه أن يسلك درب البحث المتواصل عن المعرفة، وهذا هو جوهر الفضيلة: "إن الفضيلة ما هي إلا دعوى دائبة لإعمال العقل."

كان سقراط يقول: "لا أعرف سوى شيء واحد وهو أني لا أعرف شيئًا". فالفلسفة لا تتقدم إلا عن طريق تبني منهج الشك والبحث الدائم.

إن الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك، خصوصًا الشك في المعتقدات التي يحبها، والعقائد والبديهيات أو الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدسها. ولهذا قال سقراط: "اعرف نفسك". وهي العبارة التي حاول كارينغي أن يعيد صياغتها، فقد كان يعتقد أن المرء يتعين عليه أن يؤمن بقدراته، لكي يجعل الآخرين يثقون بهذه القدرات.

في يومياته التي نشرت بعد وفاته يخبرنا ديل كارنيغي أن ثلاثة أشخاص لعبوا دورًا كبيرًا في بناء شخصيته: إبراهام لنكولن وغاندي والكاتب الأميركي هيرمان ميلفل: "كتاب موبي ديك لميلفل لا يمكن أن يخرج إلا من عبقرية خارقة، إنه سفينة صوفية أبحرتُ بها، عميقة بشكل لا يدرك، من منا لم يمر بتجربة إسماعيل، من منا لم يكن عبدًا لرغباته ونزواته".

يقدم أمبرتو إيكو نصيحة للكتاب الشباب: "عليك أن تشكل القارئ الذي تريده لكل قصة تكتبها"، وقد اكتشفت أنا بعد سنوات أن بعض الكتب أعادت تشكيل حياتي بصورة أفضل. ويخبرنا إيكو أنه في صباه اطلع على بعض كتب ديل كارنيغي، ورغم أنه وجدها بسيطة وساذجة أحيانًا، إلا إنها ألهمته بأفكار كثيرة خصوصًا أن مؤلفها استطاع أن يقوم بسياحة جميلة في أفكار الفلاسفة الأخلاقيين.

يقول أفلاطون إن أغلب الناس ليسوا مرتاحين فقط لجهلهم، وإنما يغضبون بشدة ممن يشير إليه. يكتب ديل كارنيغي في إحدى وصاياه إن: "الأمر سيكون جيدًا لو تحدثت مع الآخرين عن الأشياء التي لا تعرفها".

***

"أيها الكتاب إنك لتكذب، الحق أيتها الكتب أنه عليك أن تعرفي حدّك، أنتِ تعطينا الكلمات والحقائق العارية. ولكن نحن نملؤها بالأفكار"

هرمان ميلفل

كيف أَصبحتَ كاتبًا؟ يجيب وليام فوكنر على هذا السؤال بعبارة قصيرة: "عندما قرأت موبي ديك".

كان فوكنر في السابعة والعشرين من عمره عام 1924، يمارس عددًا من الأعمال من أجل توفير قليل من المال، وحين قرر أن يكتب ذات يوم رواية، عرضها على صديقه الروائي شيرود أندرسن، وبعد ثلاثة أسابيع أخبره أندرسن أنه سيعقد معه صفقة تجارية وسيمنحه أربعمائة دولار عن كل رواية يكتبها، يستغرب فوكنر من صديقه الذي سيمنحه كل هذه الأموال لمجرد أنه سيجلس أربع ساعات في اليوم وراء الآلة الكاتبة.

لكنه بعد نشر روايته الثانية (البعوض) يدرك أن المال لوحده لا يصنع كاتبًا. يردد فوكنر دائما أن (موبي ديك) هي الرواية التي كان يتمنى أن يكون كاتبها، ويصرح: "إن نهاية آهاب - الشخصية الرئيسية في موبي ديك - صارت نوعًا من الجلجلة (مثارًا للأحزان) بالنسبة لقلب غارق في الحطام وعاجز عن الحركة والتحول".

في الخامسة عشرة من عمري قرأت (موبي ديك) للمرة الأولى بنسخة صغيرة صادرة عن سلسلة (كتابي)، وبين عملي في المكتبة وذهابي إلى المدرسة، واصلت قراءة المزيد من الصفحات، وكنت أتلهف لمعرفة ماذا سيحل لآهاب وسفينته، وأين ستنتهي رحلة البحث عن الحوت الذي يريد

آهاب الثأر منه، وماذا سيفعل البحار المتجول إسماعيل. وفي البيت كنت أنزوي جانبًا، لقد وقعت في سحر الرواية، وعشت أيامًا وأنا أقرأ عن أناس يعيشون في مكان آخر وزمن بعيد.

"سترون أيها القراء، إن هذا الحفار النقاب، إن تلك الأرضة النفاذة التي اسميها مساعد الخازن المساعد، قد تغلغل في أقبية المكتبات وسراديبها الطويلة، ملتقطًا الإشارات المتناثرة إلى الحيتان، من كتب دينية أو دنيوية. لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال وتعدوه في جميع الأحوال كتابًا موثوقًا معتمدًا". هكذا يكتب ميلفل في الصفحات الأولى من روايته، وبالتأكيد إن هذا الخليط من الأقوال سينتج لنا كتابًا عظيمًا يقول عنه الروائي نجيب محفوظ: "هناك أعمال عزيزة على نفسي كنت أقرأها مرتين وثلاثة مثل (موبي ديك)".

هل يمكن تعريف موبي ديك؟ يكتب هارولد بلوم في كتابه (لماذا نقرأ؟) إن: "موبي ديك تمثل النموذج الروائي للعظمة الأميركية، من أجل إنجاز رفيع وعميق، وعلى الرغم من أن ميلفل مدين بالكثير لشكسبير، فإن موبي ديك هي عمل أصيل لصورة فذة، هي كتابنا القومي عن سفر يونان وسفر أيوب". لم تحظَ رواية (موبي ديك) بالاهتمام عند صدورها عام 1851، حيث وصفت بأنها مزيج من الفشل، كان ميلفل في الثانية والثلاثين عندما صدرت (موبي ديك)، يعيش مع زوجته وابنه في إحدى المزارع. وبعد مرور أربعين عامًا على صدورها لم يستطع الناشر بيع نسخ الطبعة الأولى التي بلغت ثلاثة آلاف نسخة، وتكرر الأمر مع روايته الأخرى (الجزر الوحشية) التي نشرت عام 1854، ومع روايته الثالثة (البحار الوسيم). وبسبب فشل رواياته قرر أن يتجه لكتابة الشعر، ولم يحظ بالنجاح أيضًا، فوجد نفسه يعيش في إحباط متواصل لتنهار حياته، حيث تتوالى عليه الأزمات، ويجبره الفقر على قبول

وظيفة في دائرة الجمارك. وعندما توفي عام 1891 كان مجرد كاتب منسي لا يتذكره أحد، فقد تطلب الأمر أكثر من قرن لكي تأخذ (موبي ديك) مكانتها الحقيقية وتصبح واحدة من أهم كلاسيكيات الأدب العالمي، وليعاد نشرها في طبعات كثيرة وتترجم إلى أكثر من 60 لغة.

تبدأ رواية موبي ديك بـ (فصل في الاشتقاق)، وهي افتتاحية متميزة شاعت كأنها قول مأثور. يخبرنا ميلفل إنها من إعداد معلم مسلول، ونتبين إن المؤلف يحاول أن يثير القارئ منذ الصفحات الأولى. بعدها نتعرف على البحار إسماعيل، الذي يريد أن يجرب حظه في إحدى سفن صيد الحيتان. لذلك يسافر من مانهاتن في نيويورك إلى ماساشوستس، ويصل في الليل إلى فندق في نيو بيدفورد. لكنه لا يجد سريرًا فيضطر إلى النوم في سرير مشترك مع رجل غريب، ينفر إسماعيل من ذلك الرجل الفظ، الذي يغطي الوشم جسمه، واسمه كيكيغ، ويعمل صيادًا للحيتان. غير إنه سرعان ما يرتاح له حين يراه طيبًا ومرحًا. يتفق معه على السفر إلى مدينة نانتكيت، مركز تجارة الحيتان، للبحث عن عمل. وهناك يوقع الاثنان على عقدين بالعمل في السفينة بيكود التي يقودها القبطان الغامض والشهير آهاب.

تبحر السفينة صباح يوم عيد الميلاد، ويشعر إسماعيل بالقلق، عندما يشاهد قبل الإبحار بوقت قصير قاربًا يقف إلى جانب السفينة يصعد منه رجال لم يستطع تمييزهم بسبب الضباب، ثم لا يظهر أثر لهم! يتعرف الصيادون والبحارة على الكابتن الأول، ستاربك.. والثاني: ستاب.. والثالث: فلاسك. لكن القبطان آهاب لا يظهر للتعارف! وعندما تدخل السفينة المياه الحارة، يظهر آهاب ويجمع البحارة ويحثهم بخطاب مثير على تحقيق هدف الرحلة، وهو اصطياد الحوت الأبيض "موبي ديك" لأنه الشر المتجسد ويجب تخليص الناس منه.

تدور السفينة بيكود حول أفريقيا وتدخل مياه المحيط الهادي، وتصادف سفنًا أخرى لصيد الحيتان، فيستفسر آهاب باستمرار عن موبي ديك. ويحذره العراف غابرييل في السفينة جيرابوم من مطاردة موبي ديك لأن الموت ينتظر كل من يحاول قتل هذا الحوت. بعدها تقابل بيكود سفينة صيد الحيتان الإنكليزية صموئيل أندرباي، ويخبر قبطانها آهاب بأنه شاهد موبي ديك وحاول اصطياده فخسر ذراع يده اليمنى. بعد ذلك تقترب السفينة بيكود من خط الاستواء وتقابل السفينتين راشيل وديلايت، والاثنتان واجهتا موبي ديك.

أخيرًا يلمح آهاب الحوت، فتنزل قوارب الصيد وترميه بالرماح. يصيبه بعضها، لكن الحوت لا يستسلم. تستمر المعركة ثلاثة أيام، وعندما تأتي اللحظة المناسبة ليرميه آهاب بالرمح المميت، يلتف حبل الرمح حول رقبته ويجره إلى الموت. ويحاول ستاربك إنقاذ بقية الصيادين. ويعترض موبي ديك بالسفينة، ويحدث فجوة فيها، فتغرق وتُغرق معها بقية القوارب. يموت الجميع ما عدا إسماعيل.

هكذا يذهب القارئ في رحلة استكشاف للنفس البشرية. فالسفينة بيكود تبحر في أعماق المحيط، ونحن القراء نبحر في أعماق أبطالها، وإذ يقدم لنا ميلفل صراع الثقافات بين البحارة وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة، فإنه إنما يضع شخصياته في صراع مثلث: صراع مع الطبيعة، وصراع مع الذات، وصراع مع الإنسان. ثم يدفعنا إلى التأمل في الإنسان والوجود والإيمان والخير والشر.

***

إن البحث عن الثأر وانتظار المصير المجهول التي اتسمت بها حكاية (موبي ديك)، نجدها قريبة الشبه بمسرحية شكسبير الشهيرة (ماكبث)، حيث استعان هرمان ميلفل بالتكنيك المسرحي الشيكسبيري، واستخدم الرموز والاستعارات بكثافة، وعرضها بأسلوب يشد القارئ ويتركه في حالة تأمل عميق.

القانون الخفي الذي يحكم رواية ميلفل هو القانون نفسه الذي يحكم مسرحيات شكسبير. يتنبأ العراف للقبطان آهاب أن الحبل سيقتله. يفسر آهاب النبوءة خطأً: يقول إن الحبل يعني أنه سيموت مشنوقًا، فيزداد جرأة في عرض البحر. لكنه يموت بحبل الرمح الذي يلتف على عنقه، بينما يقذف النصل في جسم موبي ديك. يحدث الأمر نفسه مع ماكبث، تتنبأ العرافات الثلاثة أنه لن يقتل إلا حين تتحرك الغابات، فلا يتخيل في جنونه لحظة أن جيشًا مموهًا بالشجر قد يزحف على قلعته مثل غابة تتحرك!

يحضر (ماكبث) في (موبي ديك) أكثر من مرة. هناك مشهد يكاد فيه أحد الضباط أن يقتل آهاب. ذلك يذكرنا بماكبث حين يقدم على قتل الملك. لكن الضابط يتراجع إذ يسمع آهاب يدمدم في المنام اسم الحوت موبي ديك الذي التهم ساقه عند ساحل اليابان حيث ما زال يطوف في مناماته.

لعل المقارنة بين شخصيتي آهاب وماكبث، تكشف لنا ما يدور من الصراعات بين أهواء النفس البشرية ونوازع الثأر. في (موبي ديك) يدور الصراع داخل نفس البحار آهاب ما يخلق لديه ذلك التوتر والتردد، فيما نجد

أن ما يحرك ماكبث ليس تردده أو أية صراعات داخلية. ما يحركه هو نزعة الشر التي تدفع الإنسان إلى القتل وإلى التعطش للدم.

يقول ماكبث: "لقد خطوت في الدم بعيدًا، فحتى لو لم أخض المزيد لكان النكوص مرهقًا كما المضيّ". ونجد آهاب يقول في موبي ديك: "أنا آتٍ إليك بالشمس، ضعوا النير فوق أعناق الأمواج الآتية، اجعلوها عربة مردفة، ها أنا أسوق البحر".

لم يعد في إمكان ماكبث أن يتراجع. ليس لأن الأقدار فرضت ذلك عليه، بل لأن تلك هي شيمة الرجال، وآهاب لا يفوته أن يقول لبحارة سفينته إنه لن يجرؤ على التراجع في مواجهة الحوت الأبيض.

يكتب سومرست موم: "يمكن قراءة (موبي ديك) باهتمام بالغ، دون النظر إلى ما تحمله أو ما لا تحمله من مجازات، ولا أستطيع أن أكرر مرات ومرات أن رواية (موبي ديك) لا تقرأ للتعليم والتربية، ولكن للمتعة والتسلية العقلية، وإذا وجدت أنك لا تحصل منها على هذه المتعة، فالأجدر بك ألا تقرأها على الإطلاق". ترى هل كان برنارد شو على حق حين قال ذات يوم: "منذ أن تعلم الإنسان الكتابة لم يكتب مثل هذه الرواية".

8

ما الذي يجعل هؤلاء مختلفين عنّا؟!

"تتم كتابة الكتب من أجل تأكيد وحدة البشر، وبالتالي الدفاع عن أنفسنا أمام الوجه الآخر القاسي للوجود: الزوال والنسيان"

ستيفان ريفايج

لم أكن أعرف معنى هذه العبارة التي وضعها صاحب المكتبة في إطار أنيق فوق رأسه، ولا أعرف شيئًا عن صاحبها المتنبي. وكنت أحاول أن أستوضح معنى: "وخير جليس في الزمان كتاب"، ومن هو هذا المتنبي الذي قال هذه الأبيـــات:

أعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سابحٍ

وَخَيرُ جَليسٍ في الزّمانِ كِتابُ

وعرفت بعد ذلك ومتأخرًا أن المقصود بهذه الأبيات هو الشاعر نفسه الذي لم أفهم آنذاك لماذا يُعظم نفسه ويجلها بهذا الشكل:

وَإنّي لنَجْمٌ تَهْتَدي صُحبَتي بِهِ

إذا حالَ مِنْ دونِ النّجومِ سَحَابُ

لن أنسى أول كتاب قرأته عن المتنبي، ليس كتابًا لطه حسين ولا لمحمود

شاكر ولا العقاد، فآنذاك لم أكن أسمع بواحد من هؤلاء، والذي لفت نظري في الكتاب هو غلافه الذي كان عبارة عن لوحة ملونة لرجل يرتدي الغترة البيضاء والعقال وتبدو ملامح وجهه صارمة. كان الكتاب بعنوان (المتنبي شاعر العرب) صدر ضمن سلسلة بعنوان (الناجحون)، وقد وضع القائمون على السلسلة عبارة تلخص الغاية من إصدار مثل هذه الكتب: "إنّ النجاح يجرّ النجاح، فتعرّف إذًا إلى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح". وفتحت الكتاب وقرأت ووجدتني أواصل القراءة وبلغت النهاية في يوم واحد. لكني توقفت عند أمر عجيب، فالمتنبي الذي يقول لنا ناشرو الكتاب إنه أحد الناجحين لم ينجح في حياته، لم يتزوج المرأة التي أحبها، ولم يحصل على الراحة والاستقرار، ومات في النهاية مقتولاً. فأين هو النجاح؟

بعد سنوات حصلت على نسخة من ديوان المتنبي، وكانت نسخة قديمة صادرة عن لجنة التأليف والترجمة، وقد حققها وشرحها عبد الوهاب عزام، وهو باحث ومفكر مصري قدَّم طائفةً متنوِّعةً من الأبحاث في الأدب والتاريخ والتصوف. وأصدر في الثلاثينيات واحدًا من أجمل كتبه بعنوان (ذكرى أبي الطيب المتنبي)، في ذلك الوقت وأنا أتتبع خطوات المتنبي كنت أشعر أن نوعًا من القلق الممتع بدأ يساورني، إذ رحت أدرك أنني متورط في مغامرة مختلفة عن المغامرات التي عرفتها من خلال الكتب. واكتشفت وأنا أتابع قراءة ما كتب عن المتنبي أن الأعمال الأدبية العظيمة تستلزم حكايات غير عادية حولها، فقد نُسجت سيرًا سحرية حول المتنبي الإنسان والشاعر واستمرت حتى بعد موته. يكتب ألبرتو مانغويل أن الأعمال الاستثنائية في الأدب أو الفن تسبغ على أصحابها مسحة من القوة والسحر والغموض، فلا يزال اليونانيون يعتقدون أن هوميروس الذي كَتب الإلياذة والأوديسة لا يمكن أن يكون من البشر. يخبرنا الإيطالي جيوفاني بوكاتشو مؤلف الكتاب

المذهل (الديكاميرون) أن أبناء شاعر ايطاليا الكبير دانتي: "شعروا بالحنق لأن الرب لم يعط والدهم دانتي وقتًا إضافيًا ليكمل عمله الشعري (الكوميديا الإلهية)". وفي إحدى الليالي رأى أصغر أبناء دانتي والده يقترب منه في الحلم مرتديًا عباءة بيضاء، فبادره الابن سائلاً هل ما يزال حيًا؟ ليجيبه دانتي بأنه حي، إنما في الحياة الحقيقية وليس في عالمنا. عند ذاك، سأله الابن هل كان قد أتم (الكوميديا الإلهية)؟ لتأتي الإجابة: "نعم لقد أتممتها". بعد ذلك اصطحب دانتي ابنه إلى غرفة نومه القديمة، حيث وضع يده على تجويف مغطى بحصيرة على الحائط وقال: "هنا ما كنت تبحث عنه طويلاً"، وعندما استيقظ الابن هرع وأحضر أحد تلامذة دانتي ليكتشفا معًا وجود ذلك المكان الذي احتوى على أوراق قديمة، تبين فيما بعد أنها الأناشيد الأخيرة من (الكوميديا الإلهية).

يكتب دانيال بناك في كتابه (متعة القراءة): "إن القراء العاديين لا يحفلون كثيرًا بالضوابط الرسمية للتحقيب الزمني، فهم عادةً ما يرتبون تسلسل قراءاتهم ومحاوراتهم في ضوء العصور والحدود الثقافية". ومثلما كنت أنا الشاب أحاول أن أختصر الحقب الزمنية للتقرب من المتنبي الذي كان يبحث عن المجد والرفعة والمغامرات حتى إن صديقه أبا الفتح عثمان بن جني يرثيه بقصيدة جاء فيها:

فاذهب عليك المجد ما قلقت

خوض الركائب بالأكوار والشُعب

يخبرنا كُتاب سيرة دانتي أليغيري أن مذنبًا ظهر في سماء مدينة فلورنسا ليلة السابع من آب عام 1264، وقد اعتبر سكان فلورنسا ظهور هذا المذنب دلالة على مجيء إنسان عظيم، وبعد شهور قليلة، وفي أيار من عام 1265، ولد طفل للسنيور أليغيرو أسماه دورانتي، والذي أُختصر إلى دانتي. كان

طفلاً بائسًا، فقد والدته وهو في الخامسة عشرة من عمره وتوفي والده بعدها بسنوات قليلة. كانت ملامح وجهه تضفي عليه مسحة من الحزن، في صباه تعرف على فتاة جميلة اسمها بياتريس ابنة أحد أثرياء فلورنسا، كان كلما ينظر إليها يظن أنها ليست من سكان هذا الكوكب، بل هي ملاك هبط من السماء، وتشاء الظروف أن تغيب بياتريس سنوات لتظهر من جديد، يكتب دانتي في يومياته: "كانت سائرة عبر الشارع، وفجأة لفت ناظريها إلى البقعة التي كنت واقفًا عليها وأنا على أشد ما أكون من الارتباك والحياء، وفي أدب جم لا تمحي سمته، تلطفت عليّ بابتسامة محتشمة".

هكذا كانت بداية قصة الحب، رغم أن دانتي يعرف أن حبه لبياتريس لا أمل منه، فقد كان قصير القامة، مقوس الأنف، تبدو على وجهه ملامح التعب، والأكثر من هذا كان فقيرًا ومغمورًا. ويتذكر كيف كانت الفتيات يسخرن من تقاطيع وجهه وخجله. لكن ذات يوم يقرر أن يجعل من حبه لبياتريس التي ماتت بعد زواجها من أحد الأثرياء دافعًا لأن يكتب ملحمته الشهيرة (الكوميديا الإلهية).

يؤكد الكثير من الدارسين لحياة أبي الطيب المتنبي أنه هام عشقًا بخولة أخت سيف الدولة الحمداني، وأن هناك الكثير من القصائد التي بث من خلالها هذا الحب:

كَتَمْتُ حُبّكِ حتى منكِ تكرمَةً

ثمّ اسْتَوَى فيهِ إسراري وإعْلاني

***

"إن قراءة الكتب الجيدة هي بمثابة محادثة مع أفضل الشخصيات من القرون الماضية"

ديكارت

كل قارئ يطرح أسئلة بهدف إثارة النقاش، وكنت مثل طفل أسأل بعض الأساتذة من رواد المكتبة عن أبي الطيب المتنبي. وذات يوم في منتصف السبعينيات كنت جالسًا في المكتبة وفي يدي نسخة من ديوان المتنبي، أجيب عن استفسارات زبائن المكتبة، عندما اقترب مني الدكتور جلال الخياط، وكان آنذاك أستاذًا جامعيًا لامعًا ينشر في الصحف والمجلات مقالات عن الشعر والأدب الحديث، وحين لمح ديوان المتنبي في يدي ابتسم وقال لي: "تقرأ المتنبي إذًا".

أخذت أتمتم بعبارات غير مفهومة، لكنني في النهاية قلت باضطراب: "نعم أقرأ في ديوانه، رغم أنني لا أفهم الكثير من الأبيات".

بدت على ملامح وجهه ابتسامة مشفوعة بالحنان وهو يقول: "لا بأس. كلنا بدأنا هكذا، مع الأيام ستفهم أكثر، بعد أن تقرأ ما كتب عن المتنبي". وقبل أن ينهي محاورته معي سألته سؤالاً كان يشغل بالي: "ترى لماذا أطلق أبو الطيب على نفسه لقب المتنبي؟"

نظر إلي، ثم قال: "هل لديكم في المكتبة كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي؟"

قلت: "نعم، إنه بثمانية أجزاء وبتحقيق عبود الشالجي".

ذهبت باتجاه الرف الذي يضم الكتاب، فأشار الخياط إلى الجزء الرابع من الكتاب فسحبته لأسلمه إليه، فتح صفحات الكتاب وأخذ يقرأ: "يقول

التنوخي: كان يتردد في نفسي أن أسأل أبا الطيب المتنبي عن تنبيه والسبب فيه، وهل ذلك اسم وقع عليه على سبيل اللقب، وقلت له ذات يوم أريد أن أسألك عن شيء في نفسي منذ سنين، وكنت أستحي خطابك فيه من كثرة من كان يحضرك ببغداد، وقد خلونا الآن، ولا بد أن أسألك فيه، وكان بين يدي جزء من شعره فيه كتاب شعر أبي الطيب المتنبي. فقال: وهل تريد أن تسألني عن سبب هذا؟! وجعل يده فوق الكتابة التي هي المتنبي، فقلت: نعم. فقال: هنا شيء كان في الحداثة أوجبته صبابة، فما رأيت تلميحًا ألطف من هذا".

بعد أن وضع الدكتور الخياط الكتاب في مكانه، التفت إليّ وهو يقول: "إن رواية التنوخي تقترح علينا عدة خيارات حول سبب لقب المتنبي. أولاً، فهو قد يكون لقبًا بسيطًا كما ذكر التنوخي، أو يكون كما قال ابن جني وهو من أصدقاء المتنبي المقربين وكان قد أخبره أنه حصل على لقبه هذا بسبب بيت من أوائل شعره: أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود. والمتنبي هنا يريد أن يقول لنا إنه مثل النبي صالح الذي لم يكن مقبولاً في قومه".

العام 1937 يصدر الدكتور طه حسين كتابه (مع المتنبي) ونجده منذ الصفحات الأولى يبدي عدم إعجابه بالشاعر، كان طه حسين يقضي إجازته الصيفية في فرنسا عام 1936 وبالقرب من جبال الألب قرر أن يكتب عن المتنبي رغم أنه: "ليس المتنبي من أحبْ الشعراء إلي، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة الحب والإيثار، ولقد أتى عليّ حين من الدهر لم يكن يخطر ببالي إني سأعتني بالمتنبي أو أطيل صحبته". ونعرف أن طه حسين في ذلك الوقت قرأ كتاب المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي) والذي صدر عام 1935، وقد ترجم الكتاب إلى العربية من قبل الدكتور إبراهيم الكيلاني وصدر عام 1975. ونجد طه حسين بعد أن ينتهي من قراءة كتاب بلاشير يقرر أن يدخل في

السجال عن المتنبي: "لم أجد بأسًا في أن أقطع على نفسي لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربى الجميلة وفي هذا الجو الحلو، لم أجد بأسًا بأن أثقل على نفسي أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبي والتحدث عنه".

ولم يكتف طه حسين بالحديث عن طمع المتنبي واستغراقه في المديح، وإنما وصل به الأمر أن يكتب أن المتنبي خدع نفسه كما خدع المحيطين به فيقول: "والذي أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل، هو أن المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كان عليه، وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم، ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها وإنما خدع معها كثير من الناس، فظنوا به الفلسفة وهو ليس من الفلسفة في شيء وظنوا به الحرية والكرامة، وليس هو من هذا كله بشيء، وإنما هو رجل من أهل زمانه لم يتميز منهم بأخلاقه، وإنما امتاز منهم بلسانه".

ويذهب طه حسين إلى نقطة أبعد حين يشكك بنسب المتنبي فهو يقول: "مولد المتنبي كان شاذًا، والمتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها"، ويستند عميد الأدب العربي في رأيه على أنه: "إذا قرأت ديوان أبي الطيب مستأنيًا متمهلاً لا تجد فيه ذكرًا لأبيه، وإنك تجده لم يمدحه ولم يفخر به، ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه حين مات، وهذا كافٍ في تشكيك العلماء في نسبه، وهو كافٍ في اليقين بأن المتنبي لم يعرف له أبًا".

وقد أثار هذا الرأي العديد من الباحثين، وكان واحد منهم تلميذًا لطه حسين، وهو محمود محمد شاكر الذي كان قد أصدر عام 1936 كتابه عن المتنبي، ولم يكن آنذاك معروفًا بين النقاد والأدباء. ويخبرنا شاكر أنه ألف كتاب (المتنبي) بتكليف من مجلة المقتطف التي أرادت الاحتفال بألفية الشاعر، وقد صدرت المجلة آنذاك وهي لا تحمل في صفحاتها سوى كتاب (المتنبي) لمحمود شاكر مع تقديم من رئيس التحرير يقول فيه: "هذا العدد

من المقتطف يختلف عن كل عدد صادر منذ سنتين إلى يومنا هذا، فهو في موضوع واحد ولكاتب واحد".

وفي الكتاب يحاول شاكر أن يبحث عن أصل المتنبي فيخبرنا بأنه شريف علوي وليس ابن سقاء في الكوفة كما تقول معظم المصادر، وإنه - أي المتنبي - تعلم مع الأشراف في مكاتب العلم.

عندما صدر كتاب طه حسين عن المتنبي عام 1937، قرر محمود شاكر أن يواجه أستاذه فكتب عدة مقالات تحولت فيما بعد إلى كتاب ضخم بعنوان (المتنبي.. في الطريق إلى ثقافتنا)، ونجد شاكر يتعجب مما يذكره طه حسين متسائلاً: "يكون لزامًا على كل شاعر أن يمدح أباه، وأن يفخر به، وأن يرثيه، فإن لم يفعل الشاعر ذلك فهو شاعر لا يعرف أباه؟ إني أجد من الشعراء من فخر بأبيه، وأجد منهم كثيرًا لا يعد كثرة من لم يفخر بأبيه ولا ذكره في شعره، أفكل هؤلاء لم يكن يعرف أباه، ولا يثبت نسبه لضعفه وخسته؟"

ثم يخبرنا شاكر في مقدمة كتابه الجديد إنه: "عاش مع المتنبي زمنًا وكتب عنه كتابًا متواضعًا في 170 صفحة نشره (المقتطف) عام 1936: "فمن حق المتنبي علي أن أقرأ ما كتب عنه الدكتور طه وغير الدكتور طه، وكما أنه من حق نفسي عليّ أن أضع التاريخ في موضعه الذي أرخته به معدة الفلك".

وفي كتابه يناقش محمود شاكر قضية النبوة التي ألصقت بالمتنبي، فيخبرنا أن الشاعر لم يدع النبوة كما زعموا. بل اعتبر أن هذه النبوة هي مما أُفتعل افتعالاً وأقحم في خلال الأخبار التي ذكر فيها أنه ادعى نسبه العلوي.

***

أمامي نسخة من كتاب (الكوميديا الإلهية) لدانتي قام بترجمته الدكتور حسن عثمان الذي يخبرنا أنه كرس أكثر من 25 عامًا من حياته لدراسة دانتي

وترجمة ملحمته، وكيف أنه سافر إلى إيطاليا وإنكلترا وأمريكا ليبحث في مكتباتها عما كتب عن شاعر إيطاليا الكبير، ونكتشف مع حسن عثمان أن الكلمات كانت سلاح دانتي لإنجاز رحلته من الجحيم إلى الفردوس. يكتب الشاعر الإنكليزي ت. إس. إليوت: "إن العالم الحديث منقسم بين دانتي وشكسبير، وليس ثمة ثالث بينهما". وكنت مثل أي قارئ مبتدئ أتوهم أن قراءة (الكوميديا الإلهية) عمل سهل أشبه بقراءة إلياذة هوميروس أو إنياذة فيرجل، فإذا بي أجد نفسي أمام عمل أدبي ضخم به إشارات للآداب الكلاسيكية، وعلم اللاهوت في العصور الوسطى، والشؤون السياسية الإيطالية، والكثير من القضايا الأدبية التي ما يزال الباحثون يتجادلون ويختلفون حولها. فنحن أمام قصيدة ملحميّة تتألف من 14 ألف سطر شعري تقريبًا تصف رحلة دانتي بين الجحيم والمطهر والفردوس. تبدأ القصّة باستيقاظ دانتي من نوم عميق وهو تائه في غابة مظلمة. وبعد عدة محاولات فاشلة في الهروب يلتقي دانتي بالشاعر فيرجيل، الذي بدوره يخبر دانتي بأنّ الطريق الوحيد للخروج، هي بالعبور من مركز الأرض مرورًا بالجحيم. فيقود فيرجيل دانتي عبر الجحيم فيشاهد فيها مشاهد مرعبة من العذاب ويلتقي فيها بالعديد من الشخصيات التي ذُكرت في الكتاب المقدس والآداب الكلاسيكية. وتنتهي الرحلة في الجحيم بلقاء مع إبليس ثم يهربان من هناك وينتقلان إلى المطهر. يصعد الاثنان جبل المطهر ويلتقيان بأولئك الذين ينتظرون الذهاب إلى الفردوس في رحلة تطهرهم. وهنا أيضا يلتقي دانتي بشخصيات حقيقية وخيالية كلّ منها له حكاية. وقرب ذروة جبل المطهر يغيّر دانتي مرشده في الرحلة ويتابع نحو الفردوس وصولاً إلى رؤية الرب.

كتب دانتي (الكوميديا الإلهية) وهو في المنفى بعيدًا عن مدينته فلورنسا.

ولهذا نجد موضوعي المنفى والخلاص يتكرران كثيرًا في الملحمة. كما يظهر العديد من أصدقاء دانتي السياسيين في القصيدة في أجزائها المختلفة. أما شخصية بياتريس التي ظهرت في القصيدة فهي شخصية الفتاة التي أحبها في الصغر وعشقها في فترة الشباب وقد ماتت وكان عمرها 24 عامًا لتظهر في الملحمة في قصيدته، ممثّلة لكل ما هو خيّر وجميل.

تعد (الكوميديا الإلهية)، من نواح عديدة، قصيدة حب تمتدح جمال بياتريس الأخلاقي، وقدرتها على الوصول بدانتي إلى رؤية الخير الأعظم، إذ إنها تقوده في رحلته حتى يلتقي بأرواح المباركين. ويقف دانتي في بهجة ونشوة، ليتعرف في ختام الملحمة على الحقيقة النهائية للحياة، وما يعنيه الكون للإنسان.

كتب دانتي ملحمته الشعرية تعويضًا عن حياته التي عانى فيها الشقاء، فهذا الإنسان المطارد، المغضوب عليه، استطاع أن يخلق عالمًا رحب به صادقه ورفع من شأنه، وأدخله عالم العظماء، مثله مثل أبي الطيب المتنبي الذي هُزم وقُتل في عالم الملوك والأمراء والحساد، لكنه انتصر في عالم الفكر والشعر.

بعد وفاة المتنبي بخمسين عامًا قرر أبو العلاء المعري أن يجمع شعره ويشرحه في ديوان ضخم أسماه (معجز أحمد)، وبعد خمسمائة عام من وفاة دانتي، زار الشاعر بايرون قبره ليركع أمام الضريح ويبكي.

9

كيف خرج البيان الشيوعي من معطف دوستويفسكي؟

"إن القراءة توفر للعقل مواد المعرفة، ولكن التفكير هو الذي سيجعل ما نقرؤه خاصًا بنا"

جون لوك

كنت أجلس في زاوية من المقهى منهمكًا في قراءة كتاب صغير أحمر اللون انطبعت عليه صورتان تخطيطيتان، واحدة لكارل ماركس والثانية لرفيقه فريدريك إنجلز، لم أكن أعرف أن بعض رواد المقهى كانوا ينظرون إليّ بارتياب، إلى أن وصل أحد الأصدقاء الذي ما إن رأى غلاف الكتاب حتى أطلق تعليقه المعتاد: "هل تريد أن تثبت أنك شيوعي؟" في ذلك الوقت كنت أعتقد أنني إذا أردت أن أصبح قارئًا جيدًا يجب أن أقرأ الكتب الماركسية، ولأن مختارات ماركس وإنجلز كانت كبيرة الحجم وبأجزاء متعددة، لم أجد أفضل من (البيان الشيوعي) بنسخته النحيلة ذات الصفحات القليلة. قبل قراءة (البيان الشيوعي) انتهيت من كتاب (هؤلاء علموني) لسلامة موسى. وبدا سلامة موسى وكأنه الكنز الذي عثرت عليه، وكتابه أشبه برحلة يقوم بها المؤلف متقصيًا لحياة وأعمال عددٍ من الشخصيات. كان هذا أول عهدي بكتاب من هذا النوع، لم أسمع بأسماء الذين يروي سلامة موسى حكاياتهم، لكن الكتاب استولى على عقلي، ورغم أن المؤلف يبدأ كتابه بنصيحة الشاعر

الألماني غوته: "كن رجلاً ولا تتبع خطواتي"، إلا أنني قررت أن أتتبع خطوات الذين حدثني عنهم سلامة موسى، وكان واحدًا منهم الروائي الروسي مكسيم غوركي الذي شغفت به منذ أن قرأت روايته (الأصدقاء الثلاثة). كان غوركي يرى أن الفقر يسحق الإنسان، لكننا نستطيع أن ننتصر عليه بالعلم والاشتراكية، وفي كتابه (كيف تعلمت الكتابة) يخبرنا غوركي أنه حاول أن يجعل من البيان الشيوعي رواية، تحدثنا عن الثورة والمقاومة وأن الثائرين يجب ألا ييأسوا.

كانت ولادة سلامة موسى عام 1887، في بيت لموظف كبير يتقاضى نهاية كل شهر سبعة جنيهات. الطفل الذي رحل والده قبل عامين لا يتذكر شيئًا من هذا اليوم الذي أطلقت عليه والدته "يومًا أسود"، هكذا يخبرنا في كتابه (تربية سلامة موسى)، ولا ينسى أن يؤكد أنه كان طفلاً منعزلاً، فقد كانت أمه تخاف عليه، فألبسته ملابس البنات اتقاءً للحسد، ومنعته من الخروج إلى الشارع حتى نشأ على ما قال: "محبًا للوحدة والانطواء".

في مقدمة كتابه (أحلام الفلاسفة) يكتب سلامة موسى تعريفًا لحياته: "كنت ذلك الصبي الذي أرادت والدته أن تشكّله مثل عجينة طريّة".

في تربية سلامة موسى التي أسماها سيرة ذاتية يقسم حياته مثل فصول الكتاب إلى قسمين أساسيين، الأول بعنوان (تربيتي الأدبية) والثاني (تربيتي العلمية). ويفسر لنا في السيرة كيف أنه ربّى نفسه ثقافيًا: "عندما أرجع إلى البذور الأولى والجذور التي نشأت ونبعت منها ثقافتي الحاضرة، أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين 1907 و1911 حين كنت في لندن، ففي تلك الفترة كانت طائفة من المذاهب والنظريات في الأدب والعلم "تتجرثم" وقد كان من حظي أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات".

ظل طوال حياته يتمنى أن يعيش مئة عام، يموت ومن حوله الكتب،

مثلما كانت نهاية الجاحظ، لم تجتمع لكاتب عربي غيره قوة التأثير والتنوع في الكتابة، أصبحت كتبه مَعلمًا من معالم المكتبة العربية، وتفشت أفكاره حتى اعتقد أدباء ذلك العصر أن هذا الرجل المتوسط القامة سيسحب البساط من تحت أقدامهم، ما دفع الكثير منهم أن يخصص جزءًا من وقته للرد على "هرطقات" سلامة موسى.

قبل نشر (البيان الشيوعي) بمئة عام، نشر جان جاك روسو كتابه (أصل التفاوت بين البشر)، وهو واحد من أهم الكتب الفكرية التي صدرت خلال عصر التنوير، نشر روسو كتابه عام 1754، وفيه يطرح سؤالاً طالما شغل المفكرين من قبل، وهو كيف خُلِق التفاوت الطبقي بين البشر وكيف أدى هذا التفاوت إلى إلغاء الحرية وانتشار الفقر وسيطرة طبقة صغيرة على الثروات؟

وفي (أصل التفاوت بين البشر) يصوغ لنا فكرته هذه من خلال حكاية بسيطة يقول فيها إن: "أول إنسان سيج قطعة من الأرض وقال: هذه أرضي، ثم وجد أناسًا بسطاء صدقوا حكايته هذه واعتبروه المؤسس الأول للتجمع المدني. كم من الجرائم والحروب وسفك الدماء، وكم من التعاسات والأهوال كان يمكن للجنس البشري أن يتجنبها، لو أن شخصًا ما اقتلع ذلك السياج الأول، أو ردم تلك القناة الفاصلة، وصاح برفاقه من البشر: لا تستمعوا إلى هذا المحتال. إنكم تحكمون على أنفسكم بالضياع إذا نسيتم أن ثمار هذه الأرض من حق الجميع وأن الأرض ليست ملكًا لأحد". من خلال هذه الحكاية يريد روسو أن يؤكد أن كل الشرور والمآسي والمظالم التي عاشها البشر كانت بسبب التفاوت الطبقي بينهم. ومن أجل حلّ هذه المعضلة يرى روسو أن تعود البشرية إلى النمط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه الإنسان البدائي، قبل أن يقرر الإنسان أن يمتلك أرضًا خاصة به، ليتكون

المجتمع ويبدأ الناس التحضير لنظام الملكية الخاصة والتسابق للحصول على الثروات، بكل الوسائل المتاحة، بما فيها تلك الوسائل الشريرة، إذ إن البشر يكتشفون في خضم ذلك ضرورة أن يحسّنوا أوضاعهم على حساب البشر الآخرين. من هنا، تفرض نفسها لعبة السيطرة والتفاوت بين الغني والفقير، القوي والضعيف، ويصبح الجميع أشبه بذئاب ضارية، البعض يفترس لكي يحصل على المزيد، والبعض الآخر لكي يحافظ على ما لديه. أما المجتمع المدني الحقيقي الأول فيتأسس حينما يتمكن القوي المنتصر من إقناع الآخرين بأن عليهم أن يتكاتفوا معًا، تحت قيادته، للحفاظ على كينونتهم ضد الآخر الغريب المستعد لافتراسهم، وهكذا هنا مع تكون الطبقات، تتكون مشاعر العصبية وكراهية الآخر، وتندلع الصراعات والحروب.

في تشرين الأول من عام 1847 وقبل ظهور (البيان الشيوعي) بأشهر كتب ماركس مقالاً تحت عنوان (النقد الواعظ)، أشاد فيه بأفكار جان جاك روسو حول التفاوت بين الطبقات، بعدها يلقي خطابًا أمام مجموعة من العمال سينشر فيما بعد تحت عنوان (العمل المأجور ورأس المال)، يرسم فيه كارل ماركس للمرة الأولى الخطوط الكبرى لنظريته الاقتصادية، والتي شكلت فيما بعد الأساس الذي بنيت عليه أفكاره السياسية، ويسلط في هذه المقالة الضوء على الطريقة التي يستحوذ بها الرأسماليون على القيمة التي يخلقها العمال، بعدم إعطائهم ما يتكلفون لإعادة الإنتاج، وليس لما ينتجونه "فليست الأجرة إذًا نصيب العامل من السلعة التي ينتجها، بل الأجرة هي الجزء الموجود قبل السلعة والذي يشتري به الرأسمالي كمية معينة من قوة العمل المنتجة، ذلك إن قوة العمل هي سلعة يبيعها مالكها الأجير لرأس المال، يبيعها لكي يعيش".

يشكل (البيان الشيوعي) الذي صدر بداية عام 1848، تطورًا جديدًا

في فكر ماركس وزميله إنجلز، فهما يقدمان لنا من خلاله تصورًا أكثر كمالاً للنظرية المادية، يكون فيه صراع الطبقات المحرك الرئيسي للتاريخ، وتكون الطبقة العاملة القوة الخلاقة الزاحفة لمجتمع جديد. إنها بداية الاشتراكية العلمية، وهو الانتقال إلى حيز العمل السياسي. يستهل البيان بهذا التصور للمجتمع البشري: "عن تاريخ كل مجتمع، حتى أيامنا هذه، لم يكن سوى تاريخ صراع الطبقات"، ونجد (البيان الشيوعي) يقدم تصورًا للمجتمع البدائي كما كتب عنه جان جاك روسو في (تفاوت الطبقات بين البشر) حيث نقرأ هذه العبارة: "كان المجتمع البدائي يسمح لكل فرد بأن يظل حرًا لتنفيذ العمل الضروري للمحافظة على بقائه".

***

"في موضع من كتاب ما، هناك جملة تنتظرنا كي تعطي معنى للوجود"

ثربانتس

قبل نشر (البيان الشيوعي) كان فريدريك إنجلز قد كتب عن معاناة العمال في بريطانيا، حيث آمن آنذاك بأن الأغنياء كانوا كذلك ليس لأنهم تحلوا بالبراعة أو النشاط أو المثابرة، ولكن لأنهم كانوا ماكرين وخبثاء. وبأن الفقراء كانوا كذلك ليس لأنهم كسالى أو سكارى أو حمقى، ولكن لأن سادتهم عصبوا عيونهم واستغلوهم. "إن البرجوازي الإنكليزي لا يبالي مطلقًا إذا كان عماله يتضورون جوعًا أم لا، طالما أنه يحقق أرباحًا".

قبل نشر (البيان الشيوعي) بثلاث سنوات، وبالتحديد في منتصف ليلة من ليالي شهر أيار عام 1845، ذهب شابان ليطرقا باب كاتب مبتدئ كان

قد أرسل إليهما أولى كتاباته، ليقولا له عبارة واحدة: "أنت أديب عبقري". الشاب الذي تم الاحتفال بعبقريته بهذه الطريقة الغريبة والدرامية كان اسمه فيدور دوستويفسكي، وأما زائراه فهما الناقد الشهير بيلينسكي وزميله جريجوروفتش. كانا قد أنهيا قبل ساعة قراءة مخطوطة رواية (الفقراء).

يعرض لنا دوستويفسكي في (الفقراء) بؤس موظف حكومي يذكرنا بالموظفين الذين قدمهم لنا نيقولاي غوغول في قصصه ورواياته، حتى إن بيلينسكي وهو يغادر شقة دوستويفسكي البائسة يلتفت إليه وهو يقول: "لا تنسى إنك غوغول روسي جديد". لقد كانت رواية (الفقراء) مستوحاة من رواية غوغول (المعطف)، فقد كان ذلك الإنسان البسيط الساكن في مدينة سان بطرسبورغ، المسكين الذي يسخر منه زملاؤه، ويعاني من الحرمان والفقر، يخضع ويستسلم لكل شيء، هو صورة أخرى من بطل غوغول أكاكي أكييفيتش، الموظف البسيط الذي يتمكن بعد فترة من الحرمان والفاقة، أن يشتري المعطف الذي كان قد حلم به طويلاً. وذات يوم، ومن دون مقدمات، يُسرق المعطف منه، فيقع أكاكي مريضًا، ثم يموت غمًا وحزنًا على معطفه الحبيب.

يكتب دوستويفسكي عن روايته (الفقراء) بأنها قصة بسيطة، مطابقة للواقع اليومي وبطلها ليس رجلاً عظيمًا، أو شخصية تاريخية. والرواية كتبت على شكل رسائل بين دييفوشكين وهو رجل قروي مجهول، تقدمت به السن، ساذج وبائس، طيب القلب ومتسامح لدرجة استعداده أن يقدم حياته ضحية من أجل إنسان لا يعرفه، وفرنكا المرأة الشابة التي تسكن في غرفة مقابل غرفته، تمت إليه بقرابة بعيدة لكنها ترفض استقباله بغرفتها، ولا تريد أن تزوره خوفًا من أقاويل السكان، ولذلك لم يكن أمامها إلا الرسائل يتبادلانها لشرح أحوالهما.

هي بائسة وهو بائس أيضًا، لكنه يحاول أن يغمرها بعطف أبوي، ومن جهتها تحاول مساعدة صديقها العجوز على التعلم واكتساب المعرفة، وهي تتحدث في رسائلها عن معاناتها وعن آلامها وعن "طفولتها التي أمضتها بالقناعة والخضوع، وموت حبيبها المفاجئ". كانت هذه الرسائل تشكل وليمة روحية بالنسبة لدييفوشكين، فهو لم يعد وحيدًا، بل يعيش مع شخص آخر ومن أجل هذا الشخص. وهو يعمل ويشتغل ويحرم نفسه من أشياء كثيرة لكي يشتري زهورًا وهدايا لصديقته الشابة، لكن البؤس يترصده، فالجيران يظنون أنه يقيم معها علاقة مشبوهة، ولهذا تقرر فرنكا أن تتزوج، ويشعر أن فراغًا كبيرًا سيحدث في حياته، لتنتهي الرواية بهذه الصرخة: "ليس من الممكن أن تكون هذه الرسالة هي الأخيرة، كيف يمكن أن تتوقف مراسلتنا إذًا هكذا، فجأة؟ كلا سأكتب لك، وأنت ستكتبين لي أيضًا.. يا فرنكا إن أسلوبي في الكتابة يتحسن، آه يا عزيزتي ماذا أقول عن الأسلوب، يا محبوبتي الغالية، يا عزيزتي ماتوتشكا".

في عام 1902 ينشر مكسيم غوركي مسرحيته الشهيرة (الحضيض) ويكتب في رسالة إلى صديقه أنطوان تشيخوف أنه يحاول أن يقلد فقراء دوستويفسكي، حيث يصف لنا بشكل مبهر البؤس الذي يعيشه المواطن الفقير، فأحداث المسرحية تدور وسط بيئة المعدمين والبائسين والمشردين الذين لا يكادون يجدون قوت يومهم، أو مكانًا يؤويهم، ومع ذلك نراهم يتمسكون بالعيش وبحب الحياة. والأحداث هنا تدور حول المرابي العجوز كوستيليف الذي حول قبوًا في بنايته إلى مهجع ليلي يقيم فيه المشرّدون. ومن بين هؤلاء النزلاء يطالعنا الشاب فاشكا الذي يبدو ذكيًا، ونجده يمارس دور المحب لفاسيليسا، زوجة المرابي، لكنه في الحقيقة يحب أختها ناتاشا. فاسيليسا لا تكف عن محاولة إقناع فاشكا بقتل العجوز إكرامًا لحبه لها. وفي

النهاية يقدم فاشكا على الجريمة ويقتل المرابي، ولكن ليس طمعًا في الزوجة، إنما لكي يحمي ناتاشا من اضطهاد كوستيليف. وفي المسرحية هناك العجوز لوقا الذي نكتشف أنه شريد وقديس في الوقت ذاته. والذي يذكرنا بالأب زوسيما في الأخوة كارامازوف لدوستويفسكي، إنسان يعامل الناس جميعًا كأنهم أطفال، ويتمكن دائمًا من الحصول على ثقتهم فيصبح أبًا حقيقيًا لهم، معطيًا إياهم أملاً دائمًا وحبًا للحياة مفعمًا. ولكن بعد مقتل المرابي يختفي لوقا تمامًا وتختفي معه كل ضروب الأمل والسكينة، وتموت الأحلام الكبيرة التي كان يبثها في عقول ونفوس سكان القبو.

يكتب غوركي عن ذكرياته مع تولستوي أنه كان يستمد من أديب روسيا الكبير معنى أن يكون الفقراء هم من يصنعون الموارد المالية للمجتمع.

في العام 1855 يكتب الشاعر الأميركي والت وايتمان في مقدمة ديوانه الشهير (أوراق العشب): "إن عظمة المرحلة الحالية التي نعيش فيها، ليست في المشاريع ولا في الصالونات الفخمة ولا الكنائس ولا حتى في الصحف أو الاختراعات، ولكن العظمة نجدها في الناس العاديين بإحساسهم بأنفسهم كأشخاص لم يجربوا أبدًا شعور الوقوف في حضرة من يعلونهم منزلة، الأهمية الرهيبة لتغيير الحياة أن هناك رئيسًا يرفع قبعته لهم وليسوا هم من يرفعون قبعاتهم خوفًا".

***

من هو الشيوعي؟

يحدد ماركس وإنجلز في بيانهما الشيوعي معنى أن يكون الإنسان شيوعيًا: "لا يعني أن يكون له رأي مختار من بين سائر الآراء، وفقًا لمصادفات التفضيل والانتقاء والمناسبات، ولا هو كذلك صفة موروثة أصيلة عند بعض الأفراد

يكونون شيوعيين، كما يكون الإنسان أشقر أو أسمر، وهذا لا يعني أيضًا أن يكون لدى الإنسان عزم على مداواة جميع الآلام البشرية بعاطفة توصي لتعميم الحب على البشر، أو بنزعة إنسانية طوباوية أو حلم كريم، أو باللجوء إلى انقلاب فجائي شامل يطرأ على الأوضاع، أن يكون الإنسان شيوعيًا معناه من الناحية الجوهرية اتخاذ موقف علمي من قضايا المجتمع".

في النسخة التي صدرت بعد وفاة ماركس يضيف إنجلز ملاحظة لقراء البيان تتعلق بأهمية دراسة المادية التاريخية لفهم البيان الشيوعي: "إن الفكرة الرئيسية التي تهيمن على (البيان الشيوعي)، هي أن الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الناتج عنه يكونان حتمًا وفي كل عصر قاعدة التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر، إن التاريخ كان وسيظل تاريخ الصراع بين الطبقات".

أصبح (البيان الشيوعي) فيما بعد أول وثيقة منهجية للشيوعية العلمية، وقد لخص فيه ماركس وإنجلز، مجمل المعارف الاجتماعية والاقتصادية والتجارب العلمية، ولم تبلغ النسخ التي طبعت في الطبعة الأولى من هذا الكراس الصغير سوى بضع مئات تنقلت من يد إلى أخرى.

يكتب لينين إن (البيان الشيوعي) كان أول عرض كامل للمادية التاريخية، وأول نص تظهر فيه الطبقة العاملة كطبقة مجردة جذريًا من الأوهام. في اللحظة التي صدر فيها (البيان الشيوعي)، كان هناك في باريس سياسي ومفكر فرنسي ألكسيس دو توكفيل، يعلن أن البؤس الشعبي يمكن أن يعيد فكرة الثورة من جديد إلى المجتمع.

كان دو توكفيل يستعد لنشر كتابه (النظام القديم والثورة)، والذي سيركز فيه على أن الديموقراطية تعزل الإنسان وتهبط بمستواه الخلقي، حائلة بينه وبين أن يتحمل مسؤولياته كافة. ومن هنا يتعين إضفاء طابع

لامركزي على السلطة، وتحرير الصحافة وبقية المؤسسات والمشاريع إلى الحد الأقصى، وجعل القضاء مستقلاً كل الاستقلال عن الحكومة. وبعد أيام تندلع الثورة في فرنسا، والتي سميت بربيع الثورات الأوروبية، في ذلك الوقت كان (البيان الشيوعي) يطبع في لندن، وجاهزًا للنشر بالألمانية حيث تنشر الكراسة دون ذكر لأسماء المؤلفين، فقد نسب البيان إلى عصبة الشيوعيين. في شباط من نفس العام يسافر ماركس إلى باريس وهناك يلقي محاضرة يعرض فيها تاريخ الثقافة الإنسانية باعتباره تاريخًا للأيديولوجية، وللديانات والفلسفات والنظم القانونية المقنعة التي أظهرت نفسها على أنها حقائق كلية أو أزلية لسائر البشر، ويرى ماركس في محاضرته تلك أن جميع الأفكار والقيم التاريخية الرئيسية تعمل على حماية المصالح الطبقية والدفاع عنها، وتحرص على إخفاء حقيقة الممارسات الظالمة وغير الإنسانية من قبل المجتمع المدني بحق الطبقات التي تتعرض للاستغلال.

وسرعان ما يتحوّل (البيان الشيوعي) إلى منهج للفلسفة الماركسية التي أصبحت الاتجاه الفكري الأبرز في القرن العشرين، حيث امتد تأثيرها إلى كافة العناصر السياسية فضلاً عن الثقافية كالروايات والأفلام ووسائل الإعلام، والهيئات والمؤسسات الاجتماعية. إنها الثورة الشيوعية التي يصفها ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي: "الثورة الشيوعية هي القطيعة الأكثر جذرية عن علاقات الملكية المتوارثة".

يكتب مكسيم غوركي: "يجب ألا أتعب من تكرار القول بأن ما أكتبه استنبطته من قراءاتي لأعمال دوستويفسكي وشغفي بالبيان الشيوعي لماركس وإنجلز، وكنت ولا أزال أعتقد أن جميع ما كتب عن معنى الفقر والذل الذي يعيشه الفقراء، والمهانة التي يتعرضون لها، والأمل الذي يشع في عيونهم، خرج من معطف إنسان بسيط ومريض نذر نفسه لخير البشرية.. إنه دوستويفسكي".

10

ما الذي يجمع بين ماركس وروسو وآدم سميث؟

"تتم كتابة الكتب من أجل تأكيد وحدة البشر، وبالتالي الدفاع عن أنفسنا أمام الوجه الآخر القاسي للوجود: الزوال والنسيان"

ستيفان تسفايج

لا أتذكر أين قرأت هذه العبارة التي يقول صاحبها إن: "القراءة فعل من أفعال الحياة الخاصة"، هذه الحياة التي نتعرف من خلالها على كُتاب لن نراهم، لكننا نتعلق بهم ونحبهم ويصبحون جزءًا من حياتنا، وفي كثير من الأحيان لا تهمنا العبارة التي يضعها المؤلف في بداية كتابه، مثلما فعل غوستاف فلوبير في (مدام بوفاري): "كل شخصيات هذا الكتاب متخيلة، والبلدة التي عاشوا فيها لا وجود لها في الواقع"، لأن قراء (مدام بوفاري) على مدى أكثر من مئة وخمسين عامًا منذ أن نُشرت الرواية عام 1856، يؤمنون أن هناك سيدة في هذه البلدة قد انتحرت بسبب آلام الحب، واليوم فإن زوار المدينة التي عاش فيها فلوبير يجدون لافتات تدعوهم لزيارة قبر مدام بوفاري. يقول التركي الحاصل على نوبل أورهان باموق: "أن تحمل كتابًا معناه أنك تمتلك عالمًا آخر، عالمًا يمكن أن يجلب لك السعادة". أثناء فترة مراهقتي كانت الكتب التي أتمنى قراءتها هي التي تَكشف لي ماذا كان يجري في هذا العالم؟ وكان أحد الأصدقاء يستفزني دائمًا وهو يتحدث عن

كتب لم أسمع بها من قبل، ويسألني باستمرار عنها دون أن أكون قد حصلت على واحد منها. وذات يوم فاجأت هذا الصديق بأن قلت له إنني قرأت رواية عنوانها (العقب الحديدية) اسم كاتبها جاك لندن، وذهبت بي الجرأة إنني كتبت عن الرواية ومؤلفها موضوعًا إنشائيًا سلمته إلى مدرس العربي الذي وجدته يشجعني على كتابة مثل هذه الموضوعات.

شَغفت بجاك لندن الذي أدخلني عالمًا لم أكن أعرف بوجوده من قبل، وتحمستُ له بشدة ورحت أبحث عن كتبه في مكتبات شارع السعدون، فوجدت له ثلاث روايات وكتابًا يضم مجموعة قصصية، وزاد إعجابي به بعد أن عثرت على كتاب صغير لا تتجاوز صفحاته المئة وسبعين صفحة من القطع الصغير، كتبه الباحث والمؤرخ في الأدب الشعبي والتراث عبد الحميد العلوجي صدر عن سلسلة كتاب (الجماهير) بعنوان (جاك لندن)، وما زاد اعجابي أكثر بجاك لندن وحماسي له أنني في ذلك العمر لا أستطيع أن أقارنه بأحد لأنني اكتشفت آنذاك أن صاحب رواية (العقب الحديدية) حاول أن ينقل في رواياته تجاربه الشخصية وما خبره من عنف وقسوة في الحياة، ومن سطوة الرأسماليين الجشعين في مدنٍ مرّ بها مع أشباهه من المغامرين الفقراء والمهمّشين. يصف حياته بشكل مؤثر: "أنا ابنُ الطبقة العاملة. في سن الثامنة عشرة، وجدتُ نفسي في الهاوية أكثر من السابق. كنتُ في قاع المجتمع، في الأغوار العميقة للبؤس الّتي ليس من المناسب واللّائق الكلام عنها. كنتُ في حفرة، في هاوية، في بالوعة الجنس البشري، في فوضى أو مقبرة جماعية لحضارتنا"، ثم نسيت جاك لندن وضاعت كتبه وسط الإصدارات الجديدة التي كنت أقتنيها، والغريب أنني لم أحاول أن أبحث له عن كتب جديدة. ومرت السنوات حتى تصادف وأنا أعيد ترتيب مكتبتي، وجدت أمامي النسخة القديمة من رواية (العقب الحديدية)، فرحت وكأنني أعثر

على صديق قديم بعد فراق أكثر من ثلاثين عامًا، وأخذت أقرأ في الرواية وأسترجع بعض الفقرات التي ذكرتني بمتعتي القديمة، وفي القراءة الجديدة اكتشفت أنني لم أفعل في صباي شيئًا سوى الإعجاب بكلمات أبطال الرواية. والآن مطلوب مني أن أفعل المزيد، القراءة الجديدة للرواية جعلتني أسأل بعض الأسئلة الجادة عن الثورة والنضال والاقتصاد السياسي، ورحت أبحث عن إجابات لهذه الأسئلة.

ظلت كتب جاك لندن تطبع في أوروبا حتى بعد مرور قرن على رحيله. وكان هذا الكاتب غالبًا ما يُصنف بكاتب رحلات، لكنه في زمانه كان الكاتب الأميركي المعبر عن القرن الجديد، جريء ومثير للفضائح وواثق من نفسه. توفي فجأة وهو في الأربعين من عمره - ولد عام 1876، ومات عام 1916 - كتب خلال حياته القصيرة خمسين كتابًا وتسكع عبر القارات الخمس، لكن أطول رحلاته لم تكن مرسومة على الخرائط، بل كانت رحلته الشاقة من الفقر إلى الغنى التي تسلح فيها بإرادة قوية استطاع من خلالها أن يتخطى وظيفة العامل البسيط، ليصبح الكاتب الشهير الذي ظلت سيرته تجذب القراء أكثر من كتاباته. كان جاك لندن ابن بيئة شعبية، والده يوصف بأنه دجال من الدرجة الأولى، مُنجم يتجول في أنحاء أميركا ليلقي محاضرات عن الحظ والحب والتنجيم. أما والدته فكانت تكرس حياتها لمهنة تحضير الأرواح، في سنتها الخامسة والعشرين هربت من بيت أهلها، لتلتقي بوليم تشاني المُنجم، فعملت معه مديرة لمنزله، وعندما أخبرته أنها حامل منه، طلب منها أن تجهض نفسها فهو غير مستعد للزواج، وفي كانون الثاني عام 1876 ولد جاك تشاني. وبعد أن هرب والده الحقيقي إلى بلدة أخرى، تزوجت أمه من جون لندن، نجار أرمل لديه سبعة أطفال، وبسبب صعوبة العيش اضطر جون الأب إلى أن يتنقل بعائلته عبر العديد من المدن، حتى استقر في أوكلاند

ليعمل حارسًا ليليًا في الميناء. أما الأم فقد استمرت في مهنة تحضير الأرواح وكانت كثيرًا ما تصرخ وتبكي بسبب الفقر الذي ظل يلازمهم. يكتب جاك لندن في يومياته: "لم أعش أبدًا فترة الصبا، ويبدو إنني أسعى للبحث عن صباي الضائع". كان جاك الصبي يستغل فترات استراحته من الدراسة والعمل بقراءة طبعات تجارية من روايات تشارلز ديكنز وفكتور هيجو، وفي سن الثانية عشرة عثر على نسخة قديمة من دون كيشوت: "قضيت مع هذا الكتاب المذهل أسبوعًا كاملاً، حرمني خلالها النوم والأكل". في الثالثة عشرة من عمره ترك المدرسة ليعيل عائلته بعد أن خسرت أمه كل ما ادخرته في المراهنات. عمل في البداية بائعًا للصحف، ثم عاملاً في مصنع للتعليب، بعدها في ورش للنجارة حيث اعتادَ أن يعمل أكثر من 12 ساعة يوميًا، ويقرأ سبع ساعات وينام خمس ساعات فقط، ويصف لنا في قصته (المارق) المنشورة ضمن مجموعته القصصية (تحت سماء الجليد) - نشرتها مجلة شعر في ستينيات القرن الماضي بترجمة جوفر حداد-: "في صباح اليوم التالي نزعت أمه جسده من قبضة النوم. ثم أتى دور الإفطار الهزيل، فالسير على الأقدام في الظلام، بينما يطل الصباح بضوئه الشاحب على أسطح المنازل التي أولاها ظهره وهو يدلف من بوابة المصنع. كان مجرد يوم من الأيام المتشابهة. تحول جاك إلى صبي مشاغب بسبب العمل المتواصل والحرمان من اللعب، فانضم إلى عصابات الفتيان الذين يجوبون أرصفة موانئ أوكلاند، لكنه كان يضمر أحلام الصبي حتى وهو يتشاجر كالرجال".

ثم ما لبث الصبي ابن الخامسة عشرة أن اشتهر بحبه للبحار، فقرأ في المكتبة العامة للمدينة كل ما يتعلق بالبحر، بعدها قرر أن يعمل ملاحًا ليبحر عام 1893 في السفينة سوفي سذلارند إلى اليابان. ولما عاد إلى بلدته بعد سبعة أشهر كانت البلاد تعاني من أزمة اقتصادية، حيث أفلست معظم

البنوك وأصبح الحصول على عمل من المعجزات، لكنه استطاع أن يجد عملاً في أحد القطارات مهمته نقل الفحم، وقد طاف الولايات المتحدة الأميركية لمدة عام، يعود بعدها إلى أوكلاند ليدخل المدرسة من جديد. وفي السنة التالية يجتاز امتحان القبول في الجامعة، لكن الحاجة لإعالة والدته وزوج أمه المريض وأبنائه اضطرته إلى أن يترك الجامعة بعد أشهر ليذهب في رحلة للبحث عن الذهب، وفي هذه الفترة يتعرف على كتابات الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال سان سيمون وفوريه وبرودن، ويقرأ كتابات كارل ماركس التي تسحره، إلا أن الكتاب الذي ظل يرافقه كان من تأليف اقتصادي إنكليزي اسمه آدم سميث، صاحب الكتاب الشهير (ثروة الأمم)، وكان كتابه الذي غير حياة جاك لندن بعنوان (نظرية المشاعر الأخلاقية).

***

"إن تعلم القراءة هو بمثابة إشعال نار، وكل مقطع يمثل شرارة"

فيكتور هيجو

يكتب جاك لندن في يومياته أن الفقراء هم من يصنع الثروة، الذين ينهضون قبل الفجر ويحرثون الحقول وينتجون السلع، والطبيعة الحيوية لعملهم تمنحهم الحق في أن يكرمهم جميع من يعلونهم منزلة على درجات السلم الاجتماعي. لم تكن دعوة جاك لندن هي الأولى فقبله بمئة وخمسين عامًا، كتب آدم سميث كتابه (نظرية المشاعر الأخلاقية) عام 1759، وكان يبلغ آنذاك الخامسة والثلاثين من عمره، والكتاب عبارة عن محاضرات كان يلقيها في درس الأخلاق، حيث عمل أستاذًا للمنطق في جامعة غلاسكو. ويعد هذا الكتاب أشبه بمقدمة لكتابه الكبير (ثروة الأمم) الذي نشره في

لندن عام 1776 في أكثر من ألف صفحة، حيث وضع فيه نظريته الأساسية في الاقتصاد، ويعد الكتاب دائرة معارف أكثر منه مجرد رسالة في الاقتصاد. وفيه يبدأ سميث بمناقشة موضوع تقسيم العمل، ثم يتناول تاريخ النقود، وأسعار السلع، وأجور العمل، وأرباح التجارة، والفرق بين العمل المنتج وغير المنتج، وهو يبين في الكتاب أن أفضل طريقة لتحقيق الرفاهية، هي السماح لكل إنسان بأن: "يبذل جهدًا منظمًا ومستمرًا بدون انقطاع لتتحسن حالته. لا نتوقع الحصول على غذائنا من إنسانية الجزار أو الخباز، بل من نظرتهم إلى مصالحهم، ولهذا نحن لا نتحدث إليهم قط عن حاجاتنا وإنما عن منفعتهم". ولعل أشهر جزء في الكتاب هو الذي عنونه (عن أنظمة الاقتصاد السياسي) حيث يتناول سميث نظامين مختلفين: نظام التجارة ونظام الزراعة، ويتوصل في هذا الفصل المهم إلى نقطة واحدة هي حرية التجارة داخليًا وخارجيًا: "لن تحصل الأمة على التقدم الكامل والرخاء إلا عن طريق التجارة غير المقيدة، في الداخل وفي الخارج". وناشد سميث الأمم إلغاء الرسوم الجمركية وتحريم الاحتكارات التجارية، فمثل هذه الأمور تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع إلى المستهلكين، ويلخص سميث الميزات الاقتصادية للتجارة الحرة في هذه العبارة: "شعار كل رب أسرة حازم ألا يحاول أن يصنع في منزله ما يكلفه صنعه أكثر من شرائه. وما هو حزم في مسلك كل أسرة قلما يكون غباء في مملكة عظمى. فإذا كان بوسع دولة أجنبية أن تورد لنا سلعة بأرخص مما يكلفنا صنعها بأنفسنا، فمن الخير أن نشتريها منها نظير نوع من منتجات صناعتنا مستخدمة بطريقة تحقق لنا بعض الميزات".

والحقيقة أن آدم سميث وهو يقدم لنا أفكاره عن الاقتصاد في هذا الكتاب الضخم أراد أن يؤكد على مفهوم واحد، هو أن العمل هو الأصل وهو الذي

يؤدي إلى تراكم الثروات وازدهار الأمم.

ولد آدم سميث في الخامس من حزيران عام 1723، كان والده المحامي المعروف قد توفى قبل ولادته بأشهر، مما جعل أمه تسجل اسمه في سجلات المدينة باسم أبيه آدم سميث. لا نعلم إلا القليل عن طفولته، فكاتب سيرته جيمس بوكان يخبرنا بأن آدم سميث كان بطيئًا في الفهم مما اضطر أمه إلى أن تستشير عمها الكاهن الذي أوصى أن يأخذ دروسًا في الكنيسة. ومن الأحداث المهمة التي أثرت في حياته أنه تعرض للخطف وهو في سن الثالثة على يد مجموعة من الغجر، وبقي عندهم فترة من الزمن حتى تمكن خاله من أن يعيده إلى أمه. بعد أن تعلم القراءة في الكنيسة دخل المدرسة ولاحظ المعلمون أنه لا يرغب في الدروس بقدر شغفه لقضاء وقت أطول في المكتبة، دخل جامعة أكسفورد من خلال منحة دراسية، وخلال سنواته الجامعية تمكن من دراسة النصوص الكلاسيكية في الأدب والفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع، لكنه فجأة يترك الجامعة ليتفرغ للكتابة والقراءة. وبفضل الصلات التي تربطه بالفيلسوف الإنكليزي فرانسيس هاتشون الذي درس على يديه في الجامعة، استطاع أن يحصل على وظيفة محاضر في الأدب وفلسفة القانون، وقد حظيت محاضراته بالاهتمام ومهدت له الطريق للانتقال إلى حياة مهنية جديدة.

عام 1751 يعود للجامعة لإكمال دراسته ليعين بعدها أستاذًا للمنطق وفلسفة الأخلاق والبلاغة في جامعة غلاسكو. وفي تلك الفترة انتشرت أفكاره حول علاقة الاقتصاد بالأخلاق بعد أن نشر كتابه الأول (نظرية المشاعر الأخلاقية) الذي أراد من خلاله أن يبين لنا أن أفكارنا وأفعالنا الأخلاقية ليست إلا نتاجًا لطبيعتنا باعتبارنا كائنات اجتماعية. وفي الكتاب يحدد سميث القواعد الأساسية للاهتمام بالنفس والعدل اللذين يحتاجهما

المجتمع للبقاء، ويشرح الأفعال الإضافية الخيرية التي تمكنه من الازدهار حيث يرى أننا جميعًا نهتم بمصالحنا الشخصية، لكن مطلوب منا أيضًا أن نعرف كيفية العيش مع الآخرين دون الإضرار بهم، لأن هذا هو الحد الأدنى الضروري لبقاء المجتمع. وفي قضية العدل يرى سميث أننا إذا أردنا بقاء المجتمع، فلا بد أن تكون هناك قواعد للحيلولة دون إيذاء أفراده بعضهم بعضًا، ويتمثل العدل ضمن مفهوم سميث في الكيفية التي يدافع بها المجتمع عن نفسه ضد أي ضرر. وفي موقفه من الثروة نجد أن آراء سميث ربما تصدم الذين يعتقدون أنه منظّر للرأسمالية، فهو يؤكد أن وسائل الراحة المادية التي يمكن شراؤها بالمال ما هي إلا تفاهات، فليس بمقدور الغني أن يتناول من الطعام مقدار ما يتجاوز قدرة الآخرين على الأكل، وربما ينعم العامل في كوخه بنوم أهنأ من نوم الملك في قصره العظيم. فالثروة تعجز عن إنقاذنا من الشعور بالخوف أو الحزن أو الموت. بعدها يحدد سميث طبيعة الإنسان الفاضل، فهو يرى أن هذا الشخص يجسد صفات الاهتمام بالنفس والعدل وعمل الخير، وهناك أيضًا صفة رابعة هي ضبط النفس. بعد سبعة عشر عامًا، وبالتحديد عام 1776، يكتب سميث في مؤلفه الضخم ثروة الأمم: "إذا زال العدل، فلا شك أن النسيج العظيم الهائل للمجتمع البشري. سيتفتت إلى ذرات في لحظة واحدة".

***

حقق جاك لندن الشهرة والثروة، لكن كان عليه أن يعيل العديد من الأقارب. صار يكتب مئة كلمة في اليوم ويدخن مئة سيجارة. حذّره الأطباء والأصدقاء من عواقب نمط الحياة التي يعيشها، لكنه كان يجيب في كل مرة: "إني أفضل أن أتحول إلى رماد على أن أتحول إلى تراب".

في روايته (العقب الحديدية) يقدم لنا تلخيصًا للأوضاع الاقتصادية

التي عاشتها أميركا قبل أكثر من قرن من الزمن، حيث يسلط الأضواء على ذلك الصراع بين أصحاب رؤوس الأموال وبين العمال الذين كانوا يجهدون للحصول على الخبز والعدالة. الرواية التي لا تزال توصف بأنها لوحة ملحمية للكفاح الثوري ضد الاستغلال قال عنها تروتسكي في يومياته: "لقد خلّف هذا الكتاب تأثيرًا قويًا في نفسي، أقول ذلك بلا مبالغة. ليس بسبب ميزاته الفنية وحسب، بل جرأة الكاتب واستقلال توقعاته في مجال التاريخ". فيما أشاد بها جورج أورويل لكونها نبوءة رائعة جدًا لصعود الفاشية، وأذهلت لينين الذي اعتبر جاك لندن أول بلشفي عالمي، فيما دفعت مكسيم غوركي لأن يكتب: "تعلمت من أخي في النضال جاك لندن ما لم أتعلمه من كل كتب الفلسفة".

يروي جاك لندن حكاية بطل الرواية إرنست إيفرهارد بعد مقتل زوجته التي كانت قد مهدت لأحداث الرواية بقولها: "عقدت العزم على أن أفرغ في فترة الانتظار القلق هذه للكتابة عن زوجي. إن ثمة ضوءًا كثيرًا أستطيع أنا وحدي من دون جميع الأشخاص الأحياء أن ألقيه على شخصيته".

ونجد جاك لندن يضع نفسه محل بطل الرواية وينعى نفسه مبكرًا، ويخبرنا أن ثمة من سيسرد حكايته. فبطل الرواية يرى أنه حين يطلق كلمة السر ستنهض جماهير العمال في أرجاء العالم كله. وتضيف زوجته عنه: "كان روحًا عظيمة، وحينما يصبح حبي عاريًا عن الأنانية لا آسف على شيء مثل أسفي لأنه ليس هنا حتى يشهد فجر الغد". في الفصول الأولى من الرواية تتحدث زوجة إرنست كيف تعرفت على زوجها عام 1912، وتدعو الآخرين إلى اكتشافه كما اكتشفته هي، وكيف أثّر في الآخرين، فهو حين يجادل الميتافيزيقيين وفلسفتهم يسخر منهم، ويرى أنهم لم يقدموا خدمة للجنس البشري. فهم: "معتوهون وفوضويون في دنيا الفكر، ويفزعون إلى

وجدانهم لكي يفسروا ذواتهم ويفسروا الكون."

وتواصل الزوجة سرد الحكاية: "كان الزعيم المعترف له بالسبق في فلسفة الاشتراكية، وكان لا يزال في العاشرة من العمر عندما مضى ليعمل في المصانع، كان ذا ثقافة ذاتية، رزقه هزيل عن طريق ترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية، أبهجتني براعته وأفزعتني في وقت واحد معًا، طائش حتى لقد وجدت نفسي أعتبره حبيبًا وزوجًا".

يطرح إرنست قضية الصراع الطبقي، ويصل تأثيره إلى الجامعات حيث يفضح ذلك النظام الذي وصفه بنظام لا أخلاقي جشع، ونجد أسقف الكنيسة مورهاوس الذي يبدي اعتراض على آراء إرنست، إلا أنه في النهاية ينصاع لصوت الحق، فيهجر الكنيسة ويصبح مطاردًا مثله مثل الكثيرين أمثاله. يدافع إرنست عن العمال ويهاجم وكلاء الشركات الفاسدين الذين يسعون إلى تزييف الحقيقة ويصرون على أن القانون شيء والحق شيء آخر: "إن حضارتنا التي نفخر بها مبنية على الدم، منقوعة بالدم، وليس في وسع أحد الهروب من اللطخة القرمزية".

وسرعان ما تتحول الأمور إلى معسكرين، معسكر الطبقة العاملة ومعسكر العدو الرأسمالي، بعد أن تعذرت الأمور لإيجاد قواسم مشتركة بين الفريقين، هاجر فيها مَن هاجر واختبأ فيها مَن اختبأ وتحولت إلى حرب طاحنة بين الجائعين والمتخمين، واشتعلت حرب كثرت فيها المطاردات وسالت فيها الدماء، وكان من أبرز ضحاياها إرنست نفسه. وبلغ دعاة الاشتراكية في سائر أنحاء العالم أكثر من ثلاثة وعشرين مليونًا، يوحد بينهم الجوع وفقدان العدالة وأهمها عدالة الأجور، فكان صوت إرنست طاغيًا يتردد صداه، وهو نفسه صوت جاك لندن: "أخفقتم في تدبير أمر المجتمع، وحولتم الحضارة إلى مسلخ وكنتم عميانًا وشرهين."

يكتب أناتول فرانس في تقديمه للترجمة الفرنسية: "أنا لا أستطيع أن أزعم لكم أن الفاشية الرأسمالية سوف تهلك في الحال ومن غير كفاح. إنها سوف تكافح. ومن يدري، فقد تكون حربها الأخيرة طويلة، متفاوتة المصائر، إيه يا ورثة البروليتاريين! إيه يا أجيال المستقبل! أبناء الأيام التي ستهل! إنكم سوف تناضلون، وحين تشرع الخيبات في حملكم على الشك بنجاح قضيتكم فلا ريب أنكم سوف تستعيدون شجاعتكم وترددون مع بطل رواية جاك لندن النبيل: "لقد خسرنا مؤقتًا، ولكن ليس إلى الأبد"، لقد تعلمنا أشياء كثيرة. وغدًا تنهض القضية من جديد، وهي أقوى بالحكمة وروح الانضباط".

عاش جاك لندن اشتراكيًا منذ صباه، يدقق في صفحات الماركسية ويدرس كتابات ماركس وآدم سميث وكانط ونيتشه وسبنسر، ويكرس نشاطه السياسي وإرثه الأدبي ليؤكد أطروحته الأساسية بفكرتها الصريحة: "على الإنسان أن يتجه نحو الاشتراكية أو عليه أن يقبل حقيقة أنه مجرد حيوان".

11

إعادة التفكير في مسألة الحياة: ما فائدة أن نسأل؟

"الأمر الوحيد الذي أندم عليه، هو أنني لم أستطع قراءة كل الكتب التي أتمنى قراءتها"

فرانسواز ساغان

"الكلمات هي وسيلتي لإنجاز رحلتي من الغابة المظلمة إلى السماء السابعة... وكنت في كل مرة كنت أسأل: ما الحياة؟ فيكون الجواب: حل السؤال يكمن في صياغته". كانت هذه العبارة قد كتبها دانتي في مقدمة ملحمته الشهيرة (الكوميديا الإلهية). وأنا طالب في المرحلة المتوسطة، كنت أحاول أن أقفز بخفة فوق الأفكار. أقرأ الكثير من الكتب الصغيرة والمجلات وأوهم نفسي أنني أعرف أشياء مهمة، بالنسبة لفتى مراهق كانت تدور برأسه أسئلة معينة عن معنى الحياة. بعد ذلك قرأت عبارة جميلة لجان جاك روسو عن الحياة يحدد فيها ميزة الإنسان في هذه الحياة بإمكانية التحسن، أو كما أخبرنا تشارلز داروين فيما بعد بقدرته على التطور، وعند روسو إن ميزة الإنسان في قدرته على انتزاع النفس من وضعها الخاص، لكي تبلغ درجة من الكمال.

في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة تسلمه جائزة نوبل عام 2001، يصف

لنا الروائي ف. س. نايبول تجربته في طرح سؤال ما الحياة؟ وكيف اكتشف المنافع التي يمكن أن تحملها القراءة، ليس فقط في تنمية الوعي، ولكن بشكل أعمق في قيادة حياة إنسانية. في هذا النص يروي نايبول قصة طفولته في جزيرة ترينيداد ويأتي على ذكر القيود المرتبطة بحياة الطوائف الصغيرة والمنغلقة: "نحن المهاجرين من الهند كنا نحيا حياة مقيدة بطقوس، ولم نكن بعد قادرين على تقييم أنفسنا وهو أمر ضروري من أجل البدء بالتعلم، في ترينيداد حيث كنا نشكل كوافدين جدد طائفة محرومة، كانت فكرة التهميش هذه نوعًا من الحماية تسمح لنا لفترة وجيزة أن نعيش على طريقتنا الخاصة، ووفق قواعدنا الخاصة. كنا نمرر الأيام. كان العالم الخارجي موجودًا في شكل من أشكال الظلمة، ولم نكن نتساءل عن أي شيء". ويشرح نايبول كيف صارت مناطق الظلمات، تلك منذ أن أصبح قارئًا، أي كل الذي كان موجودًا في الجزيرة والذي لم يكن يراه بسبب انطوائه على نفسه، استطاعت الكتب أن تساعده كإنسان على توسيع الأفق والإطاحة بمناطق الظلمات.

يكتب الفيلسوف الروماني سينيكا أن الحياة الأكثر سعادة هي أن تعيش مع الكتب. آمن الفلاسفة القدماء أن باستطاعة الكتب أن تمدنا بالسعادة، وتتيح لنا التحكم بأهوائنا وتصحيح الأفكار المغلوطة، فالكتاب يقودنا إلى علاقة متوازنة مع الحياة.

في عام 1571، اعتزل المفكر والفيلسوف الفرنسي ميشال دي مونتاني الناس والحياة العامة والنشاط السياسي ملتجئًا إلى مكتبته، كان آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمره، هناك راح يقرأ ويفكر: "ليس ثمة أجمل من القراءة والتفكير، لزيادة معرفتنا، وانتشال أرواحنا من الظلمة".

كان مونتاني يعيش في الريف الفرنسي في بيت أشبه بالقلعة اشتراه جده من عمله في التجارة، في هذا البيت فتح عينيه على مكتبة كبيرة تضم أكثر

من ألف مجلد في الفلسفة والشعر والتاريخ، قرأ وهو شاب صغير ما كتبه أبيقور عن الحياة والحب، واستمتع بمحاورة سقراط عن العدالة، يكتب آلان بوتون في كتابه (عزاءات الفلسفة) أن: "مونتاني في سن الثامنة قرأ كتاب (مسخ الكائنات) لأوفيد، وفي سن السادسة عشرة حفظ (الإلياذة) و (الإنياذة)، وكانت القراءة مصدر تعزيته في عزلته، كانت تريحه ويمكنها في أي وقت أن تخلصه من الرفاق المملين. الالتجاء إلى الكتب هو كل ما كان يحتاج إليه كي يطرد الأفكار الكئيبة".

عندما بلغ برتراند رسل الفيلسوف الإنكليزي المعروف الخامسة عشرة من عمره، وقع تحت تأثير كاتبين، الأول مونتاني والثاني الروسي نيقولاي غوغول، كان أحد أعمامه قد أهدى اليه كتاب (المقالات) لمونتاني، وهو الكتاب الذي تفرغ له مؤلفه أكثر من عشرين عامًا، ولم يكتب غيره طوال حياته، لكنه أصبح واحدًا من المؤلفات الأساسية في الفكر الإنساني، حيث وجد فيه معظم فلاسفة القرن العشرين كتابًا بالغ الأهمية عن حرية الإنسان، تنقل فيه مونتاني بدراية ومعرفة بين موضوعات الحرية والسعادة والصداقة والحب والعدالة والحرب والسلم والتسامح والتربية وفلسفة الطبيعة، ليثبت أن الإنسان حر على رغم كل شيء: "أشياء كثيرة لم أكن مهتمًا بالبوح بها لأي شخص بذاته، أصبحت أبوح بها للجميع، ولمن يود معرفة أشد أفكاري سريةً، بدأت أحيل أعز أصدقائي إلى رف المكتبة".

يكتب رسل أن مونتاني من خلال كتابة المقالات عبّر عن جوهر أفكارنا بوضوح ودقة سيكولوجية لا يمكن مضاهاتها: "إنه يعرفنا أفضل مما نعرف أنفسنا".

أما غوغول فقد أصاب رسل بحالة من القلق عندما انتهى من قراءة (النفوس الميتة)، وكان هذا القلق سببًا في محاولته التعبير عن أفكاره من

خلال الكتابة. ويخبرنا في كتابه (ما وراء المعنى والخيال) أن مثل هذه الكتب لعبت دورًا خطيرًا في تكوينه العقلي، إذ أنها ألهمته ومنحته شجاعة وحرية في التعبير عن خواطره. فضلاً عن أنها طمأنته على سلامة عقله".

كان برتراند رسل في شبابه يهتم بقراءة الرواية والشعر والفلسفة، وفي نفس الوقت كانت تسيطر عليه رغبة كبيرة في فهم العالم عن طريق دراسة الرياضيات والعلوم. وقد سمحت له مكتبة الأسرة بقراءة العديد من الكتب الكلاسيكية، قرأ شكسبير وبيرون وملتون ودانتي، وبهرته موهبة غوغول في السخرية، يكتب في يومياته: "لم يكن إعجابي بقصص غوغول في بادئ الأمر يرجع إلى ما أظهره هذا الكاتب من تمرد اجتماعي وسياسي، بل كان إعجابًا بقدرته على السخرية، جعلته يكشف الزيف والنفاق الاجتماعي، ولأنه رفض الأفكار التقليدية التي لا تستند إلى دليل معقول".

***

"إن الذين يقرؤون فقط هم الأحرار، وذلك لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهما من ألد أعداء الحرية"

توماس جفرسون

في أواخر كانون الأول من سنة 1825، يصل إلى العاصمة الروسية بطرسبورغ شاب في العشرين من عمره صاحب اسم طويل: نيقولاي فاسيليفيش يانوفيسكي غوغول قادمًا من أوكرانيا مخلفًا وراءه أمّه الأرملة وأربع شقيقات. عندما وصل العاصمة ليلاً لم يكن يملك غير كمية قليلة جدًا من النقود، ومجموعة رسائل إلى بعض المعارف لمساعدته، وشهادة دبلوم حصل عليها بعد أن أمضى ثمانية أعوام في مدرسة داخلية، وكان يحتفظ بين ملابسه بمسودة لقصائد كتبها واحتفظ بها لنفسه.

كان سبب وجوده في العاصمة هو الحصول على وظيفة، وقد تحقق له هذا الأمر بعد عام، حيث عين في وزارة العدل، إلا أن خيبة الأمل ظلت تطارده فلم يكمل في الوظيفة سوى خمسة عشر شهرًا، ليقرر التفرغ للأدب، فنشر عام 1827 كتابه الأول وهو عبارة عن قصيدة طويلة بعنوان (هانز كو كلخارتن)، طبعها بعد أن استدان من والدته ثلاثمائة روبل. ولم تحظ القصيدة بالاهتمام، حيث بيعت منها ثلاث نسخ فقط، مما اضطره إلى إحراق النسخ المتبقية، ليقرر بعدها السفر. يكتب في يومياته: "سأترك البيت والوطن وأذهب إلى بلاد أجنبية، وحيدًا حاجًا يبحث عن طريقة للوصول إلى معبد مجهول، ومذبح سري أود تقديم نفسي أضحية له".

يعود من رحلته القصيرة إلى بطرسبورغ ثانية، ليعمل مدرسًا في مدرسة للبنات، بعدها عُين أستاذًا مساعدًا في معهد للتاريخ، قدم خلالها محاضرات عن التاريخ الاجتماعي لأوكرانيا.

بعد عامين من فشل قصيدته الطويلة ينشر مجموعته القصصية (أمسيات قرب قرية ديكانكا) التي نالت نجاحًا كبيرًا، وحين سُئل عن سبب كتابة هذه القصص أجاب بأنه وجد نفسه بحاجة إلى المال بشكل رئيسي، وأنه رأى الكتابة وسيلة لدعم دخله. لكنه يعترف بعد ذلك أن الجانب الأفضل من حياته آنذاك هو تلك الساعات التي كان يقضيها مع شخصياته الخيالية: "وسط بقائي وحيدًا في سانت بطرسبورغ الباردة الكئيبة، كان الاسترسال في إعادة خلق أرض أوكرانيا الغنية التي تستحم بالشمس، وتصوير الفلاحين الكسالى، ينسجم مع حاجات روحية، كنت معرضًا لنوبات انقباض لم أكن قادرًا على تفسيرها حتى لنفسي والتي ربما كانت ناجمة في الأساس عن سوء حالتي الصحية. ولكي أصرف تفكيري عن هذا الوضع أخذت أتخيل كل أنماط القصص الهزلية التي يمكن تخيلها".

يكتب لأمه في شباط عام 1832: "عنوني رسائلك إليّ في المستقبل باسم غوغول فقط، إذ أن الجزء الثاني من اسم عائلتنا ضاع في مكان ما على الطريق".

بعد أربع سنوات تُقدم له مسرحيته الشهيرة (المفتش العام)، والتي ما تزال تعد أعظم كوميديا كتبت بالروسية، لم تترك خشبات المسارح منذ تقديمها للمرة الأولى عام 1936 وحتى أيامنا هذه. يُخبِر الشاعر بوشكين بأنه سيكرس نفسه لعمل كبير يخلده: "نفوس ميتة موضوع مثالي يناسبني لأنه سيمكنني من السفر مع بطلي في أرجاء روسيا طولاً وعرضًا، وابتداع عدد هائل من الشخصيات".

كتب الفصول الثلاثة الأولى من الرواية قبل تركه روسيا، حيث سافر ومعه المخطوطة إلى ألمانيا وجنيف ثم باريس وروما، في رحلة اعتبرها هو بمثابة النفي الطوعي عن البلاد. عام 1842 نشرت (النفوس الميتة)، وكان غوغول في الثالثة والثلاثين من عمره. في تلك السنوات سيطرت عليه فكرة أنه مكلف بإبلاغ رسالة إلى الشعب الروسي هدفها إعادة بناء الكيان الأخلاقي لروسيا بأسرها، وأن يكشف للقارئ طبيعة الإنسان الروسي في مجمله، الإنسان الروسي في مزاياه وضروب تراثه الأخلاقي.

بطل (النفوس الميتة) تشيتشيكوف نسخة ثانية من الشيطان نفسه. فهو تاجر يقرر ذات يوم أن يتحول من مالك أراضٍ إلى مشترٍ لجثث أرقاء من أهلها. لماذا؟ لأنه يريد أن يستفيد من إجراء رسمي يتيح له أن يقترض من المصارف أموالاً يكون حجمها على عدد ما عنده من أرقاء. لذلك فإن ما يشتريه إنما هم الأرقاء الذين ماتوا ودفنهم أسيادهم، من دون أن يسجَّلوا في الإحصاءات الرسمية. بالنسبة إلى الدولة هؤلاء الأرقاء لا يزالون أحياء. لذا ليس عليه إلا أن يراكم جثثهم، ويقدم البيانات إلى الدولة فيحصل على

الأموال التي يريدها.

يقدم لنا غوغول صورة للمحتال الذي لا يتوقف عن خداع الناس، إنه شيطان وإنسان في آن معًا، فتشيشيكوف كما نتعرف عليه في الرواية: "ليس وسيمًا ولا هو قبيح، ليس بدينًا ولا هو نحيل، لا يمكن للمرء أن يسميه عجوزًا، ولكنه ليس في مقتبل الشباب". بزيادة مخزونه من الجثث يزدهر تفاؤل تشيشيكوف بالثروة. ونراه يقرر أن يأخذ كل هذه الأشباح من الجثث التي أصبحت ملكًا له إلى بقعة في الصحراء يشتريها بمبلغ ضئيل من المال وسيطلق على قريته غير الموجودة في الواقع اسم "تشييشيكوفا"، وهو واثق بأنه لن يواجه صعوبة في رهن قطعة الأرض هذه لدى أحد البنوك، وبذلك يحصد الثروة.

يكتب غوغول في الفصل الأول من الرواية أن تشيشيكوف يحلم بحياة مرفهة، عربات، خيول، بيت كبير وخدم، مآدب فاخرة، إنه يسعى إلى تذوق الثروة، ولهذا نجده ينفي وجود خير مطلق أو شر مطلق، وهو لا يتردد لحظة واحدة في التفوه بأية كذبة ما دامت تخدم مصالحه، ونراه يفكر طوال اليوم بالمال: "ماذا سيقول أبنائي عني؟ سيقولون أبونا الخنزير لم يترك لنا مالاً قط". هكذا يبرر تشيشيكوف حصوله على النفوس الميتة.

يكتب هنري ترويا في كتابه (سيرة نفوس ممزقة) أن رواية غوغول: "كتاب عصي على تحديد هويته وتصنيفه على رف معين في مكتبة ما. فتحت هالته الشريرة يمارس الكتاب سلطته من منزلة عليا في الأدب فيما بين دون كيشوت والكوميديا الإلهية". ما أن صدرت (النفوس الميتة) حتى كتب عنها الناقد الشهير بيلنسكي باعتبارها عملاً فنيًا خالدًا: "غوغول، بإبداعه هذا العمل الأدبي، قد خطا خطوة عظيمة لدرجة أن كل ما كتب وأبدع قبله يبدو هزيلاً وباهتًا بالمقارنة مع هذا المؤلف".

ما أن انتهى غوغول من نشر الجزء الأول حتى يستعد لكتابة الجزء الثاني، وقد كتب هذا الجزء وهو يعاني من أزمة نفسية بسبب التغيرات التي يراها تمر في المجتمع الروسي. ولهذا يحاول في الجزء الجديد أن يقدم للقراء أحد ملاك الأرض الطيبين، هدفه ليس الحصول على الثروة وإنما الاهتمام بالفلاحين وبرفاهية البلاد الروسية، ويتراجع غوغول عن نقد الطبقة الاقطاعية ويجد المقربون منه أنه وقع في ظلمات الغيبيات ومتاهاتها. ويكتب الناقد الشهير تشيرنيفيسكي: "إن غوغول استطاع رغمًا عن كل حالات الضياع في السنوات الأخيرة الاحتفاظ بجانب كبير من احتجاجه ومن حقده على مجتمع الظلم والاستبداد".

وتحت تأثير النقد يُقدم غوغول على حرق ما كتبه، ثم يعود ثانية للكتابة ليبلغ المقربين منه عام 1850 أنه أنهى المجلد الثاني من الرواية، لكن قبل عشرة أيام من وفاته وفي ليلة الثاني عشر من شباط عام 1852 أحرق هذه النسخة الجديدة أيضًا. ولم يجدوا بعد وفاته سوى خمسة فصول مخطوطة.

في الرابع من آذار عام 1852 يتوفى غوغول ويكتب تورجنيف في رثائه: "غوغول مات، فأي روح روسية لم تصدمها هاتان الكلمتان. خسارتنا قاسية ومؤلمة ومفاجئة جدًا بحيث إننا لا نستطيع تقبلها بعد. لقد مات ذلك الرجل الذي أطلق اسمه على هذه الحقبة من تاريخ أدبنا".

***

يوجد الفيلسوف ليطرح الأسئلة. هكذا وضع سقراط تعريفًا للفلسفة، والفيلسوف يؤدي وظيفته بشكل أفضل كلما ازداد عدد الأسئلة التي تشغل أذهان الناس.

في سيرة برتراند رسل يكتب آلان وود إن: "رسل بدأ يسأل الأسئلة

النفاذة بمجرد أن تعلم الكلام"، وتكتب أمه بعد مولده بثلاثة أيام: "إنه يرفع رأسه عاليًا ويتلفت حوله بطريقة نشيطة للغاية".

ولد برتراند رسل في 18 أيار عام 1872، ونراه يؤكد في سيرته الذاتية أنه ولد لكي يسأل عن معنى الحياة. ويضيف أنه ما أن بلغ العاشرة من عمره حتى كانت كتب الفلسفة هي المفضلة لديه، فمن خلالها أراد أن يعرف قيمة أن يمتاز الإنسان بالعقل، وأهمية التنوع داخل المجتمع، ورفض الاعتقاد بأسلوب واحد للحياة. ويذهب بعيدًا في إعلاء شأن العقل ودوره في تحقيق السعادة والرفاهية للإنسان فيكتب في كتابه (انتصار السعادة) بأن الأفراد الذين يطورون من قدراتهم، يصبحون على فهم صحيح. وحتى يتطور الأفراد فإنهم يحتاجون إلى الحقيقة، وحتى يحققوا ذلك التطور أيضًا، يجب ألا يكونوا مستقبلين طيعين لما يردُ إليهم من الناس ويعتبرون أنه الأفضل بالنسبة لهم، ويجب عليهم ألا ينقادوا وراء ما يقوله الآخرون لهم، ويجب أن تتوفر للناس حرية اعتراض بعضهم على بعض بشأن كيفية العيش بالأسلوب الأفضل، وليس بإجبار بعضهم بعضًا على العيش بطريقة معينة.

أصبح برتراند رسل الممثل الحقيقي لكلمة "فيلسوف" في القرن العشرين، وبدا له دور الفيلسوف مناسبًا، بشعره الأبيض وملامحه الجادّة، والغليون الذي لم يفارقه. كان أول من قدم محاضرة إذاعية عن الفلسفة عام 1949، وأصبح كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، بدأ حياته بكتاب (الديمقراطية الاجتماعية) وانتهى بجرائم الحرب على فيتنام. هو أول فيلسوف يمنح جائزة نوبل، وفي العام 1961 وفي عمر التسعين تَحمل السجن بسبب دعوته للاحتجاج ضد الحروب. كان يدعي أنه مقاد بـ: "مشاعر ثلاثة بسيطة، لكنها قوية غامرة: التوق إلى الحب، البحث عن المعرفة، والشفقة التي لا تطاق لمعاناة الأنسان"، قادته كتاباته الواسعة بشكل كبير إلى أن يطلق عليه لقب "فولتير القرن العشرين".

كان عمله الأول الذي أسس له مكانة كفيلسوف اجتماعي كتابه (عبادة الإنسان الحر) الذي كتبه عام 1902. ويهدف الكتاب إلى تأمين عزاء مقبول وعقلاني لغير المتدينين، إلا أن كتابه الذي وضعه على كرسي الفيلسوف هو (مشاكل الفلاسفة)، الذي يبدأ بسؤال على الشكل التالي: "هل هناك أية معرفة تكون مؤكدة بشكل لا يستطيع إنسان منطقي أن يشكك بها؟"، هذا السؤال الذي لا يبدو صعبًا للوهلة الأولى، هو بالفعل واحد من أصعب الاسئلة التي يمكن أن تُسأل. لقد تمكن رسل من خلال هذا الكتاب الصغير أن يقدم لنا الدافع الحقيقي وراء اشتغاله بالفلسفة، كما جعله أول فيلسوف تُقرأ كتبه مثلما تُقرأ الروايات ودواوين الشعر، ويُنزل الفلسفة من عرشها ليجعلها تتجول في الأسواق العامة.

يخبرنا رسل أن الحافز الأساس الذي دفعه إلى الفلسفة هو اكتشاف ما إذا كان من الممكن معرفة أي شيء معرفة يقينية. وقد راوده هذا الطموح بسبب أزمتين فكريتين: فقدانه الإيمان الديني، وخيبة أمله في الاضطرار إلى تقبل البديهيات كأساس للرياضيات. ولهذا نراه يتجه إلى المشكلات الفلسفية العامة، وكان يأمل من خلال الفلسفة أن يجد حلولاً لأزمة الإنسان المعاصر، وراح يعود إلى معظم المشكلات الإنسانية الواحدة بعد الأخرى ساعيًا إلى تطوير آرائه من خلال الأساليب التحليلية المستمدة من عمله في فلسفة الرياضيات والمنطق، والتي أسهم من خلالها إسهامًا كبيرًا في المناقشات التي دارت حول المعرفة والأخلاق والسياسة والدين والتعليم وقضايا الحرب والسلام، وكان يرى أن الفلسفة فرع فني من فروع المعرفة.

توفي برتراند رسل عام 1970، ولا تزال مؤلفاته تحتل اليوم مكانة هامة ضمن مغامرة العقل البشري في البحث عن الحقيقة، وطرح السؤال المهم عن معنى الحياة.

12

عندما تولد حياة مضيئة من رماد الشر والحروب

"من بين العوالم العديدة التي لم يتلقاها الإنسان من الطبيعة، ولكن خلقها في عقله، عالم الكتاب هو الأعظم، بدون الكلمات ولا كتابة الكتب لم يكن ليوجد تاريخ ولا حتى مفهوم الإنسانية. إن أراد أحدٌ ما أن يجمع تاريخ الروح الإنسانية في مساحة صغيرة، في بيتٍ واحد، أو في غرفة واحدة، لتكون له وحده.. يمكنه فقط أن يجمعها على هيئة مجموعة من الكتب"

هرمان هيسه

في عصر أحد الأيام دخل إلى المكتبة التي أعمل بها الروائي عبدالرحمن منيف بصحبة الناقد ماجد السامرائي، وعلى الرغم من أنه كاتب مشهور، إلا أنه أصر أن يعرفني بنفسه، كنت قد قرأت له (الأشجار واغتيال مرزوق) و (شرق المتوسط)، وكانت الروايتان قد صدرتا ضمن منشورات وزارة الثقافة العراقية. قال لي ماجد السامرائي إن منيف يبحث عن كتاب بعنوان (فاوست كما أراه)، أخبرته بوجوده وذهبت لإحضاره وأنا أشعر بالسعادة لأنني تمكنت من تلبية طلب روائي وكاتب مهم، ناولته الكتاب وما أن نظر إلى العنوان حتى ابتسم وهو يقول: "الذي أبحث عنه هو مسرحية كتبها شاعر فرنسي اسمه بول فاليري".

كنت قبل أكثر من عام حاولت أقرأ (فاوست) لغوته بترجمة محمد عوض محمد، ولم أستطع المضي فيها، فقد كنت أتوقع أنها رواية على غرار روايته الشهيرة (آلام فرتر) التي سحرتني منذ السطور الأولى، ووجدت عبد الرحمن منيف يقطع علي تأملاتي قائلاً: "يبدو أنك لا تعرف أن فاوست كتبها أدباء كثيرون قبل غوته وبعده". وبدأ يعدد بعض الكتب والأسماء: بول فاليري، مارلو، توماس مان، فاغنر. أسماء البعض منها أسمع به للمرة الأولى، قلت له إنني قضيت أسبوعًا أحاول أن أقرأ (فاوست) لكنني لم أفهم منها شيئًا، باستثناء المقدمة التي كتبها طه حسين، وأخذت أقرأ له مقطعًا من مقدمة الكتاب الذي في يدي حيث يقول طه حسين: "الكتابة عن غوته كثيرة جدًا ولا تكاد توصف، متشعبة تشعبًا ليس من اليسير أن نحيط به، قوم يكتبون عنه طفلاً، وآخرون يكتبون عنه شابًا، وقوم يكتبون عنه فيلسوفًا، وهؤلاء يَعنون بفاوست الأول وأولئك يَعنون بفاوست الثاني، وآخرون يَعنون بفرتر، وقوم يعنون بقصصه التمثيلية". ابتسم عبد الرحمن منيف وهو يقول: "بالمناسبة الكتاب الذي في يدك هو الجزء الأول فقط من (فاوست) فهناك جزء ثان، وأنصحك بقراءة ترجمة عبد الرحمن بدوي فهي ترجمة متميزة ورشيقة".

أثناء عملي في المكتبة أيقنت جيدًا أن كلمات الزبائن، وخصوصًا الذين يَشتغلون في مجال التأليف، تساعدني كثيرًا على اختيار الكتب الجيدة، والبحث عن الأسماء التي أسمع بها للمرة الأولى. في تلك الأيام كنت أعتقد أنني أستطيع الإجابة عن أي سؤال عن الكتب، وكان هذا الغرور دائمًا ما يضعني في مواقف محرجة، مثلما وجدت نفسي أمام عبد الرحمن منيف وهو يردد على مسامعي عناوين لكتب وأسماء تَطرقُ سمعي للمرة الأولى. قال لي عبد الرحمن منيف وهو ينهض: "حاول أن تجعل من القراءة واقعًا تعيشه،

الكتب كثيرة"، وأشار إلى رفوف المكتبة، ثم أضاف: "ضع قائمة خاصة بقراءاتك، لا تقرأ من أجل المتعة فقط رغم أهميتها، اقرأ من أجل أن تعيش أكثر من حياة"، ثم قال وهو يصافحني: "لا تنسى.. اقرأ (فاوست) حتى وإن شعرت بالملل، دع الكتاب يقوم بالمهمة.. لا يعني شيئًا للقارئ إن لم يَفهم بعض الصفحات، يكفي أنه يشعر بالحماس لإتمامه".

لقد كانت كلمات منيف مدهشة وصادمة لدرجة لم أستطع إلا أن أقول له إنني سأعتبر نصيحته دليلاً في القراءة.

في تلك الفترة كنت بدأت بقراءة بعض الكتب، ولكني لم أستطع إنهاءها. فقد توقفت عن إكمال (اعترافات) جان جاك روسو حيث شعرت بالضجر. وإذا سألني أحد آنذاك ماذا تحب، كنت أجيب كتب سلامة موسى لأنها سهلة وبسيطة وأفكارها واضحة، بعض كتب طه حسين، ملخصات الكتب التي كانت تنشرها سلسلة (كتابي)، ولطالما اعتبرت نفسي عاشقًا لتوفيق الحكيم. لكن بعد نصيحة عبد الرحمن منيف الثمينة، بدا لي أمر حتمي أن أعيد قراءة بعض الكتب.

كان أرسطو يردد بأن القراءة توقظ داخل القارئ ما لا يعرفه سابقًا في الحياة. عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري اقتنيت نسخة من رواية (آلام فرتر) بترجمة أحمد حسن الزيات، وجدت الرواية مسلية برغم كمية الحزن والأسى التي تتناثر بين سطورها، والمعروف أن هذه الرواية كتبها غوته للخلاص من محنة حب فاشل لشارلوت بوف التي كانت مخطوبة لأحد أصدقائه، إلا أن جورج لوكاش وهو يكتب عن الرواية في كتابه (غوته وعصره) يؤكد أن (آلام فرتر) كانت أصدق تعبير عن البؤس الألماني والتخلف الاجتماعي الذي عانى منه المجتمع الألماني في ذلك الوقت. فآلام فرتر حسب لوكاش هي محاولة للتعبير عن نزعة ثورية طالبت بالتحرر للفرد

الألماني في صراعه مع المجتمع: "إن فرتر قد جسد في ذاته جدل الصراع المحتدم بين الشخصية الإنسانية والمجتمع المتخلف الذي يعوق تطورها واكتمالها".

ولد جوهان فولفانج غوته في فرانكفورت في الثامن والعشرين من آب عام 1749، والده محام صارم في تربية أبنائه، أصر أن يتعلم ابنه اللاتينية والعبرية والفرنسية والإنكليزية وهو صغير، وطلب منه أن يكتب مقالات وينظم الشعر، ويقرأ كتبًا في الفلسفة والفنون. هذه الحياة التي ارتبطت بالكتاب نجده صداها في شخصية فاوست الذي دائمًا ما يعقد مقارنة بين مغامراته مع الكتب وحكاياته مع النساء. يدرس غوته القانون في كلية ستراسبورج لكنه لا يعمل في سلك القضاء مثلما تمنى والده، فقد انصرف للكتابة، ليصبح بعد سنوات واحدًا من أهم أدباء ألمانيا يحظى بالتكريم والاهتمام حتى وفاته عام 1832.

عام 1774 صدرت الطبعة الأولى من رواية (آلام فرتر). كان غوته في الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن يتصور أن تلك الصفحات الحزينة التي كتبها عن تجربته مع العشق يمكن أن يتخاطفها الناس، ويصبح الشاب فرتر بوجهه الحزين والكتاب بين يديه نموذجًا لجيل بأكمله، وشهيدًا من شهداء الحب. كان هذا أول كتاب يصدره غوته، لكنه وضعه في المقدمة من أدباء ألمانيا وأصبحت (آلام فرتر) بداية لعصر جديد في الأدب سمي "عصر الرومانسية".

كان غوته قد فكر في بداية الأمر أن يكتب مسرحية عن آلام الشاب فرتر، لكنه في النهاية استقر على رواية تروي بعضًا من سيرة حياته، فبطل الرواية لا يتجاوز عمره الثالثة والعشرين، وبطلة الرواية لوت، هي تجسيد لشارلوت بوف التي تَعرّف عليها في تلك السنوات. ويخبرنا كُتاب سيرة غوته أنه في

تلك الفترة كان يائسًا وفكر في الانتحار، وعندما عجز عن تنفيذ ذلك، نفذه على الورق حيث نجد بطل الرواية بعد أن يفقد الأمل في الحصول على محبوبته، يكتب رسالة وداع أخيرة يقرر فيها الانتحار، وقد حملت سيرة حياة غوته حكاية حب تقترب بشكل تام مع حكاية حب فرتر.

يكتب جورج لوكاش أن غوته في هذه الرواية كان واحدًا من أجرأ الكتاب الذين سلطوا الضوء على حياتهم الخاصة.

***

منذ أن تَعثرتُ في قراءة (فاوست) غوته، وبعد نصائح عبد الرحمن منيف، التي لن أنسى تأثيرها، بدأت في البحث عن كل ما يتعلق بفاوست، وكنت محظوظًا لأنني أعمل في مكتبة توفر لي الكثير مما أنوي قراءته، ولذا عندما أعدت قراءة (فاوست) بعد سنوات وبترجمة عبد الرحمن بدوي حوّلت الأمر إلى قضية شخصية. وكان الخيار الجديد هو أن أبحث عن أصل حكاية فاوست.

تختلف الحكايات والروايات عن حقيقة وجود شخصية باسم فاوست، فبعض الدراسات تثبت أن شخصية فاوست مستمدة من رجل كان يعيش في إحدى المقاطعات الألمانية، اسمه يوهان فاوست اشتهر باعتباره ساحرًا ومحضرًا للأرواح، ونقل عنه أنه كان يقيم علاقة صداقة مع شبح ادعى أنه الشيطان. وقد صدر عنه عام 1587 لمؤلف مجهول أول كتاب تحت عنوان (تاريخ الدكتور يوهان فاوست)، وفيه يروي المؤلف مغامراته وكيف وهب نفسه للشيطان والنهاية التي انتهى إليها منبوذًا. بعد عام من صدور هذا الكتاب تظهر مسرحية للكاتب الإنكليزي كريستوفر مارلو بعنوان (مأساة الدكتور فاوستس) وقد تعرف مارلو على قصة فاوست من خلال ترجمة إنكليزية للحكاية، حيث وجد فيها مادة مناسبة لطرح أفكاره الفلسفية.

كان مارلو قد درس اللاهوت والفلسفة ونال شهادة الماجستير، ولهذا نجده في فاوست يحاول من خلال الفكر والفن أن يتوصل إلى الحقيقة. وقد تأثر مارلو بكتاب (الأمير) لميكافيللي، ولهذا يكتب في مقدمة المسرحية: "دعهم يعلمون أنني أدين بما كان يدين به ميكافيللي ولست أقيم وزنًا للناس، ولهذا لا أهتم بما يقولون"، فالاستحواذ على القوة هو هدف فاوست في مسرحية مارلو، والصراع في المسرحية يتجلى في ذلك القلق النفسي الذي يعيشه فاوست، فهو لا يريد سوى العِلم الذي يستطيع من خلاله السيطرة على العالم، ومن أجل ذلك تتنازعه قوتان: الخير والشر. وهو نزاع يحدث داخل نفس فاوست ينتهي بأن يخضع الخير لقوة الشر التي تبين لفاوست بأنه سيصبح سيدًا لهذا العالم، ويحاول أن يستبدل السحر بالفلسفة والقانون. لقد بهرته شخصية الثائر المتمرد والباحث الذي لا يعرف الهدوء والسكينة. ولهذا نجد مارلو يجعل من فاوست أشبه بثائر يضيق بالكتب ويتطلع إلى المعرفة التي تأتي من خلال تجارب الحياة، ولأنه يريد كل شيء يتعاقد مع الشيطان الذي يطوف به أنحاء العالم، ورغم كل ما يحققه إلا أن ضميره لا يدعه يفرح بهذا الانتصار، فنسمعه يردد مع نفسه: "إني عندما أشاهد السماوات أشعر بالندم أيها الشيطان الخبيث". لتنتهي حكايته بانتهاء عقده مع الشيطان الذي يقوده إلى الجحيم. ونجد فاوست الذي قال في بداية المسرحية إنه لو كانت له أرواح بعدد نجوم السماء لأعطاها كلها للشيطان، وهو يخاطب نفسه في لحظاته الأخيرة، وكأنه متهم يواجه تنفيذ الحكم:

آه يا فاوست

لم تعد أمامك الآن من حياتك إلا ساعة يتيمة تعيشها

وبعدها عليك أن تواجه اللعنة الأبدية.

تبدأ مسرحية (فاوست) لغوته بمشهد تدور أحداثه في السماء، يطلب

فيه مفيستوفيلس "الشيطان" من الإله أن يمنحه الإذن لكي يوقع عقدًا مع فاوست يشتري من خلالها روحه، فيمنحه الإله ذلك الإذن. غوته يريد أن يؤكد أن الإنسان مهما كان طموحًا، محبًا للمعرفة والمتعة والسلطة، فإن فيه غريزة لن تخذله أبدًا، وسترشده في النهاية إلى الطريق الصحيح.

بدا غوته بكتابة (فاوست) عام 1771، قبل أن ينشر (آلام فرتر) حين كان في الثانية والعشرين من عمره، لكنه لم يكملها واستمر في كتابتها بشكل متقطع حتى أنجزها عام 1831، قبل عام من وفاته، لم تظهر بشكل كامل إلا بعد موته بست سنوات. ولهذا اعتبر العمل أشبه بوصية فلسفية وفكرية عكس فيها غوته التحولات الجذرية التي غيّرت المجتمع الألماني والعالم بأسره. ومثلما يكتب لوكاش لم تكن فاوست مجرد تشخيص لمصير غوته الشخصي وإنما كانت: "تطويرًا مستقلاً متميزًا للوعي الذاتي القومي، بل للوعي الذاتي للبشرية". ونجد هذا المعنى في نشيد البداية حيث يخبرنا فاوست:

أود أن أتمثل في أعماق قلبي

ما قدر للبشرية جمعاء

أن أدرك بعقلي أسمى الأشياء في نظرهم وأعمقها،

وأجمع في قلبي سعادتهم وشقاءهم

وبذلك أصل ما بين كياني وكيانهم

وأتحطم في النهاية كما يتحطمون.

تبدأ أحداث المسرحية باتفاق يتنازل فيه فاوست عن روحه لمفيستوفيلس مقابل أن يمنحه لحظة واحدة من الفرح والانتصار. في بداية القسم الأول حاول فاوست إغواء الفتاة مرغريت بمساعدة مفيستوفيلس، حيث تنتهي

قصة الحب هذه بكارثة شبيهة بما حدث لبطل (آلام فرتر)، إذ يقتل فاوست شقيقها، فتفقد مرغريت عقلها وتموت.

أما القسم الثاني فيدور حول قصة حب أخرى بين فاوست وهيلين التي يستحضرها من عالم الأموات بمساعدة مفيستوفيلس وتكون ثمرة ذلك الحب الطفل يوفورين الذي سرعان ما يتبخر في الهواء كالدخان، والموضوع الرئيسي في هذا الجزء هو حب فاوست وهيلين الذي يجري في جو من المغامرات، وتبلغ ذروته حين يحاول مفيستوفيلس أن يجرّ فاوست معه إلى الجحيم رغم إنه لم يحصل على لحظة فرح حقيقية، ليدرك في النهاية أن الفرح الحقيقي ليس في السيطرة على الآخرين والبحث عن القوة والسلطة، وإنما في مساعدة الناس، عندها يتخلص فاوست من وساوس الشيطان وينتصر عليه. وهكذا نجد غوته يؤمن بأن لولا الشر ولولا تضحية هيلين ما كان في إمكان فاوست أن يحقق حلمه النهضوي، وأن يعطي إنسان العصور الجديدة مكانته، وشكه الإنساني في الخلاص من جميع الشرور.

نجحت مسرحية (فاوست) التي أطلق عليها اسم "إلياذة العصور الحديثة" أن تلخص لنا من خلال مسيرة فاوست من السقوط والبؤس إلى الارتفاع والخلاص، مسيرة البشرية ذاتها وهذا ما جعل النقاد يعتبرون عمل غوته هذا عملاً أدبيًا وفنيًا لا يقاس به أي عمل آخر تناول شخصية فاوست. وهو الأمر الذي جعل جورج لوكاش يعقد مقارنة بين (فاوست) غوته و (ظاهريات الروح) لهيغل، والذي انتهى منه بنفس الوقت الذي انتهى فيه غوته من كتابة القسم الأول من فاوست، ونقرأ في سيرة الفيلسوف الألماني الشهير أنه كان يحتفظ بمخطوط (ظاهريات الروح) في جيب معطفه أينما يذهب، وأنه طلب مساعدة صديقه غوته ليقنع أحد الناشرين بطباعته، لكنه لم يجد إقبالاً من القراء حيث وجدوا صعوبة في حل ألغازه، ونراه يخبر غوته أن

لا أحد يريد أن يفهمه. وإذا كانت (فاوست) تلخص حياة الإنسان وتجارب مصير البشرية، فإن (ظاهريات) هيغل تشرح لنا تطور الوعي الفردي خلال مراحله المختلفة، منظورًا إليه كتلخيص للمراحل التي قطعها وعي الإنسان في مجرى التاريخ. وإذا كان هيغل قد نظر إلى التطور التاريخي بوصفه عمل الإنسان نفسه وأدرك أن الإنسان يخلق نفسه من خلال عمله الخاص، فإن هذا على وجه التحديد هو الصيغة الفلسفية لفاوست.. الإنسان الذي يخلق مصيره من خلال عمله الخاص.

في العام 1932 يلقي الشاعر الفرنسي بول فاليري كلمة في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة مئة عام على رحيل غوته، وفي هذا الخطاب يتحدث فاليري عن فاوست وغوته على أنهما شخص واحد: "وأول ما ينبغي أن تعرفه عن فاوست هو قلقه الخالص والشك الدائم، وهي الصفات التي لازمت غوته طوال حياته". بعد هذا الخطاب بثماني سنوات ينشر بول فاليري عمله المسرحي (فاوست كما أراه)، ويكتب في مقدمة المسرحية: "وجدتني ذات يوم من عام 1940 أتحدث مشدوهًا بلسانين وأجأر مضطربًا بصوتين، ثم رحت أخط على الورق ما كان يوحي إلي به غوته".

يصور لنا فاليري فاوست شيخًا طاعنًا في السن نشاهده في المشهد الأول يملي مذكراته على الشابة لوست، ولكن أثناء كتابة المذكرات يظهر صديقه بيير دوكس رجل الدين الشاب الذي يذكرنا بشخصية مفيستوفيلس "الشيطان" الذي يدس في المذكرات ورقة تثير شهوة فاوست، ويحس فجأة بأنه في شوق لاحتضان لوست، حيث يشعر فاوست أنه بحاجة إلى مساعدة الشيطان دوكس ويتفق الاثنان على أن يوقعا عقدًا يتنازل فيه أحدهما للآخر عن وجوده، وفي بيت فاوست يحاول دوكس أن يقنع لوست بإقامة علاقة مع أحد تلامذة فاوست لتتمتع بشبابها بعيدًا عن العجوز فاوست، لكنها

ترفض العرض فهي تحب الأستاذ ليس لجسده وقدرته الجنسية وإنما لعلمه وفكره. في عمل بول فاليري نجد الشيطان ضعيفًا ولا يملك القدرة على التلاعب بمصائر الناس، ويؤكد فاليري أن شيطان العصر الحديث بإمكان أي إنسان أن يتسلى معه، وهو عاجز على الانتصار على البشر الذي تحولوا هم إلى شياطين هدفهم أن يعيشوا مجرد حياة وحسب، ولا يهمهم بعد ذلك أي اتجاه من الحياة يجب أن يعيشوا.

***

عندما بلغ توماس مان الثالثة عشرة من عمره عثر في مكتبة والده على نسخة قديمة من كتاب (فاوست) المطبوع عام 1587، سحرته الحكاية، بعدها قرأ ما كتبه غوته، فقرر أن يؤلف رواية يعطي فيها وجهة نظر إنسان القرن العشرين لشخصية فاوست، ستكون الرواية بعنوان (دكتور فاوستوس)، تصدر عام 1947. كان توماس مان في تلك السنوات يعيش منفيًا في أميركا وأراد أن يقدم للعالم شهادته عما جرى خلال الحربيين العالميين اللتين حصدتا أرواح الملايين، يكتب في يومياته: "في هذه الرواية أريد أن أقدم بطلاً من زماننا، شخصية تراجيدية، مأساة متنقلة وقوة الشر في عينيه، وقد باتت تحمل آلام العصر وشروره"، لكننا في رواية توماس مان لا نعثر على فاوست وإنما على خليفة له اسمه أدريان ليفركون، وهو خليط بين شخصية فاوست في الحكاية الشعبية، وشخصية الفيلسوف نيتشه الذي كان له الأثر الكبير في توماس مان. تتناول الرواية الفترة ما بين عام 1885 السنة التي نشر فيها كتاب نيتشه الشهير (هكذا تكلم زرادشت)، وتنتهي عام 1945 حيث توقفت الحرب العالمية الثانية باندحار ألمانيا، وكان توماس مان يعتقد أن هذه الفترة كان المجتمع الألماني فيها مريضًا، خسرت ألمانيا حربين عالميتين. ويشبه توماس مان ما حصل في ألمانيا بما حدث لبطل

روايته الموسيقار أدريان ليفركون، إذ أغواه الشيطان ليأخذه إلى طريق الهلاك مثلما جر حكام ألمانيا البلاد إلى الموت والدمار والحروب، حيث نجد الراوي وهو أستاذ متقاعد معجب إلى حد التقديس بشخصية الموسيقي أدريان ليفركون، وهو نوع من عبادة الشخصية الألمانية، فأدريان برغم تفوقه العقلي يقع ضحية الشيطان الذي يمثل الشر، إنه الدكتور فاوستوس وهو يمثل الشر المطلق الذي يقول عنه توماس مان إنه لا بد منه: "فالعبقرية الخلاقة لا يمكنها أبدًا أن تزهر من دون تواطؤ جهنم معها. فالخير لا يصنع إبداعًا".

ويخاطب توماس مان في الرواية معلمه نيتشه في سطور تلخص لنا فكرة الرواية: "إننا لانخلق من العدم شيئًا جديدًا، فذلك من شأن الآخرين، إننا نفرّج عن أنفسنا فقط، ونطلق الحرية. إننا ندع الشعور بوطأة النفس والشكوك وسواها تذهب إلى الشيطان، فعليك أنت أن تمهد السبيل، فاضرب في الأرض وشق الطريق إلى المستقبل، فإذا الصبية يتبعونك، فهم ليسوا بحاجة إلى الجنون ليفعلوا ذلك، فجنونك أنت كفاهم شر الجنون، فعلى جنونك يعيشون أصحاء، وعلى أكتافهم تعيش أنت صحيحًا، أفهمت؟ فإنك لن تشق لنفسك الطريق وسط صعاب الزمن، بل إنك تشق الطريق وسط الزمان نفسه".

في فاوست غوته كما في فاوست فاليري ومن بعده توماس مان، نحن إزاء بطل لا يرضى بما وصل إليه من معرفة وعلم، وكما أن فاوست غوته كان عليه أن يُسلم نفسه للشيطان، فإن فاوست مان يضحى بكل وجوده من أجل الإلهام الشيطاني، وبينما ينقذ الحب فاوست غوته، فإن العلاقة مع المرأة تحرم بطل توماس مان من لذه الإحساس بالحب. فاوست غوته ترمز لمصير البشرية، بينما فاوست توماس مان تشير إلى محنة الشعب الألماني الذي سلّم نفسه لشعارات النازية: "ألمانيا فوق الجميع"، وكان مصير البلاد في النهاية الدمار، مثل بطل الرواية.

13

كيف يمكننا أن نرى ذاكرتنا مسطرةً على الورق؟

"الكتب ليست أكوام من الورق الميت.. إنها عقول تعيش على الأرفف"

غيلبرتهايت

إن تاريخ الورق يرجع إلى أكثر من ألفين من السنين. وفي الألف الأخيرة من تاريخ البشرية أصبح الورق جزءًا من حياتنا. ربما لا يسأل أحد منا ما هي هذه الورقة التي نقرأ فيها، إنها أمامنا شيئًا مستويًا أملس، ولكن هل هذه خدعة؟ قرأت مرة في كتاب جميل بعنوان (المادة في حياتنا) إن هذه الورقة الملساء ما هي إلا عبارة عن تل من ألياف متناهية الدقة تشبه حزمة قش. لا يمكننا الشعور ببنيتها المعقدة لأنها هُندست على نطاق مجهري يتخطى حاسة اللمس أحيانًا، أصبح الورق وسيلتنا لإنجاز رحلة إلى عوالم جديدة. والكتابة على الورق هي فن تجسيد الأفكار والرؤى والتخيلات. يؤكد ألبرتو مانغويل أن الكتابة تنتمي إلى مجموعة فنون الاستحضار المتعلقة بتصوير الأفكار والمشاعر ونقلها. وذات مرة سُأل أينشتاين وكان منهمكًا في الكتابة: "ماذا تفعل؟" فأجاب: "أحاول استكشاف العالم وتأمله في حيز صغير اسمه الورقة". في يومياتها تقدم لنا الروائية التشيلية إيزابيل الليندي سردًا تفصيليًا لعلاقتها بالورق: "في الثامن من كانون الثاني عام 1981 تغيّر

قدري، إذ تلقينا في ذلك التاريخ مكالمة هاتفية ونحن في كاركاس، أخبرتنا بأن جدي يحتضر. لم أتمكن من العودة إلى تشيلي لتوديعه، لذلك عمدت في المساء إلى وضع مجموعة من الأوراق أمامي لكتابة ما يشبه الرسالة الروحية لذلك العجوز المحبوب. افترضت أنه لن يعيش ليقرأها، إلا أن ذلك لم يوقفني. كتبت الجملة الأولى في نشوة: "وصل باراباس عبر البحر". من كان باراباس؟ ولماذا أتانا عبر البحر؟ لم أكن محيطة بهذه الفكرة الضبابية، ولكني واصلت وأكملت الكتابة كمجنونة حتى الفجر، وحين بلغ مني التعب مبلغًا زحفت نحو السرير. تمتم زوجي: ماذا كنت تفعلين؟ أجبته: سحر، وقد كان بالفعل! ففي الليلة التالية، وبعد أن تناولت عشاءي أقفلت على نفسي مرة أخرى في المطبخ لكي أكتب. كررت الأمر كل ليلة متناسية تمامًا حقيقة أن جدي قد مات. نما هذا النص وكبر كمخلوق ضخم ذي مخالب عديدة، ومع نهاية العام كنتُ قد كتبتُ على منضدة المطبخ خمسمائة صفحة لا تشبه الرسالة مطلقًا. كانت روايتي الأولى (بيت الأرواح) قد ولدت".

تستريح معظم روايات إيزابيل الليندي في رف كبير من رفوف مكتبتي، أعود إليها بين الحين والآخر. كانت هذه المرأة التي ولدت ذات صيف من عام 1942، قد عاشت سنواتها الأولى في بيت جدها، دار عجيبة كانت فيها جدتها مغرمة بالأشباح، في هذه الدار خالان غريبا الأطوار، أحدهما أمضى عدة سنوات في الهند ليرجع يعيش حياة فقير هندي يتكلم السنسكريتية ويتغذى على الخضراوات فقط، والآخر كان مهووسًا بالقراءة، وبفضله قرأت روايات تولستوي، وإميلي برونتي وفوكنر وديكنز. في الحادية عشرة من عمرها انتقلت مع أمها للعيش في بوليفيا، بعد أربع سنوات من التنقل بين بوليفيا وبيروت والأرجنتين تعود مع أخويها إلى تشيلي، لتعيش من جديد في بيت الجد، كانت قد تخطت الخامسة عشرة بأشهر قليلة، تهيئ

نفسها لأن تصبح راهبة، فقد كانت في قرارة نفسها تعتقد أنها ستعيش طوال حياتها عزباء. في الأربعين من عمرها حين حمل إليها البريد ذات يوم من عام 1982 خمس نسخ من روايتها الأولى (منزل الأرواح) شعرت بالرهبة والخوف من أن يفتضح سرها وخبأتها في درج المكتب. كان عليها الانتظار أسبوعًا لتجد الصحف تشيد بروائية جديدة، توضع صورتها إلى جانب صور ماركيز ويوسا. أحدثت الرواية ضجة بين أفراد عائلتها الذين وجدوا حياتهم مكشوفة أمام الآخرين، وقد كتبت إيزابيل قائلة: "في السنوات الأخيرة تعلمت شيئًا واحدًا مؤكدًا، أن لا شيء يجعل روحي تُغني مثل الجلوس وأمامي ورقة بيضاء، تجعلني أشعر بأنني فتية، قوية متوهجة، وسعيدة".

الورقة المصنوعة من مادة أنعم من الخشب والحجر، فازت كحارس للكلمة المكتوبة. يكتب أمبرتو إيكو أن: "تكديس الورق بعضه فوق بعض على شكل كتاب باستخدام الغلاف القاسي الذي يجعله متماسكًا، جعل من الكتاب حصن الكلمة لآلاف السنين". تخبرنا كتب التاريخ أنه لم يكن ممكنًا في العصور القديمة فعل أي شيء بالأفكار والحكايات سوى حفظها شفويًا ومحاولة تداولها بين الناس لكي لا تُنسى، فلم تكن هناك أوراق لتحفظ فيها. كل ما كان يجري يجب على الإنسان أن يحفظه في ذاكرته وينقله عن طريق هذه الذاكرة إلى ذاكرة أخرى. في محاورة أفلاطون (فيدروس) يروي سقراط حكاية الإله المصري، وهو إله المعرفة والحكمة عند القدماء المصريين، مع الكتابة وكيف ابتكرها. فقد جاء إلى ملك مصر ثاميس وعرض عليه اكتشافه الجديد، قال تحوت للملك المصري: "إليك أحد فروع التعليم الذي سوف يحسن الذاكرة. إن اكتشافي هذا يعتبر وصفة لحفظ الذاكرة وخلود الحكمة"، إلا أن الملك المصري رفض الهدية وقال: "إن تَّعلم الشعب هذا، فإنهم سيعتادون على النسيان. لن يقوموا بتدريب ذاكرتهم. ما قمت باكتشافه

ليست حكمة حقيقية، وإنما مظهر للحكمة". ويستمر سقراط في تأكيده على دور الذاكرة مقابل الكتابة. عاش سقراط في سنة 450 قبل الميلاد في وقت كانت الكتب فيه حديثة الظهور، حيث كُتبت نصوص الإلياذة على شكل مخطوطات طويلة ممتدة يصل طول بعضها إلى 60 قدمًا، وكانت تلصق ببعضها البعض على أوراق قصب البردي المضغوطة تم استيرادها من مصر. كانت هذه النصوص صعبة القراءة. لكن في ذلك العصر كان من الصعوبة اختراع وسيلة أخرى للتعامل مع قضية حفظ المعلومات.

***

تعرفت للمرة الأولى على حكاية طروادة من كتاب يصدر عن سلسلة بعنوان (قادة الفكر) عنوانه (هوميروس.. شاعر الخلود). كنت آنذاك في السابعة عشرة من عمري، الكتاب صغير الحجم، ومطبوع على ورق من نوعية رديئة. وأتذكر أنني حين قرأته المرة الأولى لم أفهم منه إلا شذرات بسيطة عن شاعر أعمى عاش قبل الميلاد بثمانية قرون، وكان اسم الملحمة التي كتبها وشغلت العالم (الإلياذة). كان اسم المدينة التي عاش فيها هوميروس أثيكا، وهي جزيرة من جزر اليونان. أما الحكاية التي يرويها لنا من خلال ملحمتيه (الإلياذة) و (الأوديسة) فهي الحرب التي قامت بين الطرواديين والإغريق والتي استغرقت عشر سنوات. ربما كانت طروادة أول قصة معركة أقرأ تفاصيلها، وأستكشف أنها حرب قديمة جدًا وبعيدة عن عالمنا، وأكثر بدائية، لكنها جزء من عالم مسحور، يمكنك أن ترى فيه الآلهة وهي تحارب إلى جانب البشر. كان هوميروس كما تخبرنا المصادر شاعرًا أعمى، ينشد شعره أمام مواطنيه في اليونان، مثلما يفعل غيره من الشعراء المتنقلين الذين كانوا يحملون أشعارهم من مكان إلى مكان. إلا أن هوميروس كان في نظر اليونان شيئًا آخر، فهو سيد الشعراء بلا منازع، ولم يشك في مكانته

حتى فلاسفة اليونان الكبار، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين أفردوا صفحات من مؤلفاتهم لمناقشة ما كتبه من ملاحم. فلم يشغل شاعر آخر أو أي شخصية أدبية أخرى في حياة قومه مكانة مثلما فعل هوميروس، لقد كان بالنسبة لهم رمزًا بارزًا لقوميتهم، وشخصًا مؤثرًا في تشكيل مجلس الآلهة لديهم. يكتب أفلاطون في (الجمهورية): "كان هناك إغريق يؤمنون بشدة أن هوميروس عَلَمَّ اليونان، وأنه يستحق أن يُتخذ مرشدًا في إدارة شؤون الناس وثقافتهم، وأن المرء ينبغي عليه أن ينظم كافة شؤون حياته مقتديًا بهذا الشاعر". وما زالت حياة هوميروس أشبه بالأسطورة، حيث تعددت الآراء فيها، إلا أن الثابت أن هوميروس ولد لعائلة فقيرة ومغمورة في إحدى مدن اليونان، وقد كان في صباه ميالاً لسماع القصائد وحفظ الشعر، وفي شبابه بدأ يلقي الشعر الذي لم ينل إعجاب المستمعين مما دفعه إلى الهجرة عن مدينته لسنوات، ثم يعود إليها وهو كبير في العمر لينشد من جديد الأشعار التي اكتشف فيها مواطنوه عبقرية ونبوغًا جديدين، فذاعت شهرته وتنافست المدن اليونانية على استضافته وتكريمه.

بعد أن انتهيت من قراءة كتاب (هوميروس)، بدأت في رحلة البحث عما كتبه هذا الشاعر، فعثرت على نسخة من ملحمته (الإلياذة) ضمن سلسلة (كتابي). تبدأ أحداث الملحمة من الخلاف الذي نشب بين آخيليوس أعظم المحاربين الإغريق، وبين آجاممنون أكبر ملوكهم والقائد الأعلى للجيوش، حول مسألة تتعلق بإحدى النساء الطرواديات اللواتي وقعن سبايا في أيدي الآخيين. وحين يبدأ هذا الخلاف يكون الآخيون قد بدأوا عامهم العاشر في حصار مدينة طروادة، في محاولة منهم لإسقاطها واستعادة هيلين زوجة مينلاوس التي أغواها باريس ابن ملك طروادة، وأقنعها بالفرار معه إلى بلاده بعد أن كان ضيفًا على زوجها. ثم يروي هوميروس عواقب غضب

آخيليوس وكيف أن الجيوش لن تستطيع أن تحارب بدون محارب عظيم مثله. وآخيليوس كما يخبرنا هوميروس في الملحمة هو ابن أحد الملوك، أنجبه من حورية البحر ثيتس التي عشقها كبير الآلهة زيوس وتخلى عنها. أحبته أمه كثيرًا وأرادت أن تحميه وتصونه، فأخذته وهو طفل إلى نهر في العالم السفلي وأمسكته من عقب قدمه وغطّسته في المياه المقدسة. فأصبح جسمه منيعًا، أي يستحيل إيذاؤه أو إصابته بجرح أو ضرر، ما عدا عقب قدمه المكان الذي أمسكته به أمه. وعندما شبّ طلبت أمه من حداد الآلهة أن يصنع له درعًا لا يخترقه حديد أو نار، وقد كان من نتيجة امتناع آخيليوس عن المشاركة في الحرب أن فقد أقرب أصدقائه باتروكلوس، الذي قتل على يد هكتور البطل الأسطوري عند الطراوديين. وعندما يسمع آخيليوس بموت صديقه يثور غاضبًا ويقرر العودة إلى ميدان القتال، فيقتل العشرات من الجنود والقادة ويهرب الجميع منه، حيث يحتمون داخل أسوار طروادة باستثناء هكتور، الذي يُقتل في منازلة عنيفة أمام آخيليوس. يضعف جيش الطراوديين بعد موت هكتور، لكنهم يحتمون بأسوار مدينتهم التي تستعصي على جيش الآخيليين. وفي النهاية يبتكر أوديسوس، بإلهام من الإلهة أثينا، خطة ذكية حيث يغادرون فجأة المعسكر ويركبون السفن للعودة إلى الوطن، ويتركون في السهل حصانًا خشبيًا ضخمًا في داخله أقوى المحاربين. يبحرون إلى جزيرة تيندوس القريبة ويبقون هناك حتى الليل ثم يعودون. ينخدع الطرواديون فيجرون الحصان إلى الداخل ويقيمون الاحتفالات الصاخبة. في آخر الليل ينزل المحاربون اليونانيون من جوف الحصان، ويقتلون الحراس ثم يفتحون أبواب طروادة لرفاقهم المنتظرين. ينهب اليونانيون طروادة ويقتلون رجالها ويسبون نساءها. يقتلون الملك بريام ويسوقون آندروماك، زوجة هكتور، أسيرة. أما (الأوديسة) فإن موضوعها أكثر تنوعًا حيث يتناول فيها هوميروس عودة الملك المحارب أوديسوس من حرب طروادة إلى وطنه

في إثاكا. ففي بداية الملحمة نعرف أن أودسيوس ما يزال غائبًا رغم مرور أكثر من عشر سنوات على نهاية الحرب، ويعتقد أهالي المدينة أنه مات ولن يعود. ولهذا يسعى كبار القوم للتقرب من زوجته الملكة بنيولي التي لا تفقد الأمل بعودة أوديسوس، فتقرر أن تبعث بابنها تليماخوس للبحث عن أبيه. في القسم الثاني نرى أوديسوس في رحلة العودة، بعد أن توسطت إلهة أثينا لدى كبير الآلهة زيوس لكي ينقذه من سيطرة كاليبوس حورية البحر، وبعد رحلة مضنية يتعرض أوديسوس لغضب إله البحر بوسيدون. يصل أخيرًا إلى جزيرة أسخيريا حيث يستضيفه ملكها، ويروي أوديسوس ما تعرض له من مخاطر وما صادفه من صعاب فيقرر ملك أسخيريا مساعدته لكي يعود إلى مدينة إثاكا. أما القسم الثالث والأخير من الملحمة فنجد فيه أوديسوس وقد عاد إلى بلاده، حيث يجد معظم النبلاء طامعين في عرشه، فيقرر التنكر في زي متسول ليتمكن من التسلل إلى داخل القصر دون أن يعرف أحد هويته سوى زوجته وابنه. ويختتم هوميروس الملحمة بانتصار أودسيوس وعودة السلام إلى بلاده.

***

في العصور القديمة كان أحدهم إذا أراد أن يصبح بطلاً في الحياة عليه أن يتعلم حفظ النصوص القديمة، وإذا أراد أحد أن يتعلم نصًا عليه أن يحفظه. وقد كانت طريقة القراءة في العصور القديمة والمتوسطة مختلفة تمامًا عن طريقتنا اليوم، لم يكن القارئ آنذاك يحفظ النصوص فقط، وإنما يجترها. وكما يخبرنا الإيطالي جيوفاني بوكاشيو في إحدى رسائله قائلاً: "أمتص أشعار هوميروس وأزرعها في ذاكرتي". ومثلما أحاط الغموض والأساطير حياة هوميروس، فإن حكاية بوكاشيو كانت مليئة بالأسرار، فهو ابن غير شرعي لبوكاشيو دي تشبلينو، أحد تجار إيطاليا، وفتاة فرنسية. ولد في

باريس عام 1313، وأمضى سنوات شبابه في مدينة نابولي يعمل في تجارة والده، وفي الوقت نفسه يدرس القانون. في تلك الفترة قرأ هوميروس فهام به، وحفظ أشعار فيرجيل وأوفيد. وفي نابولي وقع في حب ماريا داكوينو، وهي التي عرفها القراء فيما بعد باسم فياميتا والتي أصبحت الشخصية النسائية الرئيسية في عمله الكبير (الدكاميرون)، حيث يصف لنا مغامراته العاطفية والجنسية معها. وبعد علاقة دامت أكثر من عشر سنوات أصيبت ماريا بمرض الطاعون، ويقال إن بوكاشيو تولى تمريضها بنفسه. وبعد وفاتها يقرر أن يتفرغ للأدب فيذهب في رحلة لزيارة قبري هوميروس وفرجيل، حيث ينذر أمامهما نفسه للأدب. وفي ذكرى وفاة محبوبته، يبدأ بكتابة أعظم كتبه (الديكاميرون)، يروي فيه ذكرى الطاعون الخبيث الذي ما يزال عالقًا في ذاكرته، من خلال حكاية أبطالها ثلاثة رجال وسبع نساء يهربون خارج مدينة فلورنسا خوفًا من الطاعون، حيث يصلون إلى مكان آمن، لكنهم لا يجدون ما يفعلون فيقضون الوقت برواية الحكايات فيما بينهم، وخلال عشرة أيام يروي كل واحد منهم عشر حكايات، ليكون مجموع الحكايات مئة حكاية.

يستهل بوكاشيو كتابه (الديكاميرون) بافتتاحية يخبرنا فيها عن سبب اختياره للقصص المئة التي يرويها على لسان أبطاله، ويصف كيف اجتاح وباء الطاعون مدينة فلورنسا عام 1348 فأصبحت معزولة عن العالم، وكيف أصبح الموت هو قدرها المحتوم.

في صيف عام 1987 يجلس كازو إيشيغورو إلى منضدة الكتابة يقرأ في (الإلياذة)، ويسأل زوجته لورنا عن الذاكرة الضخمة التي امتلكها هوميروس والتي مكنته من حفظ كل هذه الأبيات وترديدها في كل مناسبة. كانت فكرة الذاكرة قد شغلته منذ أن قرأ كتاب برغسون الشهير (المادة والذاكرة)،

والذي يؤكد فيه الفيلسوف الفرنسي الشهير أن ذكرياتنا تبقى حيّة في باطن الشعور، مكتسبة في كل مرة صبغة جديدة، نتيجة لذكرى الحالات السابقة المختزنة من ذي قبل في صميم الوعي، وبذلك نجد أنفسنا دائمًا بإزاء لحظة جديدة أصيلة من لحظات تاريخ حيّ متجدد لشخصية متطورة نامية. يكتب إيشيغورو في دفتر يومياته العبارة التالية التي قرأها في أحد كتب الفلسفة: "لا تنس أن تتذكر". كان آنذاك قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره. صدرت له من قبل روايتان (منظر شاحب من التلال)، و (فنان من العالم الطليق). كان يكتب وفي نفس الوقت يقرأ ويراجع مصادر عن تاريخ بريطانيا في الفترة ما بين الحربين العالميتين. أغرم بكتب المفكر الاشتراكي هارولد لاسكي، وحاول أن يحصل على ما نشر عن الحياة في الريف الإنكليزي، ولمدة ستة أسابيع واصل كتابة رواية تتداخل وتتقاطع بين الذاكرة الفردية والتاريخ الوطني من خلال شخصية رئيس خدم ستيفنس، الذي يعمل في قصر إنكليزي عريق، يرى أنه خدم الإنسانية لا لشيء إلا لأنه سخر كل كفاءته وخبرته المهنية لخدمة رجل عظيم؛ لورد دارلنغتون. وباستعراض تاريخه في المهنة يكتشف ستيفنس ما يجعله يضع كل شيء موضع المساءلة: عظمة اللورد، علاقته بالآخرين، معنى حياته التي عاشها في عزلة عن كل شيء باستثناء وظيفته، معنى الكرامة المهنية، الزمن المفقود الذي يحاول استعادته. وفي الرواية نجد أن التاريخ والذاكرة عرضة للانتقاء والمراجعة بشكل دائم: "الذاكرة بالنسبة للفرد هي بالضبط كالتاريخ بالنسبة للدولة". أحداث رواية (بقايا اليوم) التي تبدأ عام 1956 تدور بقصر دارلنغتون الذي يستأجره رجل أعمال أميركي، نشاهد ستفتنس وهو يبدأ رحلته بسيارة المالك الجديد إلى الريف، لكنه في الوقت نفسه يبدأ رحلة معذبة في الذاكرة. هنا سيكتشف ما يجعله يضع كل شيء موضع المساءلة: عظمة اللورد الذي خدمه بإخلاص ومعنى حياته التي عاشها في عزلة عن كل شيء باستثناء وظيفته، أما فكرة

الرحلة ذاتها فهي بنية ذكية اتخذها إيشيغورو ليقول لنا إن البطل كلما كان يبتعد عن قصر دار لنغتون، إنما كان يقترب من فهم حياته التي قضاها هناك. شخصية ستيفنس في هذه الرواية تعكس أفكار إيشيغورو وتأملاته الخاصة، وعدم وضوح الرؤية لديه، والتمادي في السير في الاتجاه الخطأ. شخصيته مرسومة بعناية فائقة تبرز مزايا وعيوب الطبيعة المتحفظة، فهو شخص رزين محترف يحاول أن يحافظ على النظام والانضباط ومستوى الخدمة الممتازة في قصر مخدومه، هذه الجهود كلها تفيض على حياته الشخصية وتطغى عليها مخلفة رجلاً غامضًا أجوف. يكتب إيشغيورو أن الأدب الذي يجب أن نقدمه للقارئ يجب أن يتخطى حدود لغتنا وذاكرتنا، وأن يعبّر على نحو صحيح عما حدث في أصغر حدث في حياتنا. وعلينا أن ندرك أن الحصول على أقرب نسخة صادقة من الواقع ممكن في القصص التي تشبه ما كتبه قبل أكثر من 2000 عام مواطن يوناني أطلقوا عليه اسم هوميروس.

14

مغامرة في البحث عن أوجه الحقيقة

"لقد كان دون كيشوت مهووسًا بالقراءة، كان يقضي أيامه من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح يقرأ كتبًا. لقد كان قليل النوم ويقرأ كثيرًا لدرجة أن دماغه أصيب بالتكلس وانتهى مجنونًا. كان رأسه مملوءًا بكل ما يعثر عليه في الكتب"

سيرفانتيس

ذات مرة حاولت إحدى دور النشر الإيطالية أن تكلف عددًا من الكتاب الكبار بإعادة كتابة مسرحيات الكاتب الشهير لويجي بيراندللو الحاصل على نوبل للآداب عام 1934. وقع اختيار أمبرتو إيكو على مسرحية (هنري الرابع). الكاتب الذي كتب (اسم الوردة) و (بندول فوكو) و (العدد صفر) اختار أن يعيد حكاية الشاب الذي خرج ذات يوم مع أصدقائه في موكب فروسية بملابس تنكرية فسقط من على حصانه إثر تعرض من أحد أصدقائه الذي كان ينافسه على حب فتاة جميلة، فأصيب بنوع من الجنون جعله يتوهم أنه الملك هنري الرابع، وأخذ يرتدي ملابس الملك ويتصرف مثل. ولما شفي من مرضه آثر أن يبقى على وهمه ويعيش في عالم الخيال، هربًا من الواقع المليء بالمفارقات والمآسي. فقد قرر أن يتخذ من الخيال عالمًا حقيقيًا له، حين اكتشف أن شبابه قد ولى، وأن أصدقاءه قد تخلوا عنه، وأن حبيبته ارتبطت

بشخص آخر، ولهذا صمم أن يعيش في عالم الوهم، سعيدًا بالمصير الذي رسمه لنفسه.

يرتبط الوهم بالواقع. يقول أمبرتو إيكو: "كثيرون وجدوا في الخيال والأحلام عالمًا مثيرًا للغاية. فالحقيقة المطلقة لا وجود لها ما دام كل شيء في تغير متصل، وإن الوهم بالحقيقة أقوى وأثبت من الحقيقة نفسها".

كان لقائي الأول بكتب بيراندللو عن طريق مجلة مصرية اسمها (المجلة)، يرأس تحريرها الروائي والقاص المصري يحيى حقي، فأثناء بحثي في المخزن التابع للمكتبة التي كنت أعمل بها عثرت على مجموعة مجلات صادرة في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي. أخذتها معي إلى البيت، وأذكر أنني أمضيت الليل أقلب بها، حيث انبهرت بأسماء أسمع بها للمرة الأولى، والتقيت لأول مرة في حياتي باسم لويجي بيراندللو، فقد وجدت في أحد الأعداد مسرحية قصيرة اسمها (الجرة) - قدمت فيما بعد على مسرح الفن الحديث في بغداد باسم (البستوكة) أخرجها الفنان سامي عبدالحميد. كان هناك تقديم قصير عن حياة الكاتب لا أتذكره الآن، لكنني انتبهت أنه نال جائزة نوبل، وأنه يعد من كبار كتاب المسرح في العالم. بدأت قراءة مسرحيته الصغيرة فوجدتها ساذجة، حكاية من الريف الإيطالي أبطالها يصابون بالرعب والخوف لأن جرة كبيرة لأحد ملاك الأرض انكسرت. وحين يتم إصلاحها نجد الفلاحين أنفسهم يرقصون فرحين ويغنون ومعهم صاحب الأرض. وما أن انتهيت من قراءة المسرحية حتى تساءلت مع نفسي هل يُعقل أن يمنح مثل هذا الكاتب جائزة نوبل؟!.

بعدها بأيام تجرأت وسألت المترجم المعروف يوسف عبدالمسيح ثروت. اقتربت منه وهم منهمك بتصفح عدد من الكتب الإنكليزية. في تلك السنوات من عمر العراق كان يوسف عبدالمسيح ثروت أثرًا شاخصًا في

مجال النقد المسرحي. حدثته عن خيبتي في مسرحية بيراندللو واستغرابي من حصوله على جائزة نوبل. ابتسم كعادته قبل أن يتكلم، بعدها حدثني عن صاحب (الجرة) الذي اكتشفت أنه روائي وقاص مشهور، وأنه لم يتجه لكتابة المسرح إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره. ثم صمت قليلاً قبل أن يقول: "بيراندللو فيلسوف أكثر منه أديب، فهو يؤمن أن الحقيقة تتألف من حقيقتين، حقيقتك وحقيقتي، وهو يرى أننا ننظر إلى الإنسان فنراه بنظرة غير النظرة التي يراه فيها الآخرون، وأيضًا غير النظرة التي يرى هو فيها نفسه"، ثم قدم لي نصيحته الذهبية: "حاول أن تقرأ له ثلاثيته الشهيرة: (ست شخصيات تبحث عن مؤلف)، (الليلة نرتجل)، (كل شيخ له طريقه)"، ثم تركني ليعود إلى هوايته المفضلة، التنقيب في الكتب.

قبل أيام وأنا غارق في البحث عن كتب بيراندللو في مكتبتي المتواضعة، تذكرت شريط فديو كنت قد شاهدته من قبل عن مكتبة أمبرتو إيكو، حيث يتتبع المصور خطوات الروائي وعالم الألسنيات الإيطالي في أروقة مكتبته الضخمة. نراه يمشي موغلاً في الممرات، ينعطف يسارًا ويمينًا ليدخل إلى قاعة أخرى مليئة أيضًا بالكتب، بعدها نشاهده وهو يستل كتابًا من أحد الرفوف. ذات يوم يسأل أحد الصحفيين إيكو عن مكتبته الضخمة هذه هل قرأها كلها، فيجيب بابتسامة: "نعم وذلك بلمسها".

يخبرنا صموئيل بيكيت أنه مولع بقراءة الكتاب الواحد أكثر من مرة، لأن القراءة المتعددة أشبه بخلط الوهم بالواقع، وهو ما حاول أن يقدمه في رواياته ومسرحياته بطريقة يصعب الفصل فيها بين الحقيقة والوهم، يكتب بيكيت: "لا نكاد نولد حتى نموت، وما بين الولادة والموت نعيش في ظل واقع هو وهم، ووهم أشبه بالواقع".

***

"لا يا حضرات السادة. بالنسبة لنفسي، أنا ما يعتقده الآخرون"

بيراندللو

في كتابه (المقابسات) يورد أبو حيان التوحيدي مقولة لأفلاطون يؤكد فيها أن للحقيقة وجوه عدة: "إن الحقيقة لم تصبها الناس من كل وجوهها، ولا أخطأوها في كل وجوهها، بل أصاب منها كل إنسان جهة معينة، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل واحد منهم يتحسس جزءًا منه، فأخبر الذي تحسس الساق أن شكل الفيل طويل شبيه بجذع النخلة، وقال الذي تحسس الظهر إن شكله شبيه بالهضبة العالية والرابية المرتفعة، وقال الذي تحسس أذنه إنه منبسط دقيق يطويه وينشره. فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدركه، وكل يكذّب صاحبه ويدعي عليه بالخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل. فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم". كان الفلاسفة السفسطائيون يعتقدون أننا لا ينبغي أن نبحث عن حقيقة ما من وراء انطباع معين يستوي على عقل الإنسان، وعندما تبدو قضية ما وكأنها شيئًا معينًا بالنسبة لـ "س" فإنها في نظر "ص" تعني شيئًا آخر، لأن حقيقتها هي ما تعنيه لكل منهما.

كان الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس أحد أشهر السفاسطائيين، ولد عام 487 قبل الميلاد، اهتم بالفلسفة بوقت مبكر من حياته، حاول أن ينظم فلسفة خاصة به اهتمت بالإنسان فقط، حيث كان يعتقد أن الإنسان هو مقياس كل شيء، أي أن الخير والشر والصح والخطأ، كلها يجب أن تُحدد بحسب حاجات الكائن. لم تصل إلينا كتبه بسبب أراءه الصادمة للمجتمع،

فقد كان رافضًا للديانة التي كانت سائدة آنذاك، وقال: "لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلِهة موجودة أو غير موجودة وعلى أي صورة تكون، وذلك بسبب غموض الموضوع، وقصر عُمّر الإنسان"، وهو الأمر الذي أدى إلى إحراق كتبه. ظل بروتاغوراس يلقي الخطب في الأسواق، ويحاول أن يقدم صورة عن الحياة مختلفة وصادمة، فكان يؤكد أن ما يدركه شخص ما هو حقيقة بالنسبة له، وما تدركه أنت هو حقيقة بالنسبة لك، إذ إنه لا توجد حقيقة واحدة للعالم الذي نعيش فيه، ولكن ذلك لا يعني أنه لا توجد حقيقة على الإطلاق، بل بالعكس حيث يؤكد بروتاغوراس أن هناك كّم من الحقائق لكل شيء في الوجود، لأن ما يدركه كل فرد هو حقيقة بالنسبة له.

آمن السفسطائيون بأن الحقيقة نسبية في نظر كل من يؤمن بها، وكان بروتاغوراس يقول إن الحقيقة متناثرة في كل مكان، وإن كل إنسان يستطيع أن يحصل على قدر منها. ويؤكد مؤرخو الفلسفة أن بروتاغوراس أول من وضع مفهوم "النسبية". وقد اهتم سقراط بأفكار بروتاغوراس فحاول مناقشتها، كما دوّنها لنا أفلاطون في محاورته (ثياتيوس)، وخصوصًا مفهوم بروتاغوراس للنسبية التي حاول تفسيرها بأنها تعني أن: "أي شيء أرى حقيقته كما يبدو لي أنا، وترى أنتَ حقيقته كما يبدو لك أنتَ".

وسنجد بيراندللو يؤكد مثلما فعل السفسطائيون من قبل على أن معيار الحق والحقيقة لفكرة ما هو قدرتها على الإقناع، أو ما لها من نصيب من النجاح في الإيهام والتسلط. وكان السفسطائيون قد استخدموا في سبيل الإقناع طريقة الأخذ والرد، أو الجدل أو المحاورة، وهو ذات الأسلوب الذي استخدمه بيراندللو في معظم أعماله الأدبية.

بعد نصيحة يوسف عبدالمسيح ثروت الثمينة، ومع قراءة أعمال لويجي بيراندللو، اكتشفت أنني إزاء كاتب نظرته للحياة مختلفة عن النظرة الشائعة

لأي كاتب كنت قد قرأت له من قبل، نظرة تتأنى مع القارئ والمشاهد، وترى شيئًا أبعد من الذي ندركه نحن. تتميز النظرة عندما تكون بيراندللوية، كما أسماها غرامشي في مقال شهير له بعنون (بيراندللو بين الأدب والحياة)، بشيء من الخداع، رغم أنها لا تستعين مطلقًا بما خارج الواقع، وتبدو دومًا قابضة على واقع ما. فأعمال بيراندللو تترك لدينا شعورًا بأن هذا الإنسان فقط يرى في الواقع حقيقة خاصة به، ويعيش في الوقت نفسه خارج هذه الحقيقة.

في مقدمة أعماله الكاملة، يكتب بيراندللو: "تريدون أن أذكر لكم شيئًا عن تاريخ حياتي، وليس أبغض إلي من هذا العمل. وما ذلك إلا لسبب بسيط، فقد نسيت أن أحيا حياتي، بل أكتبها". ولِد كما يخبرنا في عام الوباء، في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام 1867 في جزيرة صقلية التي اجتاحتها الكوليرا في ذلك العام، أبوه يملك مناجم للكبريت ويتاجر فيه، وأمه امرأة نحيلة لا تفارق السرير. كان الأب يطمح أن يصبح ابنه تاجرًا ماهرًا في لغة الأرقام، فأدخله مدرسة مهنية، لكن الصبي الذي يهوى الغناء والمسرح وقراءة القصص المصورة طلب من أمه أن تساعده في الابتعاد عن التجارة، فقررت بالاتفاق مع خاله أن يُنقل إلى القسم الأدبي مع الاحتفاظ بالسر عن الأب. وعندما انتهت الدراسة واكتشف الأب الخدعة أصر أن يحرم ابنه من الميراث، وهو الأمر الذي أثار سخرية الصبي بيراندللو الذي لم يكن يهتم بالمال قدر اهتمامه بالمسرح وقراءة الكتب، فقد كان آنذاك يكتب القصائد القصيرة التي يخفيها عن الآخرين. يقرر التفرغ لدراسة اللغة الإيطالية وإعداد رسالة جامعية عن اللهجات المحلية، في هذه الفترة يكتب روايته الأولى (المنبوذة) عن قصة حب عاشها مع فتاة ثم اكتشف أن هذه الفتاة غريبة عنه، مثلما وجدت هي نفسها بعد ذلك غريبة عنه. ولم تنتهِ قصة الحب هذه حتى وجد نفسه أمام مشكلة جديدة، فقد قرر والده أن يزوجه

من أنتونيا ابنة شريكه في مناجم الكبريت، ليجد نفسه يقع ضحية صفقة تجارية، مرتبطًا بامرأة لم يعرفها من قبل. في هذا الوقت يقرر التفرغ للكتابة لتظهر أولى مسرحياته القصيرة، ثم ينشر مجموعة قصصية لم تحظَ باهتمام النقاد واعتبرها البعض محاولات ساذجة في كتابة القصة القصيرة. تصاب زوجته بالشلل بعد أن قرأت رسالة والده الذي يخبره فيها بأن ثروته ضاعت بعد أن غرق منجم الكبريت.

كان ذلك فصلاً مؤلمًا في حياة بيرانداللو الذي قرر اعتزال العالم، وتمنى أن يختفي من العالم من غير أن يموت. وقد أعجبته هذه الفكرة فبدا يكتب أولى رواياته (المرحوم ماثياس باسكال) حيث يطرح فيها للمرة الأولى مفهومه عن الخيال والواقع والحياة والموت والجنون والحكمة. والرواية تدور حول تحليل شخصية رجل فقير يدعى ماثياس باسكال هرب من زوجته وعائلته، قاصدًا الهجرة إلى أمريكا، غير أنه وقف في طريقه بمونت كارلو ليجرب حظه في القمار، فأسعفه الحظ وربح أرباحًا طائلة. وحدث في اليوم التالي لاختفائه أن وجدت جثة غريق مجهول في النهر، فاعتقد أهل مدينته أنها جثة ماثياس ليتم دفنه وتسربت الحادثة إلى ماثياس عن طريق الصحف وهو في مونت كارلو، فيقرر العيش مختفيًا، متجردًا من شخصيته الحقيقية، متحررًا من الروابط الاجتماعية، لكنه بعد أن يتعرى من شخصيته يفقد توازنه، بدليل أنه يقول: "إن الشيء الوحيد الذي أوكده هو أنني كنت أدعى ماثياس باسكال". بل ربما نسى أنه كان يدعي بهذا الاسم.

***

"إن جميع مسرحيات بيراندللو قد حوربت من قبل الكاثوليكيين بسبب طبيعة إدراك بيراندللو للعالم"

غرامشي

في العام 1930 كان أنطونيو غرامشي قد أنهى سنتين من الحكم الصادر ضده بالسجن عشرين عامًا، بعد أن اعتقله رجال موسوليني وأودعوه أحد مراكز الأمن الفاشي. أيقن آنذاك أنه محكوم عليه بالموت البطيء بسبب مصاعب وآلام حياة السجن. في تلك الأيام الكئيبة كرس غرامشي سنوات السجن للتأمل والكتابة، كتب (كراسات السجن) وكتاب (تأملات في الأدب والفن)، خصص فيه فصلاً مطولاً عن لويجي بيراندللو يكتب فيه: "في بيراندللو نجد كاتبًا صقليًا يمكنه أن يدرك الحياة المحلية في لهجاتها وفولكلورها، وفي الوقت نفسه نجد فيه كاتبًا إيطاليًا وأوروبيًا، لا بل نجد فيه أكثر من هذا الوعي النقدي لصقليته وإيطاليته ولأوروبيته".

غرامشي الذي ولد عام 1891 عاش طفولة صعبة، وسط عائلة فقيرة جدًا، وكان جميع أفراد العائلة يحاولون المساهمة في النفقات. يكتب غرامشي: "بدأت العمل عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، وكنت أكسب تسع ليرات في اليوم أي ما يعادل ثمن كيلو غرام من الخبز، مقابل عمل عشر ساعات يومية، وكثيرًا ما كنت أقضي الليل في البكاء سرًا لأني كنت أشعر بالألم في كل أنحاء جسدي. لم أعرف إلا الجانب القاسي للحياة".

عندما حوكِم غرامشي طالب ممثل موسوليني بأن يوقف هذا الدماغ عن الاشتغال. وعندما طلب القاضي من غرامشي أن يلتمس العفو أجاب:

”هذه طريقة تعني الانتحار، وليست لي أي رغبة في الانتحار، لأنني لا أريد العيش مستعيرًا شخصية إنسان آخر، لست شخصية من شخصيات مسرح بيراندللو تستبدل قناعها بين لحظة وأخرى.. أنا اسمي أنطونيو غرامشي“.

هل يستطيع كاتب أن يبين لنا كيف ولِدت إحدى الشخصيات في خياله أو لماذا ولدت؟ يقول بيراندللو إن سر الخلق الفني هو نفسه سر الخلق في الطبيعة. ويضيف أن أي امرأة ترغب بأن تصبح أمًّا، لكن الرغبة وحدها لا تكفي، وتصحو ذات يوم من نومها فتجد أنها قد أصبحت أمًّا، من غير أن تعلم متى حدث لها ذلك. وكذلك الشأن عند الفنان، إنه يختزن نفسه كثيرًا في البذور الحية، ولكنه لا يدري متى ولا كيف استحالت إحدى هذه البذور إلى كائن ينبض بالحياة. وفي المقدمة التي كتبها لمسرحية (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) يقول: ”وجدت هذه الشخصيات الستة أمامي، أحياء بحيث أستطيع أن ألمسهم، وأن أسمع أنفاسهم، لقد ولدوا أحياء. وها هم يطالبون بحقهم في العيش“.

منذ الصفحة الأولى نحن في مسرح يتهيأ لتقديم عمل مسرحي جديد، حيث المخرج والممثلون منشغلون بإعداد هذه المسرحية التي تروي حكاية امرأة تزوجت من رجل وأنجبت منه الابن الأكبر. بعد ذلك حدث أن أغرمت بسكرتير الأب وعشقته فأنجبت منه الأولاد الثلاثة الباقين، بمن فيهم فتاة. ثم فقد كل من الأب والأم الأصليين أثر الآخر، ودار الزمن دورته. وحين مات عشيق الأم، وجدت هذه نفسها وأطفالها في البؤس فعادت لتقيم في المدينة نفسها. وهنا وقعت الفتاة بين براثن امرأة تدعى مدام باتشي تمارس مهنة الدعارة، وفي منزل الدعارة الذي تملكه مدام باتشي، يلتقي الأب بالفتاة ويقيم معها علاقة من دون أن يعرف من هي. لكن الأم تدرك يومًا ما حدث وتخبر زوجها بالحقيقة. ويشعر الرجل بالعار إزاء ما

فعل ثم يدعو الأسرة لتقيم لديه، لكن ابنه لا يطيق وجودهم وتبدأ الخلافات بين الجميع، حتى تُقتل الطفلة غرقًا في الحوض، وينتحر الفتى الصغير مطلقًا النار على نفسه، وتذهل العائلة أمام ما يحدث، لكن الفتى الشاب سرعان ما يلتقط أنفاسه ويبارح المكان ساخرًا. وهنا تتوقف المسرحية الأصلية التي كان المخرج ينفّذها حين تظهر الشخصيات لكي تطالب بحقها في حياة أخرى ونهاية أكثر اكتمالاً، لينقلنا بيراندللو إلى عالم الوهم، بالوقت نفسه لا يريد أن يغادر الواقع ونجد الشخصيات وهي تحتج: "إن المؤلف الذي وهبنا الحياة، كما ترى يا سيدي، لم يُرد أو يعد قادرًا من الوجهة المادية على أن يسلكنا في عالم الفن. وكان ذلك منه جريمة حقًا يا سيدي، لأن من يسعده الحظ فيولد شخصية حية يمكنه أن يسخر حتى من الموت، إنه أسمى من الموت. إن الإنسان الكاتب، أداة الخلق، يموت، أما مخلوقاته فلا تموت أبدًا". ونكتشف أن الشخصيات الست التي تبحث عن مؤلف، هي نفسها الشخصيات الفنية التي لا تقل حياة عن الشخصيات الواقعية. بل إنها لتمتد خلال الزمن وتسخر من الموت. يسأل بيراندللو: "أين هاملت ودون كيشوت وفاوست ومدام بوفاري؟ لن نجدهم تحت شاهد من شواهد القبور.. إنهم أحياء.. يموت الشعراء والكتاب الذين أبدعوهم ولم يموتوا هم".

ينظر بيراندللو إلى الجنس البشري وإلى نفسه فيكتشف أن الإنسان مُجمد داخل المفهوم الذي يكوّنه عنه الآخرون، فضلاً عن المفهوم الذي يكوّنه كل واحد منا عن نفسه. ويكتب في مقدمة مسرحيته الشهيرة (الليلة نرتجل): "إذا ما استعرضنا في ذهننا الأوهام التي لم نعد نعتنقها، والأشياء التي لا تبدو الآن مثلما كانت تبدو لنا بالأمس، نحس أننا معلقون في فراغ، لسوف نتجادل في أن ما نشعر به اليوم، أي حقائق اليوم، مقدر عليها أن تبدو أوهام الغد".

في روايته (كافكا على الشاطئ) يقدم لنا الروائي الياباني هاروكي موراكامي واحدة من شخصيات بيراندللو ناكاتا العجوز، الذي يملك القدرة على التكلم مع القطط، لكنه يواجه صعوبات في التواصل مع البشر، ذو ماض مؤلم، وذاكرة محاها حادث غرائبي أثناء الحرب العالمية الثانية، حين تعرض للتسمم مع بعض رفاقه في الجيش، إثر تناولهم نباتًا أدى بهم وبه إلى فقدان الذاكرة، يعيش على المساعدات الاجتماعية التي تمنحها الدولة، وموهبة العثور على القطط الضائعة، شخصية غريبة، تعيش الحياة على طريقتها، يحاول أن يسترجع ذاكرته التي فقدها يومًا، يكتب موراكامي: "عندما كنت صبيًا شاهدت مسرحية لبيراندللو اسمها (كل شيخ له طريقة)، حيث وجدت أن للذاكرة وجوهًا كثيرة، وأن للحوادث والأحداث مرايا كثيرة أيضًا، وأن للوهم والأحلام طرقًا أكثر غرابة".

15

الحياة.. طريق يمر من هاوية نيتشه إلى مختبر برجسون

"إذا كان الكتاب الذي نقرأه لا يوقظنا بضربة على الرأس، فلماذا نقرأه إذًا؟ فالكتب التي تجعلنا سعداء هي نوع من الخديعة"

فرانز كافكا

الكثير من الكتب يطويها النسيان، بعد فترة طويلة أو قصيرة، وقليل جدًا من الكتب ما يظل عالقًا في الأذهان رغم مرور الزمن وتغير الأحوال، وتجدها تطبع ثم يعاد طبعها، وما أن تدخل إحدى المكتبات أو تتجول في شارع المتنبي حتى تلمحها أمامك، لأن أصحاب المكتبات والبسطيات معًا واثقون من أن هناك من سيأتي لطلبها. من هذا النوع من الكتب رواية (زوربا) لليوناني نيكوس كازنتزاكيس التي مر على صدور أول طبعة منها ما يقارب ثلاثة أرباع القرن، 72 عامًا، حيث صدرت طبعتها الأولى باليونانية عام 1946، فيما نشرت ترجمتها لأول مرة بالعربية عام 1959 عن دار العلم للملايين بترجمة جورج طرابيشي. بعدها توالت الترجمات حيث صدرت حتى الآن أكثر من عشر ترجمات مختلفة، كان آخرها ترجمتان عن اليونانية مباشرة. يكتب أورهان باموق إن: "الكتب الجيدة جميعها في حالة تنافس بعضها مع بعض"، وكان فلوبير يقول لو كان على رجل أن يقرأ عشرة كتب باهتمام كافٍ سوف يصبح من الحكماء.

من بين كتبي الكثيرة التي تجاوزت الخمسة عشر ألف كتاب، هناك خمسة عشر أو عشرون كتابًا أحبها وأعيد قراءتها باستمرار، وأشعر مع صفحاتها بألفة دائمة، وتجدني كلما أعود إليها، أتخيل نفسي ألتقطها للمرة الأولى.

كَتب كازنتزاكيس روايته (زوربا) وهو في عمر الثالثة والستين، وكان آنذاك مهووسًا بأفكار نيتشه وتعاليم بوذا ودروس أستاذه برجسون الذي يضع على مكتبه عبارته الشهيرة: "لا بد أن نعيش الحياة متجهين إلى الأمام". ونجده يكتب على لسان زوربا: "عندما نشعر باليأس علينا أن نذكر أنفسنا، كيف أن أرواحنا قد تظهر في الموسيقى الساحرة، وفي هدية صغيرة مليئة بالأفكار، وفي التشابكات، وفي الفكاهة، وجمال التحدث عند غروب الشمس".

في مذكراته (تقرير إلى غريكو) يخبرنا كازنتزاكيس أن فكرة زوربا كانت في البداية أشبه بإيقاع جديد استولى على حياته: "حين التقيت بزوربا كان ما يزال يُلقي بظله على الأرض، وحين عرفت أنه لا جسده ولا أغنيته ولا حتى رقصته كانت قادرة على استيعابه، تساءلت بتوقع كبير عن أي نوع من الوحوش البرية سيتفجر حيت تأتي ساعته ويقطع القيود الشفافة المحيطة به". ولهذا ما إنْ نبتت فكرة الرواية في ذهن كازنتزاكيس حتى أخذ يكتبها بسرعة، بطريقة محمومة وهو ما جعله يصف الرواية بعد أن انتهى من كتابتها بأنها: "مثل المصيدة، كنت أرتبها بكل الدهاء الذي لدي، لكي أقبض على الصرخة المعجزة التي تظل تتقدم أمامي".

تعلمت من الكتب أن الأعمال الأدبية العظيمة تستلزم حكايات غير عادية حولها. فقد نُسجت سير سحرية حول شكسبير بغية إسباغ مسحة من الغرابة والقوة على أعماله، كما ألصقوا ببلزاك صفة الاستثنائي لأن عشاق رواياته اعتقدوا أن ملحمته الروائية (الكوميديا الإنسانية)، بأجزائها التي

تجاوزت الـ 140 كتابًا، لا يمكن أن تكون من تأليف إنسان عادي.

يكتب الشاعر الإنكليزي بن جونسون أن شكسبير لم يكن ينتمي إلى عصر واحد، بل لكل العصور. وهذا القول يجعنا نتساءل لِمَ تصمد بعض الكتب أمام اختبارات الزمن دون غيرها؟ في كتابه الممتع (شكسبير معاصرنا) يقول البولوني يان كوت إن أعمال شكسبير: "تتعاطى بتعاطف مع هموم أكثر من نوع من الجماهير، ويُعبر بتعاطف عن وجهات نظر الأثرياء والفقراء، والعجائز والشباب، والإناث والذكور، والصعاليك والأميرات، متيحًا لأنواع كثيرة من الجماهير والقراء متعة التماهي مع شخصياته". ولعل اهتمام شكسبير بدواخل الشخصية هو ما يفسر خلوده، فالسياسة تتغير والموقف من المرأة يتبدل، لكن الموقف الإنساني لا يتغير، وفي كل مسرحية شكسبيرية إنسان، الملك لير هو أب أولاً وملك ثانيًا. علاوة على ذلك فهو أب يواجه موقفًا سيُخسِره ابنته الأخيرة التي ستتزوج، وهو حاكم على شفا التقاعد المبكر. وهاملت أمير قَتل عمه والده واغتصب عرشه، لكنه طالب جامعي أيضًا، لا يستطيع أن يتصالح مع فكرة فقدان أبيه. إن فقدان العرش فكرة يمكن أن تناقش، أما فقدان الأب فليس كذلك. هذه مواقف إنسانية لا تنحصر بالملوك والأمراء فقط، فالإنسان "صنف سرمدي"، هكذا يصفه زوربا.

بالنسبة إلى كازنتزاكيس شكلت عبارة نيتشه الشهيرة: "لن تغلبوهم بقوة السلاح بل بقوة الروح"، نقطة البدء بالتفكير بشخصية زوربا اليوناني، وقد أشار إليها كثيرًا في رسائله ويومياته. اقترح نيتشه قانونًا واحدًا لهذا الانتصار يلخصه في كتابه الشهير (هكذا تكلم زرادشت): "الحق أن من يكون خالقًا في مجال الخير والشر، عليه أولاً أن يكون محطمًا وهادمًا للقيود والقيم المتناقضة". بدأ زوربا حياته بمحاولة الكشف عن التناقض بين الفطرة الإنسانية والقيود

الاجتماعية، فأنفق حياته في التحرر منها وتحطيمها. لقد تزوج، لكن هموم الأسرة حالت بينه وبين ممارسة هوايته المفضلة، العزف على آلة السانتوري، فقرر الهجرة. وشعر أن رغبته تقيده، فأشبعها إلى حد التخمة: "عندما أرغب في شيء آكل منه حتى التقزز كي أتخلص منه، ولا أفكر به مطلقًا، أو أفكر به باشمئزاز، فالإنسان يتحرر بأن يشبع من كل شيء، لا بأن يزهد فيه ويبتعد عنه. هذه هي الحرية، أن تهوى شيئًا، كأن تجمع قطع الذهب وفجأة تتغلب على هواك وتلقي بكنزك في العراء. أن تتحرر من هوى، كي تخضعه لهوى آخر أكثر نبلاً".

***

"يبدو لي أن وضع كتاب لي بين يدي شخص ما هو إلا إحدى أندر المزايا التي يمكن للمرء منحها لنفسه"

نيتشه

عندما سئل أمبرتو إيكو عن تجربته في كتابة روايته (اسم الوردة)، أجاب: "كنت أحاول أن أمزج بطريقة هوجاء بين الأفكار الأكثر غرابة. كنت أقول مازحًا، ما فعله نيتشه في (هكذا تكلم زرادشت)، أو ما فعله جيمس جويس في (يوليسيس)، أحاول أن أفعله في رواية فلسفية مشوقة. ولكني اكتشفت بعد ذلك أن علينا أن نترك العظماء فوق عروشهم دون إزعاجهم".

يعلمنا فردريك نيتشه المولود عام 1844، أن علينا ألا نقرأ الأدب والفلسفة على أنهما نوع من أنواع الكتابة، وإنما أن نقرأ كلا الأمرين على أنهما شكل من أشكال الحياة. يوصف كتاب (هكذا تكلم زرادشت) الذي نشر ما بين عام 1883 و1885، بأنه رحلة روحية في العالم الحديث، ونيتشه

نفسه قد دعاه: "دعوة صادرة من أعماق نفسي". فالكتاب يقدم آراء نيتشه الفلسفية في قالب فني، ويمثل الاتجاه الصوفي الذي اتخذه في أواخر حياته. يكتب نيتشه في (هذا هو الإنسان) أن: "الفكرة الرئيسة في كتاب (هكذا تكلم زرادشت) هي فكرة العود الأبدي، لقد دونت تلك الفكرة في مذكرة سريعة على ورقة مع حاشية تقول: ستة آلاف قدم وراء الإنسان والزمن. في يوم من عام 1881، كنت أتمشى عبر الغابات وتوقفت بجانب صخرة ضخمة مرتفعة على شكل هرم، وهناك طرأت لي الفكرة. حيث اكتشفت علامة تحذير على شكل تغير فجائي وعميق طرأ على ذوقي - وخاصة في مجال الموسيقى. وربما يمكن توصيف كتابي (هكذا تكلم زرادشت) بالكامل على أنه موسيقى - فأنا متأكد من أن ولادة جديدة، نوع من عصر النهضة في داخلي عن فن الإنصات، كان شرطًا لازمًا لهذا الكتاب".

منذ صدوره اعتبر كتاب (هكذا تكلم زرادشت) من أكثر الكتب إثارة للجدل، حاول نيتشه أن يقدمه إلى المطبعة بجزءين، وقد تأخر صدور الجزء الأول بسبب انشغال المطبعة بطبع نسخ من التراتيل الدينية، وعندما أرسل الجزء الثاني إلى الطبع رفض صاحب المطبعة طباعته بدعوى أنه كتاب فاشل. وكان كلام الناشر صحيحًا، فلم يبع من الجزء الأول سوى أربعين نسخة، حيث أُستقبِل الكتاب ببرود وتجاهل من قبل المهتمين بالفلسفة، فلم يرحب به أحد، بل حتى زملائه السابقين في الجامعة اعتبروا الكتاب فاشلاً لأنه يريد أن يقتل جميع الأديان والآلهة: "لأنني عشت جميع الأخطار، فسأدفنكم بيدي أنا، لقد ماتت الآلهة القديمة منذ زمن بعيد، ولقد كانت نهايتها حسنة وفرحة". ويذهب نيتشه أبعد من ذلك حين يعلن: "إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية"، تلك هي القيم التي بشّر بها زرادشت نيتشه فليس الوجود إلا "الحياة"، وليست الحياة إلا

"الإرادة"، وليست هذه الإرادة إلا "إرادة القوة". بعد ذلك نسمع زرادشت وهو يقول واعظًا: "عيشوا حياة الأخطار وأقيموا مدنكم إلى جانب الأقوياء، وابعثوا بسفنكم إلى البحار المجهولة، ثم عيشوا حالة حرب".

يؤكد نيتشه أنه ما من أحد قادر على إنتاج عمل فني عظيم من دون تجربة، أو تحقيق مكانة دنيوية متميزة، ولهذا نجده معجبًا بالفيلسوف الإغريقي أبيقور الذي اعتبره "مسكن الأرواح" و "أحد أعظم البشر، مبتكر أسلوب بطولي - رعوي من التفلسف". لم يكن كتاب (هكذا تكلم زرادشت) إلا حلمًا من الأحلام التي تسجلها العقول المتميزة، وكما اعترف نيتشه: "إنها روح طغت على كل ما يحدها".

***

"أريد تفسير تصور للحياة خاص وفردي، كذلك نظرية عالمية خاصة ونظرية في قدر الإنسان، وبعدها، بناءً على هاتين النظريتين، وبترتيب وعزم وبرنامج محكم، أكتب ما سأكتبه"

كازنتزاكيس

ولد نيكوس كازنتزاكيس في الثامن من شباط عام 1883 بجزيرة كريت اليونانية، وعاش كما عاش أبطال رواياته، لم يترك أرضًا إلا زارها ولم يصادف فرصة إلا واغتنمها، تلقى تعليمه الأول في الجزيرة بعد ذلك حصل على شهادة عليا في القانون من جامعة أثينا. سافر إلى باريس لدراسة الفلسفة وتتلمذ على يد الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون الذي ترك تأثيرًا كبيرًا على حياته. قضى عامين في دير للرهبان حيث عاش تجربة روحية قاسية، في عام 1945 عين وزيرًا للتعليم في اليونان، لكنه سرعان ما اعتزل العمل

الوظيفي ليتفرغ للكتابة، ويستقر بعدها في فرنسا. وكانت كتبه قد ترجمت إلى معظم لغات العالم، داهمه المرض وهو في الرابعة والسبعين من عمره حيث توفي في أحد مستشفيات ألمانيا، وكان قد أصدر في أواخر حياته كتابين عن أهم أساتذته؛ برجسون ونيتشه.

تدور أحداث رواية (زوربا) أو كما سميت بالترجمة الحديثة عن اليونانية (حياة ألكسيس زوربا ومغامراته) حول شخصيتين من عالمين مختلفين. الأول كاتب نصفه يوناني ونصفه الآخر بريطاني اسمه باسيل، يرث منجمًا للفحم مع الأراضي المحيطة به في جزيرة كريت. والثاني عامل بسيط يبحث عن عمل.

والرواية تروى أحداثها على لسان باسيل الذي أمضي حياته في قراءة الشعر والتأثر بالفلسفات البوذية والكونفوشية والإعجاب الشديد بالشاعر الإيطالي دانتي. تبدأ الأحداث عندما يقرر هذا الراوي - الكاتب -أن يغير نمط حياته، ويسافر إلى كريت ليتعرّف على أملاكه الجديدة ويفتتح المنجم القديم. فنجده في الصفحة الأولى وهو يجلس في مقهى مرفأ بيرايوس، ينتظر السفينة المبحرة إلى كريت. ويشعر أن هناك من يراقبه، فيتلفت حوله فيرى رجلاً عند باب المقهى يحدق به. يسير الرجل إليه ويقدم نفسه باسم ألكسيس زوربا. ويصف نفسه بأنه خبير في أعمال المناجم ويريد عملاً. يعجب باسيل بشخصية زوربا ويأخذه معه إلى كريت، وفي الرواية نتعرف على وجهة نظر باسيل بزوربا: "وعرفت أن هذا الرجل لم يذهب إلى المدرسة، كلا ولا صقلت رأسه، ولكنه خبر الأمور كلها وامتزج بها جميعًا، فاتسع قلبه وتفتح عقله من غير أن يفقد غرامًا واحدًا من جرأته البدائية. لهذا كان زوربا مثل الثعبان الذي تقدسه بعض الشعوب البدائية لالتصاقه بالأرض. إنه عليم بأسرار الأرض وإنه كذلك لوثيق الصلة بهذه الأرض".

في جزيرة كريت يبدأ زوربا العمل حيث يجد أن المنجم يحتاج إلى تدعيم، يفكر باستخدام أشجار الغابة القريبة التي يملكها الدير. فيتودد إلى الرهبان ويسهر معهم. وبعد عدة أيام يعود ويرقص رقصة تبهر باسيل الذي يدرك من رقصه أنه نجح مع الرهبان. يتعرّف باسيل على الأرملة الشابة الجميلة التي يضايقها القرويون لأنها تمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها. ورفضت طلب شاب مغرم بها مرات كثيرة. يشعر باسيل بالميل إليها، لكنه يتردد في الاقتراب منها، ثم تأخذ الأحداث منحًى آخر حيث ينشر أحد القرويين خبر علاقة الأرملة بباسيل، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى محاصرة الأرملة في باحة الكنيسة وقتلها على يد والد الشاب الذي انتحر بسبب حبه لها.

يؤكد كازنتزاكيس أن (زوربا) شخص من لحم ودم، رجل عجوز يعيش في إحدى قرى كريت، كان يحبه كثيرًا، بل إنه واحد من الأشخاص الذين تركوا في نفسه أثرًا كبيرًا، وفي مقدمة الرواية يكتب: "لو إنني أردت أن أذكر الأشخاص الذين تركوا أعمق الأثر في نفسي، فلعلني أذكر بصفة خاصة ثلاثة أو أربعة: هوميروس، وبرجسون، ونيتشه وزوربا"، وبعد ذلك يقول لو كان بمقدوره أن يختار في هذه الحياة مرشدًا هاديًا روحيًا لاختار بلا تردد زوربا. ويرجع السبب في تأثير زوربا على كازنتزاكيس هو لامتلاكه النظرة الفطرية للأشياء، والبراءة الخلاقة التي تتجدد في نفسه كل صباح، والتي تجعله دائمًا في تطلع مبهور إلى جميع الموجودات، كما أنه يملك في داخله قوة قادرة على تجاوز كل العوائق الأخلاقية والدينية. إن زوربا يمثل التفاهم بين الطبيعة والإنسان مثله مثل زرادشت في كتاب نيتشه، لقد كان العالم بالنسبة لزوربا رؤيا ثقيلة لكنها واضحة، وهو يعيش في هذه الحياة في صداقة مع الطبيعة دون تدخل العقل الذي يشوه الأشياء. وقد استطاع بفطرته هذه أن يحب ويكره ويقاتل ويعمل ويحل جميع المشكلات التي تعترض طريقه دون

الرجوع إلى الكتب وأقوال الفلاسفة، أما الكاتب فهو نتاج الثقافة الأوروبية الحديثة، اختار البوذية كطريق للخلاص الفردي، وكان يؤمن أن كل إنسان هو جزء من الطبيعة التي يحصل من خلالها على هدوء الروح. وعندما يلتقي بزوربا يكون في حالة زهد بالطعام والشراب والجنس، لكنه يعاني من قلق الروح، الأمر الذي يجعله مشلولاً، شاردًا، أشبه بالمخدَر، ولهذا يصر زوربا ألا يتركه في سكون ويبدأ يعلمه كيف يستخدم جسده وحواسه، فنجده في النهاية يقول: "سأدرب حواسي الخمسة، جسدي كله، كي يتمتع ويفهم. سأملأ روحي بالجسد وأملأ جسدي بالروح. سأوافق أخيرًا في نفسي ما بين هذين العدوين الأبديين". كانت هذه هي الخلاصة التي خرج بها الكاتب بعد أن عاش الحياة الحقيقية مع العجوز زوربا.

كان طموح هنري برجسون في بداية حياته أن يصبح شاعرًا، وكان يؤمن في شبابه أنه ليس هناك هدف روحي للحياة، وكتب ذات مرة إن: "نظرة واحدة في المجهر تبدد إلى الأبد زهو أشد المؤمنين حرارة بالخلاص البشري". لكن حدث ذات مرة أن عنفه أحد أساتذته لإهماله ترتيب كتبه، فسأله الأستاذ: "كيف تستطيع روحك كأمين مكتبة أن تتحمل مثل هذا الإهمال في النظام والترتيب؟" فما كان من رفاقه في الصف إلا أن أطلقوا صيحة واحدة قائلين: "إن برجسون لا روح له". بعد هذا الموقف تحول برجسون لدراسة الفلسفة المثالية، حيث بدأ يفقد الثقة بأنابيب اختبار المعامل ومعادلات علماء الرياضيات والتعاريف الدقيقة التي يضعها الفلاسفة. وأخذ يسأل نفسه كيف يمكن للأشياء المادية في وقت ما أن تفسر الشيء الجوهري الوحيد الذي تحدى التفسير؛ ألا وهو معنى الوجود. لم يكن تحوّل برجسون من مفكر مادي إلى فيلسوف مثالي ليتم في لحظة، ففي بادئ الأمر لم يستطع أن يفسر، حتى لنفسه إلى أين كانت تقوده أفكاره، ولكنه بدأ يشعر شيئًا فشيئًا

أن نوعًا من الإدراك الشاعري الغريزي قد سيطر على تفكيره. بعدها ازداد اقتناعه أكثر فأكثر بأن العقل البشري ليس آلة بأية حال، ودلل على ذلك بتساؤله إذا كان من الممكن لخليط آلي من القوى الطبيعية أن ينتج مسرحيات شكسبير؟ وهل يمكن بأي ترتيب رياضي لحروف الهجاء أن نحصل على عظة الجبل التي ألقاها المسيح؟ وهل يمكن للتركيب الكيمياوي المسمى هنري برجسون أن يفسر بلاغة محاضراته واستجابة جمهوره من المستمعين؟

يمدنا برجسون في كتابه (منبعا الأخلاق والدين) بفلسفته الخاصة التي يرجعها إلى عنصرين مهمين هما: الأخلاق والدين. ففي الإنسان يوجد دافع غريزي نحو التعاون الاجتماعي وهو حسب رأيه يأتي من الله، ومع ذلك عندما حصل الإنسان على العقل أو الذكاء في البداية كان هناك خطر شديد وهو أن تجعله قوته العقلية أنانيًا إلى حد كبير، وأن يستخدم عقله المكتسب حديثًا لأغراض فردية تضر المجتمع، وتناقض أغراض الدفعة الحية. ولمنع هذه الكارثة قامت الطبيعة بدفع الأفراد إلى الشعور بأنهم يواجهون إرادة المجتمع، تلك الإرادة التي يُعبر عنها بالعادات والتقاليد والمحرمات التي يشعرون أنهم مجبرون على الخضوع لها، وقد نشأ فيما بعد خطر مضاد للتطور البشري إذ أصبح ثقل العادات والمحرمات مسؤولاً عن تقاعس الجنس البشري عن طريق قصورها وقسوتها، وهددت الحرية بالضياع وأصبح التقدم مستحيلاً، ويعتقد برجسون أن الدين لو وظّف بشكله الصحيح لاستطاع أن يعمل كثيرًا لتعزيز تقدم البشرية. وهو يرى أننا بحاجة إلى مجتمع أكثر روحانية وقيم اجتماعية عادلة وديمقراطية، مجتمع يخلو من الحروب والمنازعات، مجتمع تستطيع البشرية أن تعيش فيه بحب وإنسانية، وإن الإنسان يستطيع أن يبلغ حياة أفضل في هذا العالم لو أنه بذل المزيد من الجهد الإنساني الضروري.

في يومياته (تقرير إلى غريكو) يلخص كازنتزاكيس فلسفته الإنسانية وهي: "ثمة واجبات ثلاثة على الإنسان أن يؤديها؛ أولها واجبه نحو عقله الذي يفرض النظام على الفوضى ويشكّل القانون ويقيم الجسور فوق عالم اللامفهوم، ويضع الحدود المعقولة التي لا يجرؤ أحد على أن يتخطاها، ثانيها واجبه نحو قلبه الذي لا يعترف بحدود، والذي يتوق إلى النفاذ وراء الظواهر ليمتزج بما هو أبعد من العقل وبما هو وراء المحسوس، أما واجبه الثالث فهو أن يحرر نفسه من العقل والقلب وما يقدمه كلاهما من أمل في إخضاع الظواهر الطبيعية واكتشاف جوهر للأشياء، ثم من واجبه أيضًا أن يحتضن هاوية الزوال بلا أمل، وألا يعترف بشيء لا بالحياة ولا بالموت، وأن يتلقى هذه الحميمية بسمو وشجاعة، عندئذ يستطيع الإنسان أن يقيم لحياته بناءً راسخًا فوق الهوة السحيقة التي لا مفر منها وقد سرى في بدنه الفرح المشوب بالحزن".

16

عندما يقرر الكاتب أن يدلي بشهادته التي تحمل ضدًا فكريًا واجتماعيًا

"لقد ساعدتني القراءة كثيرًا في تأليف كتابي. فكل الكتب التي قرأتُها منَحتني أفكارًا وخواطر للكتابة. ولولا الكتب، ما كان لي أن أكتب كتابًا قصصيًا الآن"

جوناثان سويفت

حين كنت في العاشرة من عمري وقعت بيدي مجموعة قصص للأطفال كتبها كامل كيلاني، ومثل أي صبي شعرت آنذاك أن هذه القصص كتبت لي وحدي، كان منها مجموعة بعنوان (قصص ألف ليلة وليلة) وأخرى تحت عنوان (روبنسن كروزو) ومجموعة (رحلات جليفر)، أتذكر منها (جليفر في بلاد العمالقة) و (جليفر في بلاد الأقزام)، وكانت هناك قصص أخرى لا تسعفني ذاكرتي الآن بتذكرها. كان الإحساس الأول وأنا أطالع هذه القصص التي امتازت برسوماتها الملونة، هو الشعور بأنني جزء مما يرويه الكاتب، فمرة أكون صديقًا لعلي بابا، ومرة أضحك على المواقف التي تصادف جحا، ومرات أجد نفسي مختنقًا وأنا أتابع مصير جليفر في بلاد الأقزام. أيام كنت قارئًا مولعًا بالقصص المصورة، كان اسم كامل كيلاني يتكرر في معظم الكتب التي كنت أطالعها، وبعد ذلك بسنوات عرفت أن

كيلاني يعد رائدًا من رواد كتابة القصة للأطفال والفتيان، حتى أن طه حسين كتب مقالاً يضعه فيه بمصاف الدنماركي هانز كريستان آندرسن. ويخبرنا عميد الأدب العربي أن آندرسن مثل كامل كيلاني عاش حياته وهو يبحث عن الحكايات ليعيد صياغتها. كان كامل كيلاني المولود عام 1897 شغوفًا بالحكايات الخرافية، وهو يقول في كتيب صغير عن تجربته في كتابة قصص الأطفال إن: "الأسطورة كانت دعامة حياتي، ويرجع هذا إلى أنني ولدت في أحضان جبل المقطم، وكنت الابن الرابع عشر في العائلة، ولم يظفر في الحياة سواي، نشأت في جو صحراوي يعبق بالأساطير والأغاني، فألفت منذ طفولتي العزلة، وفلسفتي في هذا أنني لا أرتبط بالعالم إلا من خلال الكتب". كان الدنماركي هانس كريستيان آندرسن يضع على بطاقات ورقية برنامجًا للقراءة، يسجل من خلالها قائمة الكتب التي عليه أن يطلع عليها.

نشأ هانس كرستيان آندرسن في جزيرة جنوب الدنمارك - ولد عام 1808 - والده إسكافيًا، كان يعشق الكتب، يقرأ في المساء لابنه الصغير بصوت عالٍ حكايات لافونتين ومسرحيات شكسبير. وعلى عكس الأب، كانت الأم تؤمن بالسحر والخرافات، ويكتب هانس في يومياته أنه كان طفلاً حالمًا غريب الأطوار، وحينما كان يمشي في الطرقات يغمض عينيه، لذلك كانت الناس تظن أنه مصاب في عينيه. لم يكن في طفولته يوحي بأمل كبير، فهو صبي غريب الأطوار، عصبي المزاج، معتل الصحة، لم يحب المدرسة التي تركها بعد أن تعلم القراءة والكتابة، ليعمل في أحد مصانع النسيج، وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره اتخذ قراره النهائي بالرحيل إلى العاصمة كوبنهاكن بحثًا عن الشهرة والمجد.

في العاصمة التي وصلها نهاية عام 1819 لم تكن أبواب المجد مفتوحة أمامه، فقد كان يحمل معه نصًا مسرحيًا إلى أحد المسارح، وكان الجواب:

"نظرًا لما يتضح في كل صفحة من صفحات هذه المسرحية من جهل فاضح بالمبادئ الأولية للعلم والثقافة، فإن من المستحيل بالنسبة لأي مسرح أن يصنع منها شيئًا يستحق العرض على الجمهور". على أن السنوات التي تلت هذا الفشل كانت حافلة أيضًا بالخيبات، فبعد أن قضى تسعة أشهر في تعلم الغناء، خذله صوته، بعدها توجه لكتابة الشعر فاستقبله النقاد بحملة من السخرية. بعدها جرب حظه في كتابة الرواية فكتب ثلاث روايات حققت بعض النجاح، لكنها لم تنقله إلى الشهرة، فقد ظل أديبًا من الدرجة الثانية. يكتب في دفتر يومياته: "في تلك السنوات كنت أحاول أن أقلد غيري، ولكني في لحظة ما قررت أن أكون نفسي. أن أكون هانس كرستيان آندرسن". كان ذلك عام 1835 حين أصدر أول مجموعة من القصص الخيالية للأطفال، وما إن صدرت حتى حققت نجاحًا كبيرًا وترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية، لينشر بعدها مجموعته الثانية والثالثة. عام 1841 ينشر المجموعة السادسة، حيث بلغ مجموع الحكايات التي قدمها للأطفال 156 حكاية اشتهرت فيما بعد باسم (حكايات هانس كريستيان آندرسن). كان آندرسن يستلهم قصصه الخيالية من مصادر كثيرة، من ذكريات طفولته، من تجاربه في الحياة ورحلاته، ومن الطبيعة التي عشقها. ولهذا حملت قصصه مسحة عميقة من الحزن والألم، وتطلعًا دائمًا إلى السعادة والأمل، وعطفًا بالغًا على الفقراء والمحرومين، كما يتضح في حكايته الشهيرة (بائعة الكبريت الصغيرة) التي تموت في ليلة عيد الميلاد متجمدة من البرد، بعد أن فشلت أعواد الكبريت التي تبيعها في تدفئتها، وهي تحلم بمتع الحياة المحرومة منها في الوقت الذي يحتفل فيه الناس بالعيد. قبل وفاته بأيام قال آندرسن لأحد معارفه: "إن حياتي كلها برغم صعوبتها لم تكن سوى حكاية جميلة".

الآن بعد كل هذه السنوات، أسال نفسي ما الذي استفدته من القراءة

عندما كنت صبيًا، لقد أطلقت هذه الكتب العنان لمخيلتي، ومنحتني عالمًا جميلاً منسجمًا، وأيًا كانت مكاسبي من القراءة، فإنها ستظل الشيء الوحيد الذي لا يزال يسحرني. يكتب هنري ميللر أن الخيال هو طريقة غير مباشرة للاقتراب من الحياة، ولاكتساب رؤية شاملة للكون.

***

عندما قرأت رحلات جليفر للمرة الأولى، كنت أحسبها مجرد رحلة مسلية لأحدهم، في بلاد العمالقة تارة، وفي بلاد الأقزام تارة أخرى، خصوصًا أن هذه الرحلات تزدان بالرسوم الجذابة، مثل أي كتاب يخصص للأطفال فقط. كان جوناثان سويفت في التاسعة والخمسين من عمره عندما قرر نشر كتابه (رحلات جليفر)، ويخبرنا أنه بدأ كتابة رحلاته الغريبة عام 1714، وكان هدفه من الكتاب السخرية من العالم المحيط به. يكتب في رسالة إلى أحد أصدقائه: "إن أدب السخرية كالمرآة يكشف فيها الناظرون عادة وجوه الآخرين، لا وجوههم. ولعل هذا تفسير للقول الذي يلقاه هذا النوع من الأدب في العالم، وفيه تفسير أيضًا لقلة من يجد فيه مثارًا لغضبهم". كان سويفت أميًا في تفكيره، ومع أن ميوله الدينية والسياسية كانت محافظة، إلا أن كتبه وخصوصًا (رحلات جليفر) تسببت في كثير من الإحراج للكنيسة الإنكليزية وللحزب المحافظ الذي كان ينتمي إليه. ورغم أنه تعرض للنقد من أصدقائه داخل الحزب المحافظ، إلا أنه قرر أن يقدم شهادته الأدبية تعبيرًا عن ضميره الاجتماعي.

ولد جوناثان سويفت عام 1667 من أبوين إنكليزيين في إيرلندا، وأمضى هناك الجزء الأكبر من حياته، حيث تلقى تعليمه الجامعي في إحدى كليات دبلن. وعندما بلغ الثامنة والعشرين من عمره قرر أن يصبح من رجال الدين، وفي تلك السنوات نشر كتابين هما: (معركة الكتب)، تناول فيه

الجدل الذي أثير آنذاك حول الأدب المعاصر والأدب الكلاسيكي، وكتاب (قصة برميل)، وفيه يتعرض إلى سوء استخدام الإنسان للمعرفة والدين. بعدها يُعين أسقفًا لكاتدرائية سانت باتريك، وفي هذه الفترة نراه يتخذ موقفًا متشددًا من الحرب الإنكليزية الفرنسية، ويكتب المقالات ضد حزب الأحرار الذي شن الحرب ضد فرنسا، وعندما تسلمت حكومة المحافظين السلطة وسعت إلى إيقاف الحرب نشر كتابًا بعنوان (سلوك الحلفاء)، ساند فيه معاهدة السلم مع فرنسا، بعدها تبدأ المرحلة الثانية من حياة سويفت وفيها ساند الشعب الإيرلندي في مطالبه بالاستقلال، وأصبح فجأة معبود الإيرلنديين. وفي تلك الفترة بدأت مرحلة الإنتاج الأدبي ليتوجها برحلات جليفر التي تعد أنضج مؤلفاته وأكثرها عمقًا، وقد اعتمد في كتابتها على قراءات عديدة للأدب الكلاسيكي. ويصنف النقاد (رحلات جليفر) على أنها عمل مأساوي، حيث المأساة في نظر سويفت في اللاعقلانية التي تسود تصرفات الإنسان. وقد كان سويفت يبني قناعاته على فلسفة العقل وقيمتها الأساسية في تحديد سلوك البشر، وقد كتبها سويفت تحت تأثير اعتقاده الراسخ بأن رؤية الذات ومعرفتها على حقيقتها ستؤدي في نهاية الأمر إلى السلوك السليم. وكان هدفه من (رحلات جليفر) كما يخبرنا في يومياته هو: "إصلاح العالم"، فهو يؤمن بنظرية أرسطو التي تقول إن جوهر الإنسان يكمن في روحه العاقلة، وكما قال الفيلسوف الإنكليزي جون لوك، والذي كان معاصرًا لسويفت، فإن قانون الطبيعة هو قانون العقل: "ولا تُنظم أمور الإنسان إلا عندما تطابق النظم الاجتماعية نظرية الطبيعة البشرية الحقة". وقد كان سويفت يتألم لأن الإنسان لا يستغل قدراته العقلية أحسن استغلال، بل إنه يتصرف وكأنه أقل بكثير من مستواه العقلي. والمشكلة التي واجهت سويفت هو اختيار القالب المناسب للموضوع الذي يعبر عن أفكاره، ووجد الحل في أدب الرحلات الذي اتخذ منه وسيلة للتعبير

عن أفكاره ووجهة نظره في المجتمع الإنكليزي، حيث نجده يسخر من عالم السياسة ومن رجال السلطة والحكم، ومن النظام الملكي الذي يتهمه بالفساد والنفاق ونشر الدسائس والمؤامرات. يصرح جوناثان سويفت بأن غايته من كتابة (رحلات جليفر) أن: "يوبخ الناس ويقرعهم، لا أن يُسليهم ويرفّه عنهم".

يبدأ الكتاب على لسان جليفر الذي يروي لنا طفولته ونشأته واحترافه لمهنة الطب وركوبه البحر على متن إحدى السفن طبيبًا لركابها. ويخبرنا سويفت أن جليفر شخصية مستقلة يجب ألا نخلط بينها وبين المؤلف، وهو كما يقول نموذج للمواطن الإنكليزي من الطبقة المتوسطة، لا يتميز بقدرات عقلية هائلة، لكنه شجاع وواسع الحيلة: "لقد كنت أريد أن أقدم شخصية قريبة من ذهن القارئ". توصف (رحلات جليفر) بأنها سلسلة من الرحلات الفلسفية تتسم بالإثارة أحيانًا وبالخيال أحيانًا كثيرة. والكتاب أيضًا رحلة استكشاف في خفايا النفس البشرية. يكتب جورج أورويل أن: "(رحلات جليفر) تنقل القارئ من حالة الرضا التام المبني على الجهل الذي يتصف به الإنسان أحيانًا إلى حالة الرفض التام الذي يتبع اكتشاف الحقيقة"، ويتذكر جورج أورويل أن والدته كانت تقرأ له في الأمسيات صفحات من الرحلات. عام 1940 يكتب أورويل مقالاً بعنوان (السياسة في مقابل الأدب.. فحص رحلات جليفر) يمتدح فيه فهم جوناثان سويفت العميق لمفهوم الشمولية: "يتمتع سويفت برؤية مسبقة واضحة بصورة غير عادية للدولة البوليسية المستندة إلى تفشي التجسس ومحاكمات الخونة ومطاردات المنشقين التي لا تنتهي بهدف القضاء على التذمر الشعبي وذلك عن طريق تحويله إلى هستيريا الحرب وجنونها". إلا أن أورويل يؤكد في مقاله أن رؤية سويفت العميقة إلى شرور الشمولية لا تجعل منه مؤمنًا بالديمقراطية

أو كارهًا للطغيان، إضافةً إلى أنه لا يظهر أي تحمس للدفاع عن العدالة الاجتماعية. ويعزو أورويل السبب إلى كره سويفت للحكام والمحكومين على حد سواء. ويرى أورويل أن سويفت يصوّر لنا نواة الدولة الشمولية بكل معانيها، ففي المجتمع الذي يصوره سويفت في (رحلات جليفر) تختفي الحرية تمامًا كما يتجمد التطور، ويأخذ أورويل على سويفت أنه كان جزءًا من هذا النظام الشمولي.

في الوقت نفسه نجد الفيلسوف البريطاني الشهير برتراند رسل في مقاله عن (رحلات جليفر) يقارن سويفت بتولستوي، فيكتب أن سويفت شأنه في ذلك شأن تولستوي يشتركان في الإيمان بأنه ليس في إمكان الإنسان تحقيق السعادة، ويتهمهما رسل أنهما يضيقان بالمعارضة، ويخفيان نزعة نحو التسلط. إلا أن أورويل برغم وصفه لسويفت بالرجعية إلا أنه في نظره متمرد يحطم المقدسات، وبأنه مع محافظته ينزع إلى الفوضوية: "نحن على حق عندما ننظر إلى سويفت على أنه متمرد يسعى إلى تحطيم المقدسات التقليدية، إنه محافظ نخبوي، يحتقر السلطة دون أن يؤمن بالحرية، في حين يرى بوضوح أن الارستقراطية القائمة ارستقراطية منحلة تستحق الاحتقار". تخبرنا السيرة الذاتية لتشارلز ديكنز أنه كان يقرأ باستمرار (رحلات جليفر) ويكتب في يومياته: "كان من الصعب عليّ التفكير بكاتب أعشقه مثل جوناثان سويفت بهذه الطريقة. شكسبير بالتأكيد، ربما جين أوستن، جميع هذه الأسماء محتملة. لكني ما زالت كل يوم أزداد إعجابًا بسويفت".

***

"عندما أجلس لكتابة كتاب لا أقول لنفسي سوف أنتج عملاً فنيًا أكتبه، لأن هناك كذبة ما أريد فضحها، حقيقة ما أريد إلقاء الضوء عليها، وهمي الأول هو أن أحصل على من يستمع، لكن

ليس بإمكاني القيام بمهمة تأليف كتاب، لو لم تكن تلك تجربة جمالية، إن أي أحد سيهمه فحص عملي سيجد أنه حتى عندما يكون دعاية سياسية صرفة، فإنه سيحوي الكثير مما سيعتبره سياسي محترف غير ذي صلة"

جورج أورويل

يجيب أورويل عن سؤال حول بداياته الأدبية فيقول: "منذ عمر مبكر أيقنت أنني سأكون كاتبًا، وقد كانت طموحاتي الأدبية مرتبطة بشعور العزلة التي كانت تسيطر عليّ، وامتلكت القدرة على التعبير بالكلمات، والطاقة على مواجهة الأحداث غير السارة، فخلقت بذلك عالمًا خاصًا بي أهرع إليه عندما تؤلمني مصاعب الحياة".

ولد جورج أورويل واسمه الحقيقي إريك هيو بلير في البنغال، أيام كانت جزءًا من الهند التي تخضع للنفوذ البريطاني، يوم 5/ 23 من عام 1903 وكان والده يعمل موظفًا في إدارة مكافحة المخدرات، وأمه ابنة تاجر خشب فرنسي. بعد عودة عائلته إلى إنكلترا يدخل مدرسة إعدادية خاصة، بعدها يختار كلية إيتون، وكان الكاتب الشهير آلدوس هكسلي أحد أساتذته، لكنه يقرر فجأة أن يترك الدراسة ليرحل إلى بورما للعمل في الشرطة الملكية. هناك يكتشف المعاناة التي يعانيها البورميون من جراء الحكم الإنكليزي، فيكتب روايته (أيام بورمية)، بعدها يقرر السفر إلى فرنسا، ثم يعود إلى إنكلترا حيث يعمل في مكتبة لبيع الكتب. ويسجل هذه الفترة من حياته في كتابه (متشرد في باريس ولندن)، وعندما تندلع الحرب الأهلية الإسبانية يذهب إلى برشلونة، ومن هناك يكتب تحقيقات صحفية لمحطة البي بي سي، ونجده يلتحق بالحزب العمالي للاتحاد الماركسي، ويشترك في القتال

مع القوات الجمهورية. يصاب في منتصف عام 1937 بجروح، ليعود إلى إنكلترا فيصدر عام 1938 كتابه (وفاء لكتلونيا) يروي فيه أسباب انفصاله عن حركة اليسار. عام 1943 ينضم إلى هيئة تحرير صحيفة الأوبزرفر، يتولى كتابة تقارير سياسية وأدبية فيها. سنة 1945 تنشر روايته (مزرعة الحيوان)، التي بيعت منها ملايين النسخ وترجمت إلى معظم اللغات، وقد حققت له هذه الرواية الشهرة والثروة، ورغم أن مرض السل تفشى في جسده إلا أنه استطاع عام 1948 تكملة روايته الأخيرة (1984)، ليرحل عن عالمنا بعد عامين من نشر الرواية عام 1950، وهو يبلغ من العمر ستة وأربعين عامًا.

كان أول اسم مقترح لرواية جورج أورويل (1984) هو (الرجل الأخير في أوروبا). يقدم لنا أورويل في روايته هذه عالمًا يحكمه نظام شمولي، وتدور أحداث الرواية في لندن التي يسميها أورويل "دولة أوشانيا العظمى" حيث تدير شؤونها أربع وزارات؛ هي وزارة الصدق ومهمتها تزييف الحقائق وإتلاف الوثائق التي تذكر الناس بالماضي، ووزارة السلام التي تتولى شؤون الحرب والإعداد لها، ووزارة الرخاء ومهمتها تخفيض الحصص التموينية المخصصة للأفراد، ووزارة الحب التي تُعنى بحفظ النظام وتنفيذ القوانين. في الرواية ترافقنا صورة "الأخ الأكبر" في كل مكان، وهي صورة لوجه ضخم بشارب أسود كثيف، وكتب تحت الصورة "الأخ الأكبر يراقبك"، ووسيلة الدولة في مراقبة الناس تتلخص في استخدام شرطة الفكر دوريات بطائرات هيلوكوبتر تقترب من النوافذ وسطوح المنازل بهدف التجسس على كل السكان.

تبدأ أحداث الرواية عندما يقرر مواطن اسمه ونستون سميث، يعمل في وزارة الصدق، أن يدون مذكراته. ونجده بعد تردد وخوف ينفذ الفكرة، فيبدأ بتسجيل أفكاره، ويكتب في الصفحة الأولى: "4 شباط 1984 ذهبت

الليلة الماضية إلى السينما التي لا تعرض شيئًا غير أفلام الحرب". كان ونستون يكره الحزب وشعاراته، ولم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من تذكر أيامه الماضية، قبل أن يتولى الحزب حكم البلاد، حيث كان الإنسان يحظى بالخصوصية ولم يكن خاضعًا للمراقبة. وأخذ ونستون يختلس فترات من السعادة من وراء ظهر الحزب، ونجده يتعرف على فتاة اسمها جوليا تعمل في قسم تأليف الروايات، يجمعهما الحب، إضافة إلى شعور بالتقزز والكراهية للحزب الحاكم، ونوع الحياة المفروضة عليهما وعلى سائر المواطنين. كانا يحملان معا حنينًا إلى عالم حر، وإلى ماضٍ كان جميلاً. وسرعان ما تتحول علاقتهما إلى علاقة محظورة بالنسبة للدولة، لكنها علاقة حب ملأى بالمشاعر والأحاسيس عند ونستون الذي تستيقظ في أعماقه فجأة، لم يكن يتخيل أنها موجودة داخله من قبل، واستمرا في لقائهما سرًا، يتحدثان عن العالم ويتبادلان الحب في غرف سرية. ثم يبدأ ونستون التفكير بصديقه أوبراين، وهو أحد أعضاء الحزب الذي يشعر ونستون أن ولاءه للحزب ليس تامًا، فقد شك ونستون أن أوبراين ينتمي إلى منظمة شديدة السرية والغموض تعمل ضد الحزب. ولكن لم يكن اعتقاد ونستون صحيحًا، فبعد أن أمسكت أجهزة الأمن بالعاشقين، أُخذا إلى وزارة الحب من أجل الاستجواب، ليجد أن أوبراين يشرف بنفسه على التعذيب، فانهار ونستون بعد أشهر، ليخون نفسه ويخون جوليا، ويستسلم لعملية غسل الدماغ، ويتعلم أن يحب الأخ الأكبر فقط وألا تكون له أي مصالح أو مشاعر فردية، ولا يفكر بشيء لم يسمح له الحزب الحاكم بالتفكير فيه. وعندها يطلق سراحه، ويعتبر مواطنًا مثاليًا، ولم يعد خطرًا على المجتمع.

يجمع نقاد الأدب على أن الروسي يفغيني زامياتين هو أول من كتب رواية تفضح أساليب الحكم الشمولي، عندما قرر نشر روايته (نحن) عام

1924، التي سرعان ما منعت. تدور أحداث رواية زامياتين في دولة يقودها شخص اسمه "المحسن الكبير" وفي هذه الدولة نجد كل مواطن خاضعًا لرقابة الآخرين، فجدران البيوت شفافة، بل إن الناس جميعًا يعيشون تحت قبة زجاجية ضخمة تعزلهم عن الطبيعة الخارجية بكل تفاصيلها. أما أسماء الناس فقد استبدلت بأرقام، بحيث أن لكل فرد رقمًا خاصًا به. وبطل الرواية رجل يحمل الرقم 503 وهو مهندس كلّف بالمساهمة في بناء مركبة فضائية ضخمة يراد لها أن تخترق فضاءات هذا العالم كي تنشر في العوالم الخارجية الدعاية الخاصة بدولة المحسن الأكبر. غير أن الرقم 503 سرعان ما يقع في غرام امرأة جميلة يتبين فيما بعد أنها تنتمي إلى جمعية تحاول مقاومة سلطة المحسن الاكبر، وسوف تقود المرأة هذا البطل إلى عالمها وتضمه إلى جمعيتها السرية بعدما جعله حبه لها يدرك جيدًا وضعه الحقيقي وحقيقة تلك الدولة التي يخدمها.

منعت رواية زامياتين، وبدأت المضايقات تطارده عبر حملات أجبرته على المكوث في بيته. وفي العام 1931، يتدخل مكسيم غوركي فيطلب من ستالين السماح لزامياتين بمغادرة البلاد، حيث يسافر إلى فرنسا ليعيش فيها السنوات السبع الأخيرة من حياته، مخلفًا لنا واحدة من أفضل روايات الأدب الاحتجاجي. يكتب جورج أورويل: "لقد حاول زامياتين أن يجعل نفسه مكشوفًا تمامًا. وهذا ما يجعل منه شخصية تتجاوز السلبية في ذلك البنيان المسيطر على الأفراد. لقد شعر بوضوح أن العالم يعيش في أزمة، ومن هنا قرر أن يدلي بشهادته التي تحمل ضدًا فكريًا واجتماعيًا".

17

كيف اكتشف أينشتاين وفوكنر النسبية والصخب الذي يحيط العالم

"القراءة تمد العقل بمادة المعرفة، ولكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرأه ملكًا خاصًا لنا"

جون لوك

في بداية ستينيات القرن الماضي طرحت مجلة (آخر ساعة) المصرية سؤالاً على عدد من الكتاب والمفكرين حول الكتب التي يقرؤنها، وكان السؤال من كلمتين: لماذا نقرأ؟ وقد تنوعت الإجابات، حيث كتب طه حسين أن القراءة هي زاد الشعب التي تنقله إلى حياة عقلية أرقى وأخصب، فيما اعتبر عباس محمود العقاد أن حبه للقراءة يمنحه أكثر من حياة واحدة، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق. ويقسم العقاد هذا العمق المعرفي إلى ثلاثة أقسام: "فالكتب العلمية تعلمنا الدقة، والكتب الأدبية توسع دائرة الشعور، وتكشف لنا الحياة والجمال، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وتنقل القارئ من المعلوم إلى المجهول". وكتب نجيب محفوظ أن: "لديَّ نهم حاد إلى القراءة. أقرأ في العلم إلى جانب الأدب والفن، لم أقرأ عملاً أدبيًا مرتين، كانت الرقعة واسعة جدًا، ونهمي إلى الجديد لا يسمح بقراءة عمل مرتين". وكانت إجابة توفيق الحكيم ظريفة مثل شخصيته، حيث كتب أن: "من أحبْ المطالعات

إلى نفسي كتب العالم الرياضي هنري بوانكاريه، خصوصًا كتابه (قيمة العلم) الذي دلني من خلاله على كتب العالم الشهير ألبرت أينشتاين، والغريب أنني حتى هذه اللحظة أعيد قراءة كتاب أينشتاين (النظرية النسبية)، وفي كل مرة لا أفهم سوى سطور قليلة، إلا أن العلم ذاته هو الذي يهمني. ورغم إنني رجل أدب، أنظر إلى هذا الكون وأفكر فيه ولكن بعيون أخرى، وعقل آخر".

يكتب هنري ميلر أن الكتاب ليس فقط صديقًا، بل يصنع لك أصدقاء. هناك الكثير من الكتب التي تعطي لنا انطباعًا بأنها أقرب من الأصدقاء. في كتابي الذي أصدرته بعنوان (في صحبة الكتب)، كنت قد وضعت قائمة بالكتب التي اعتقد أنها شكلت تأثيرًا على القراء، وأرفقتها بلائحة اعتبرها البعض غريبة، هي عن الكتب التي أصابتني بالحيرة. وهي دون أدنى شك تحتوي عناوين معروفة لكل القراء، مثل كتاب لينين (نظرية المعرفة) و (المنطق) لأرسطو، و (الوجود والزمن) لهايدغر و (النسبية) لأينشتاين، وما زالت هذه الكتب أعود إليها وفي كل مرة أصاب بالحيرة، لكنها تبقى كتبًا حية عبر السنين وستظل في حالة تداول مستمر. يكتب هنري ميلر أيضًا: "عندما تصادف كتابًا ترغب في قراءته، دعه وشأنه بضعة أيام، ولكن فكر فيه بأشد ما يمكنك من تركيز. دع العنوان واسم الكاتب يدوران في عقلك، اسأل نفسك بجدية إذا كان ضروريًا أن تضيف هذا العمل إلى مخزونك من المعرفة أو إلى ذخيرتك من المتعة".

أتذكر أنني كنت متلهفًا لقراءة كتاب (النسبية)، وحين حصلت على نسخة منه بترجمة اللبناني عبدالرحمن مرحبا، لم أستطع حل لغز الصفحات الأولى منه وحاولت أن أجد ضالتي في كتاب ممتع وصغير كتبه الصحفي المصري مصطفى محمود فوجدته يقول: "لقد تعددت المحاولات من العلماء

لتبسيط النظرية النسبية. وكان أينشتاين نفسه يحاول أن يبسّط مقولاته". ومن الطريف أن مصطفى محمود نفسه كان يهرب من قراءة كتاب أينشتاين، إلا أن بريد القراء الذي كان يحرره لمجلة (صباح الخير) حمل رسالة من قارئة تسأل عن النظرية النسبية، فقرر أن يقرأ كل ما يتعلق بالنسبية وصاحبها، ليخرج لنا بعد ذلك بكتاب ممتع نشرت حلقاته في مجلة (روز اليوسف) المصرية تحت عنوان (أينشتاين والنسبية).

***

"ما المعرفة البديهية إلا نتاج تجربة فكرية مبكرة"

ألبرت أينشتاين

في المختبر العلمي التابع لجامعة بريستون الأميركية يوجد في أحد الرفوف وعاء زجاجي قديم مملوء بسائل أشبه بعصير التفاح تعوم فيه قطعة مأخوذة من جسم إنسان. إنها جزء من مخ إنسان أدهش البشرية، فقد كان للدكتور توماس هارفي، وهو أخصائي بالأمراض المتعلقة بأسباب الموت، طريقه حالمة لفهم مسألة الحياة والموت، ولهذا قرر صبيحة يوم الثامن عشر من نيسان عام 1955 تقطيع دماغ رجل عجوز ليتمكن من تحليله واكتشاف الفروقات بينه وبين أدمغة البشر العاديين. وقد اضطر إلى استخدام منشار كهربائي لقطع الجمجمة واستخراج المخ، وقد واصل الدكتور هارفي على مدى ثلاثة وأربعين عامًا يفحص في هذا المخ ويعمل حارسًا له، ينتقل به من مكان إلى آخر هربًا من فضول وسائل الإعلام. إلا أنه بعد كل هذه السنوات لم يعثر على شيء غريب. كانت قطعة المخ التي احتفظ بها كل هذه السنين الطويلة وأشبعها دراسة وتحليلاً، هي مخ لرجل كان يسخر من

الذين ينشغلون بتفسير قدراته العبقرية العجيبة، ويقول للجميع: "ليست لدي قدرات خارقة أبدًا، إن كل ما في الأمر هو إني أكثر من الآخرين ميلاً إلى الريبة والتشكيك وحب الاستطلاع". كان صاحب المخ المسروق هو ألبرت أينشتاين الذي لو كان حيًا لسخر من محاولة توماس هارفي الذي ظل يصر على أن ينسب إليه عبقرية غير عادية.

ولد أينشتاين في الرابع عشر من آذار عام 1879 لأب يعمل مهندسًا كهربائيًا، كان يعيش حالة القلق الدائم لأن ابنه البالغ من العمر تسع سنوات بطيء الفهم، لغته لا تزال قريبة من لغة الأطفال الرضع. وذات يوم يسأل الأب معلم ابنه عن المهنة التي يصلح لها أينشتاين الصغير، فكان جواب المعلم صادمًا: "لن ينجح في أية مهنة". وتفاقمت حالته في المرحلة الثانوية التي دخلها فقد اكتشف الأساتذة أن مشكلته كانت "ذاكرته الضعيفة ولا سيما بالنسبة للكلمات والنصوص"، وقد أخبره مدرس اللغة أن أداءه السيء لن يجعله يصل إلى شيء، وكان مدرسون آخرون يعتقدون أن وجوده في المدرسة لن يضيف له شيئًا بسبب اختلال قدراته العقلية.

جاء أول حافز حقيقي في حياته من طالب فقير اعتاد تناول الطعام مع أينشتاين، فقد أحضر له هذا الطالب ذات يوم سلسلة كتب علمية مصورة. يقول أينشتاين: "قرأت تلك السلسلة باهتمام بالغ". وقد ساعد هذا الطالب أينشتاين على اكتشاف عجائب الرياضيات، وفي ذلك الوقت اكتشف الفلسفة وهو في عمر الرابعة عشرة حين أهداه عمه كتاب إيمانويل كانط الشهير (نقد العقل المحض)، ويكتب عمه فيما بعد: "يبدو أن أعمال كانط التي لا يفهمها البشر العاديون كانت واضحة بالنسبة إليه". وبعد سنوات نجد أينشتاين الشاب يتفرغ لدراسة أعمال كانط الفلسفية، وظل حتى وفاته يرى أن كانط الفيلسوف الوحيد القادر على التحدث إلى علماء الطبيعة بشيء

ذي فائدة. يكتب أينشتاين: "ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن العلوم الطبيعية اعتمدت بشكل أو بآخر على ما قدمه كانط في فلسفته".

في الخامسة عشرة من عمره يرسل لخاله مقالاً عن تأثير الفلسفة على العلوم، وكانت هذه أول مقالة يكتبها، وكتب على غلاف المظروف عبارة لكي يقرأها خاله: "لن أنزعج إذا لم تقرأ المادة مطلقًا". بعد ذلك بخمس سنوات، كان أينشتاين البالغ من العمر تسعة عشر عامًا شابًا عاطلاً، فإدارة المعهد الذي تخرج منه بتفوق رفضت تعيينه مدرسًا معيدًا، حيث اعتبره الأساتذة مغرورًا، وقال له أحدهم: "إنك شخص ذكي لكن يشوبك عيب واحد وهو أنك لا تقبل توجيهًا من أحد". وأمام هذه الأزمة الجديدة لم يجد مخرجًا غير إعطاء دروس خصوصية. وفي عام 1902 اضطره العوز لأن ينشر الإعلان التالي في إحدى الصحف المحلية الصادرة في ألمانيا: "مدرس بإمكانه تقديم دروس خصوصية في الرياضيات والفيزياء للطلبة، ميزته أنه يقدم دروسه بكل أمانة وإخلاص، حاصل على دبلوم من معهد البوليتكنيك، وبإمكانه إعطاء دروس مجانية على سبيل التجربة". ويفشل في هذه التجربة حيث لم يلتحق بدروسه الخصوصية سوى طفلين، كان كل منهما يدفع فرنكين مقابل كل درس.

في عام 1902 بدأ الفقر يطارده وساءت أحواله المالية لدرجة أنه كان ينام لأيام دون أن يتناول الطعام، الأمر الذي دفع أحد أصدقاء والده للتوسط بتعيينه في وظيفة بمكتب براءات الاختراع. كانت مهمته فحص هذه البراءة لتقديمها إلى المختصين، ووجد في هذا العمل متعة مكنته من التعرف على أفكار المخترعين الصغار. ونجده ذات يوم يسأل صديقه وهما يصيدان السمك في بحيرة: "لو تخيلنا أننا نستطيع أن نطير على شعاع من الضوء بسرعة 186 ألف ميل في الثانية، هل سيبدو هذا الشعاع في هذه الحالة ساكنًا؟"

وحين استغرب الصديق من هذا السؤال العبثي، قال له أينشتاين إن الأطفال يطرحون أحيانًا أسئلة وقحة وساذجة فيتدخل الكبار لإسكاتهم بإجابات تقليدية قد تكون عارية عن الصحة. وفي بداية عام 1905 أخبر أينشتاين صديقه بيسو بأنه على وشك حل لغز الكون، وبعدها بأشهر قدم بحثًا اعتبر النواة الأولى للنظرية النسبية، متحديًا أفكار الإنسان السائدة عن الزمن وعن الفضاء وعن المادة والطاقة. وضمت أسس هذه النظرية موضوعين أساسيين: الأول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية. وهناك مثل مألوف لهذه النظرية في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة. فالشخص الجالس في قطار ذي نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة، وبه قليل من الضوضاء، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة، ولا عن اتجاه سير القطار، وقد لا يشعر إطلاقًا بأن القطار يتحرك، والشخص الموجود في سفينة مقفلة النوافذ، يكون في نفس الموقف، لا يشعر بالحركة إلا من ناحية نسبية، أي بالنسبة لأجسام أخرى، وعلى نطاق أوسع، فإن الحركة الأمامية للأرض لا يمكن الإحساس بها إن لم تكن هناك أجرام سماوية لعمل مقارنة.

أما الفرض الثاني لأينشتاين فهو أن سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره، فسرعة الضوء البالغة 186000 ميل في الثانية ثابتة دائمًا في أي مكان على سطح الأرض، ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه. فمثلاً، في قطار متحرك، يسير الضوء بالسرعة نفسها تمامًا التي يسير بها خارج القطار. وما من قوة تؤثر عليه فتجعله أسرع أو أبطأ، وزيادة على ذلك، ما من شيء يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء برغم أن الإلكترونات تقترب كثيرًا من هذه السرعة، والواقع أن الضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها.

وعلى عكس تعاليم نيوتن، أكد أينشتاين أنه ليس هناك شيء يسمى

"حركة مطلقة"، وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم في الفضاء عديمة المعنى. فالحركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء، لا يوجد في أي مكان على سطح الأرض أو في الكون شيء ما في حالة سكون تام أو سكون مطلق، فالحركة مستمرة في جميع أنحاء عالمنا غير الساكن. كان أينشتاين قد أبلغ صديقه بيسو أن الأحداث الحاصلة في أماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لإنسان معين، ليست حادثة في اللحظة نفسها لإنسان آخر. فمثلاً إذا حكم بأن حادثين وقعا معًا في وقت واحد لإنسان على الأرض وآخر في قطار أو في طائرة، فالحقيقة أنهما لم يقعا في اللحظة نفسها. وبتطبيق هذه النظرية على الكون، فإن حادثًا وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلاً، وشاهده أحد سكان الأرض، فإن ذلك الانفجار لم يحدث في الوقت نفسه الذي شوهد فيه على الأرض، بل على العكس برغم أن سرعة الضوء 186000 ميل/ ثانية، فإن حدثًا وقع على نجم بعيد جدًا قد يكون حدث قبل وصول خبره إلى الأرض بسنوات. والنجم الذي يُرى اليوم هو بلا شك النجم نفسه الذي رؤى منذ زمن بعيد، مع أنه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد.

***قبل أكثر من ألفي عام عاش في إحدى جزر اليونان إنسان أطلق عليه اسم أبيقور لأنه كان محبًا لملذات الحياة، وكان أول من قال إن الكون يتكون من أجزاء صغيرة تسمى ذرات تتحرك بسرعة تفوق التصور. ويضرب أبيقور مثلاً بذلك غرفة مظلمة في منزل ينفذ إليها ضوء الشمس حيث يمكننا أن نرى من خلال الأشعة المنتشرة في المكان عددًا كبيرًا من الأجسام الصغيرة تتشابك في حركات مختلفة وتتحرك وسط الضوء، كما لو كانت في خلاف مستمر، تتضارب وتتعارك كل واحدة منها مع الأخرى دون توقف. وقد قال عنها أبيقور: "قد اعتادت منذ الأزل وحتى يومنا هذا الحركة والالتقاء بشتى الطرق وتجربة كل التركيبات وأي شيء يمكنها صنعه

من تجمعهما معًا، ولهذا حدث أن تلك الذرات إثر انتشارها بالخارج على مر الزمن ومحاولتها أن تتجمع وتتحرك بشتى الطرق قد التقت في النهاية، وهذا هو ما صنع بدايات الأشياء الضخمة كالأرض والبحر والسماء". يكتب أينشتاين أن أبيقور أول من نبّه البشرية إلى أهمية الذرة وكيف أنها تتجمع وتتفرق في أنماط أشد تعقيدًا.

ولد أبيقور عام 341 ق. م. اهتم بالفلسفة وهو في عمر العاشرة حيث كان يحضر دروس الفيلسوف بامفيلوس، ولكنه أدرك عدم قدرته على الموافقة على كثير من الآراء التي كان يسمعها، فقرر بعد أن بلغ السابعة والعشرين من عمره أن يؤسس فلسفته الخاصة التي يؤكد فيها أن العالم لانهائي في اتساعه، ويحتوي على ذرات لا نهاية لعددها وأشكالها.

يقول أينشتاين إن أبيقور: "كان ماديًا، لا يعترف بشيء إلا الذرة والفضاء الفارغ". ومن الطريف أن أبيقور اعتبر أن التفكير والشعور حركات ذرية سريعة جدًا، وانتهى إلى القول بأن الذرات الدقيقة هي ذرات من الهواء (في حالتي السكون والحركة) ومن النار في حالة الحركة الدقيقة والأكثر سرعة. وإضافة إلى اهتمامه بالذرة كان أبيقور ينظر إلى الفلسفة باعتبارها مصدرًا للراحة وسبيلاً إلى التفكير الصحيح، حيث يُعلم تلامذته أن: "الفلسفة التي لا تشفي آلام البشرية هي محض هباء. فالفلسفة التي لا تبرئ الروح من معاناتها، لا تختلف عن طب لا يداوي مريضًا ولا يشفي عليلاً".

في الخامسة عشرة من عمره كتب وليام فوكنر مقالاً عن الكون، وكان المفترض أن يتفرغ لهذا النوع من الكتابات، إلا أن الأمر انتهى به إلى تأليف الروايات. ويكتب أينشتاين أن الرياضيات هي فن التفكير الصحيح. وعندما يحصل وليام فوكنر على جائزة نوبل عام 1949 يقول لمحرر مجلة (لايف) إن العلم إذا استطاع أن يستغني عن الأنا، فإن الفن لا يستطيع ذلك.

العام 1953 يلتقي وليام فوكنر بألبرت أينشتاين، حيث تجري بينهما مناقشة عنيفة حول الزمن، فقد كان فوكنر قد قرأ كتاب برجسون (الصيرورة والزمن) الذي هاجم فيه النظرية النسبية لاعتقاده أن هذه النظرية تتناقض مع تصور العقل. وقد رد أينشتاين آنذاك على الهجوم حين قال إن الزمن الذي تتحدث عنه النسبية لا علاقة له بالإحساس النفسي بالزمن. ولما مات أينشتاين قال فوكنر في برقية التعزية التي أرسلها لعائلته: "كان ألبرت أينشتاين واحدًا من أرق الناس، كما كان من أكثر الناس حكمة، وهيهات أن يدانيه أحد في هاتين الصفتين".

ظل فوكنر يعيد كتابة روايته (الصخب والعنف) عدة مرّات لأن الناشر لكتبه كان يرفض أن يطبع هذه الأوراق غير المفهومة. كان في الثانية والثلاثين من عمره، الأوساط الأدبية بدأت بالتعرف إليه مع نشر رواياته الأولى (رواتب الجنود)، (بعوض)، (سارتورس). كان فوكنر يضع كل آماله على (الصخب والعنف)، ويتوقع أنه سيدخل تاريخ الأدب من خلالها. وحين أخبره الناشر أنها رواية طويلة ومملة، اختصرها للنصف. لكنها ما إن ظهرت عام 1929 حتى وضعت كاتبها وليام فوكنر على قائمة الكتاب الأكثر مكانةً في تاريخ الأدب العالمي، فهي عمل تجريبي رغم أنها تروي سيرة حياة أسرة من جنوبي أميركا وهي أسرة آل كمبسُن، من خلال استذكار ثلاثة إخوة للماضي، فضلاً عن القسم الأخير الذي يرويه المؤلف، لذلك هي أشبه بسيمفونية تتكرر فيها الإشارة إلى الحوادث نفسها: "كأن كل حادثة هي عبارة عن مقطوعة موسيقية واحدة لكنها تعزف في كل مرة من خلال آلة مختلفة". بنجي الذي يروي الحكاية في 7 نيسان 1928 معتوه، يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلا الصراخ والعويل، وهو حين يروي الحوادث لا يستطيع أن يرتبها زمنيًا، وما حدث قبل عشرين سنة وما حدث اليوم كلاهما متساوي الأهمية عنده.

إنها مثل الحكاية التي أخبرنا عنها شكسبير في ماكبث: "إنها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف ولا تعني أي شيء". وكونتين الذي يسرد حكايته في 2 حزيران 1910 طالب في هارفارد مفرط الحساسية، شديد التعلق بشرف الأسرة. وجايسن الذي يروي الحكاية بتاريخ 6 نيسان 1928 وهو فظّ، شرس، ساديّ، أناني، يسعى لجمع المال عن أي طريق.

هل قرأ فوكنر النظرية النسبية وهو يكتب (الصخب والعنف)؟ يكتب الناقد هارولد بلوم: "من الجائز أن يكون فوكنر قد أدخل بعض ما فهمه من النظرية النسبية وهذا ما نجده في البناء السردي للرواية". كانت شخصية كونتين إحدى شخصيات ثلاثة روت الأحداث من منظورها الخاص، وقد كان لكونتين وضع خاص وفريد من حيث الزمان والمكان، إذ كان كل من جايسن وبنجي في مدينة جفرسون وكلاهما يسرد الأحداث خلال عطلة عيد الفصح في عام 1928، على حين كان كونتين في هارفارد، أما سرده للأحداث فيتم في عام 1910. وهو بهذا يكون قريب جدًا من حيث الزمن من موضوع تلك الذكريات التي استحوذت على تفكيره. وهو من موقعه يرى أسرته في نطاق زماني ومكاني مختلف.

على أن أكثر الأمور إغراءً من حيث أثر نظرية أينشتاين على (الصخب والعنف) هو استفادة فوكنر بما يسمى مصطلح "مفارقة الساعات". وتكمن هذه المفارقة في أن الزمن، تبعًا لنظرية أينشتاين، يتباطأ كلما ازدادت سرعته، حتى أن الزمن يتوقف تمامًا عند سرعة الضوء. وقد شاعت في تلك الأيام أحاديث عن إنك إذا سافرت في صاروخ يسير في الفضاء بسرعة الضوء، فإنك تعود إلى الأرض في العمر نفسه الذي غادرت فيه الأرض بغض النظر عن المدة التي قضيتها في الفضاء. وكان كونتين بطل (الصخب والعنف) يأمل من خلال هذه الرحلات المتعاقبة التي يقطعها في وسائل المواصلات

من دون هدف معين، أن يتحقق له قانون "مفارقة الساعات". فقد كان يسعى جاهدًا إلى أن يتحرك بسرعة تكفي لإبطاء الزمن، إن لم يكن إبطاله. يقول كونتين في (الصخب والعنف): "كانت الساعة السابعة، إذًا فقد استيقظت في الوقت المناسب، وها أنذا أسمع دقات الساعة. كانت تلك هي ساعة جدي وعندما أهداني إياها أبي قال لي: كونتين، إني أعطيك الآمال والرغبات، وإنه من المناسب أن تستخدمها حتى تحظى بالنهاية المنطقية الحمقاء لحياة الإنسان. إني أعطيك إياها لا لكي تتذكر الزمن، بل لكي تنساه بين لحظة وأخرى".

يكتب أينشتاين في دفتر يومياته: "عندما لا يكون لدي مشكلة خاصة أشغل بها عقلي، أحب أن أقرأ الروايات التي تصوغ براهين حياتية، وهذا لا يهدف إلى شيء، بل هو فرصة فقط للاستغراق في التفكير الممتع، ومعرفة أسرار النفس البشرية".

18

عذابات الإنسان كثيفة جدًا تشبه الظلام.. ولا بد من كتابتها

"اقرأ. اقرأ أي شيء. اقرأ الأشياء التي يخبرك الآخرون أنها مفيدة لك، والأشياء التي يزعمون أنها تافهة، ستعثـر على ما تحتاج العثور عليه. اقرأ فحسب"

نيل غايمان

عندما كنت أعمل في مكتبة، كان الزبائن يسألونني باستمرار: هل قرأت هذه الرواية؟ إلا أن السؤال الأصعب كان: ما رأيك بهذه الرواية، وهل هذه النسخة جيدة أم أن هناك نسخًا أخرى أفضل؟ كانت جين أوستن تحتفظ بأكثر من طبعة من كل كتاب، وتقول لمن يسألها: "إن الكتب أشبه بالورود في الحقل، لا توجد وردتان متشابهتان. في روايتها (كبرياء وهوى) تُظهِر أوستن شغفها بالكتب، مؤكدة على أهمية المكتبة في حياة الإنسان، ونقرأ على لسان السيد بنغيلي: "برغم إنني لا أملك الكثير من الكتب، إلا أنني أملك منها أكثر بكثير مما قرأت في حياتي".

قبل أشهر، أعدت قراءة رواية (البؤساء)، ولسنوات عديدة كانت هذه الرواية ترافقني، رغم أن فهمي للكتاب تغير بمرور الزمن. فعندما كنت في طور المراهقة، قرأت (البؤساء) للمرة الأولى. كانت الكتب مهمة بالنسبة لي

في ذلك الوقت، ولأن الرواية سحرتني منذ الصفحات الأولى، قررت أن أضعها بين كتبي المدرسية، وأقرأ ما تبقى منها أثناء فترة الاستراحة. واليوم دائمًا ما أسأل نفسي: ترى ماذا أضافت القراءة إلى حياتي؟ لقد منحتني فرصة كي لا أكون وحيدًا. منذ سنواتي الأولى في القراءة، كانت أمنيتي أن تكون لي مكتبتي الخاصة، وأن أمتلك الكتب التي أسمع الآخرين يتحدثون عنها، سواءَ قرأتها أم لم أقرأها، وعندما أدخل اليوم إحدى المكتبات، أشعر أن كل الكتب تطلب مني أن أخذها معي إلى البيت. قرأت مؤخرًا مقالاً للفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار تتحدث فيه عن الكتب، تقول فيه: "كنت أقرأ كثيرًا حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، وكنت أقتني الكتب بسذاجة وهوس، وإذا ما فتحت كتابًا دخلت في عالم حقًا، عالم عينيّ، زمني، عامر بالوجوه والأحداث الفريدة، وإني لا أزال أذكر الدهشة المدوخة التي كانت تستولي عليّ في اللحظة التي كنت أطبق فيها الكتاب، سواء كانت رواية أو بحثًا فلسفيًا. وبعد أن أكون قد تصورت الكون من خلال إسبينوزا أو كانط، أتساءل كيف يمكن للإنسان أن يكون خفيف العقل بما فيه الكفاية ليكتب روايات. لكن حين تعرفت على جان فالجان كان يخيل إليّ أن من العبث أن يضيع الإنسان نفسه في النظريات الفلسفية، وهو يجد الحقيقة مجسدة في كل ما كتبه فكتور هيجو. أين هي الحقيقة؟ على الأرض أم في النظريات؟ كنت ممزقة".

في مكتبتي اليوم، الرفوف تئن تحت ثقل أنواع الكتب وصنوفها، ومنها كتب مكررة، اقتنيتها لمجرد إعادة ترجمتها أو طباعتها أو اختلاف نوع الورق، لكني لا أستطيع التفريط بها لأنها تشكل جزءًا من ذاكرتي. في كتابها (القراءة الجامحة) تكتب دونالين ميلر: "عند اختيار الكتب نسترجع عمرًا بأكمله من خبرات القراءة، أو محيطنا من أصدقاء القراءة الثقات، أو نصائح لنقاد، وهي

تجربة ناجحة. فنحن نادرًا ما نقرأ كتابًا لا نستمتع به، أو على الأقل نقدره، ولهذا يبدو عليّ الانزعاج أمام فكرة التخلص من الكتب الزائدة".

كانت مكتبة فكتور هيجو تضم آلاف الكتب، خصص لها طابقًا كاملاً في منزله الكبير، ويكتب في يومياته: "في صباي كنت ألتهم الكتب التهاما أينما أجدها". وفي هذه المكتبة زاره غوستاف فلوبير، الذي يكتب رسالة لوالدته: "أخيرًا استمتعت برؤية فكتور هيجو عن قرب، فحدقت به مشدوهًا، كما أحدق في إناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة، متأملاً كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذي يجلس بجواري على مقعد صغير، مدققًا النظر في يده اليمنى التي كتبت كل الروائع الجميلة، قائلاً لنفسي: هذا الرجل الذي جعل قلبي ينبض أشد نبض عرفته منذ وِلدت، والذي أحببته أكثر من جميع مَنْ لم أعرف".

مرة سئل أندريه جيد: من كاتبك المفضل؟

فأجاب: هيجو.. للأسف.

***

"أنا! من أنا؟ أو كيف أدعى؟ وحدها صفحات الكتب تدري"

فكتور هيجو

في الخمسين من عمره أصبح فكتور هيجو لاجئًا سياسيًا - ولد هيجو في السادس والعشرين من شباط عام 1802. لقد سجن ولداه، وانزوى في غرفة بمدينة بروكسل البلجيكية يكتب من الصباح إلى المساء، في اندفاع وحماس، مقالات في السياسة والاجتماع، ويضع مخططًا لرواية جديدة. كان البيت أشبه بالقبو مثلما كانت تسميه ابنته أديل، إلا أن هذا القبو سبّب القلق

للحكومة الفرنسية التي طالبت بلجيكا أن يُرحّل عنها، فركب إحدى السفن التي نقلته إلى جزيرة جرنسي، ليستقر فيها ويبدأ التخطيط لكتابة روايته التي ستجلب له المجد والشهرة (البؤساء). يكتب جوزيه ساراماغو: "لو كان جان فالجان لصًا كبيرًا، لما كان موضوع رواية، بل لكان موضوع تقرير شرطة عادياً. إلا أنه هنا قضية إنسانية لا مجرد بطل رواية أو حكاية، يتنقل مظلومًا في عالم من الفقراء والبؤساء والأيتام المشردين الذين لا ذنب لهم، يتفرج عليهم المجتمع دون أن يراهم".

في مقدمة (البؤساء) يكتب هيجو: "ما دام هناك، بفعل القوانين والعادات، حكم اجتماعي دائم، يخلق اصطناعيًا وفي صميم الحضارة ضروبًا من الجحيم، ويؤزم بقدر إنساني مصطنع القدر الإلهي.. ما دامت مشكلات العصر الثلاثة، حيث تدهورت قيمة الإنسان في الطبقات الدنيا، وسقوط المرأة بفعل الجوع، وهزال الطفل بفعل الجهل، ما دامت هذه المشكلات باقية لا تحل.. فسيبقى البؤس، وستكون القوانين مسببة للهلاك الاجتماعي".

يخبرنا أراغوان في مقاله الشهير عن هيجو، إن كتابة رواية (البؤساء) استمرت أكثر من ثلاثين عامًا حيث بدأ يخطط للرواية عام 1828، حيث يدون في يومياته هذه العبارة: "الحرية سوف تشع من فرنسا، سيراها الجميع لا محالة، عدا فاقدي البصر". في عام 1848 ينهي كتابة النسخة الأولى وكانت بستمائة صفحة، إلا أن الأوضاع في فرنسا تمنعه من نشرها، وفي المنفى، ومن قبوه الرطب، يقرر إعادة كتابتها لينجز النسخة الثانية التي تجاوزت عدد صفحاتها الثلاثة آلاف صفحة، حيث ينتهي منها عام 1860.

كانت الفكرة الأولى التي راودت هيجو هي كتاب عن الفقر والظلم الذي تتعرض له الطبقات المسحوقة، وبدأ بكتابة الفصل الأول من الكتاب، لكنه قرر في النهاية أن يحول الكتاب إلى رواية اجتماعية يبحث من خلالها

ظلم العقوبات التي يفرضها القانون الأعمى. كان قبلها قد كتب رواية (آخر أيام محكوم عليه بالإعدام)، وقصيدة (الفقراء)، إلا أنه في (البؤساء) أراد أن يقدّم شخصيات من واقع الحياة، حيث نجد أنفسنا مع حكاية تبدأ أحداثها مع إطلاق سراح جان فالجان، الذي قضى تسعة عشر عامًا من حياته في السجن، خمسة منها لسرقته خبزًا لأخته وأطفالها الجائعين، والباقي عن محاولاته الهرب. بعد خروجه، يلتقي برجل دين يدعى ميرييل، الذي أخذ هيجو شخصيته من رجل دين حقيقي يدعى القس موالي، وقد نشرت الصحف آنذاك حكايته مع سجين كانت تطارده الشرطة، فقرر القس موالي أن يساعده ويرعاه، والفرق الوحيد هو أن السجين الحقيقي لم يسرق آنية الكنيسة، كما سرقها جان فالجان في رواية (البؤساء).

تدور رواية (البؤساء) حول بطلين متناقضين: جان فالجان الخارج من السجن، والخاضع لمراقبة الشرطة، وجافيير رجل الشرطة الذي يمثل القانون. جان فالجان الذي يستلم هوية صفراء خاصة بالمشبوهين، يجد نفسه محاصرًا بنظرات الناس وشكهم، ليلتقي في النهاية برجل دين يعطف عليه. وحين يسرقه وتقبض عليه الشرطة، يخبرهم القس أنه أهداه الآنية الفضية، يتأثر جان فالجان بشخصية القس، فيقرر أن يغير اسمه ويبدأ حياة جديدة. وتمضي السنوات ليغدو من أثرياء المدينة وأصحاب الأملاك، ثم يُنصبه أهل البلدة عمدتها، لكن الضابط جافيير الذي يعرفه منذ فترة سجنه لم يقتنع بأنه أصبح شخصًا أفضل ويحاول الإيقاع به، حتى اضطر إلى تسليم نفسه لحماية شخص بريء اتهمه الضابط بأنه جان فالجان، ليهرب من السجن ويعيش ما تبقى من حياته طريدًا. واجه فالجان خلال سبعة وثلاثين عامًا - المدة التي تستغرقها الأحداث - قوتين: قوة القانون والدولة، وقوة الخارجين عن السلطة، غير أنه ينتصر على القوتين بصبره وقوة إرادته وإيمانه بالحق، مثلما

انتصر فكتور هيجو على المنفى لينتهي من روايته عام 1861، حيث يقدم ناشر بلجيكي عرضًا مغريًا، ثلاثمائة ألف فرنك، مقابل استغلال حقوق النشر لمدة اثني عشر عامًا، وهو مبلغ لم يحصل عليه هيجو من قبل.

كانت عدد نسخ الطبعة الأولى خمسة آلاف نسخة بيعت بعد ثلاثة أيام، ليقرر الناشر ومع تزاحم الناس على شراء الرواية أن يطبع مئة ألف نسخة، وما أن تصل النسخ إلى باريس حتى يكتب عنها الروائي والناقد تيوفيل غوتيه إنها: "ليست رواية جيدة، وليست رواية رديئة، فهي ليست من خلق إنسان ولكنها ظاهرة من ظواهر القوى الطبيعية.. إنها ملحمة في النقد فيها دفعة المحيط ولها عمقه.. إنها حمم تتدفق فتبرز تماثيل بالغة الضخامة وتتوهج نيرانها".

ترجمت رواية (البؤساء) إلى العربية أول مرة عام 1901، من قبل الشاعر حافظ إبراهيم، والغريب أنه ترجمها وهو منفي في السودان، بعد أن طُرد من الجيش بتهمة تحريض الجنود على القيام بثورة ضد الإنكليز. وقد نشر الجزء الأول من الرواية عام 1905، ويكتب في مقدمة الرواية: "هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أُخرج للناس في هذا العهد، وضعه صاحبه وهو بائس، وعرّبه معربه وهو بائس، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرآة، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه، وعرّبه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه".

يكتب فكتور هيجو في يومياته: "من بين الكتب المتعددة التي كانت موجودة في ساحة عملي وأنا أكتب (البؤساء)، فإن الكتاب الذي كنت أمعن النظر فيه كثيراً، وأشغل نفسي به بشغف هو كتاب جان جاك روسو (في العقد الاجتماعي). إن روسو في هذا الكتاب أحرق كل شيء". يركز هيجو على موضوع القانون الذي طرحه روسو في كتابه والذي كان يريد من خلاله

أن يؤكد أن للقانون وحده يعود الفضل في العدل والحرية، وهو وحده الذي يجعل الناس أحرارًا. يكتب روسو: "إن المشكلة الكبرى في السياسة، وهي المشكلة التي أقرِنها بتربيع الدائرة في الهندسة.. إيجاد شكل من الحكم يضع القانون والإنسان في مرتبة واحدة". ويعلق هيجو أن القانون لا يمكن أن يكون تعبيرًا عن إرادة تعسفية.

في العام 1917 يدخل رجل نحيف إلى مكتبة السوربون، تصحبه آنسة تقود خطاه باتجاه قاعة المطالعة، وعندما تسأله عن الكتاب الذي يود أن تقرأه له يجيب (البؤساء). وقبل أن تذهب لإحضاره يقول لها وهو يبتسم: "قرأت له ترجمة قبل سنوات، لكني أحسست أن المترجم وضع مأساته إلى جانب مأساة جان فالجان".

بعد سنوات يكتب طه حسين مقالاً في جريدة (السياسة) المصرية عن فكتور هيجو: "لقد تنبأ هيجو بالثورة التي ستحدث بسبب الظلم وأهواله، وتنبأ بما ستتعرض له المثل العليا من ضعة وانحطاط، وقد رأى هذا كله وذاق مرارته صابرًا، شجاعًا، احتفظ بكرامته أثناء مواجهته للظلم، وابتهج بالنصر مع المبتهجين".

في مكتبتي لا زلت أحتفظ بنسخة قديمة من رواية (المعذبون في الأرض) التي كتبها طه حسين بوحي من بؤساء هيجو. كتاب صغير وقديم، تاريخ إصداره عام 1947، يخبرنا طه حسين أنه أنهى كتابه في عام 1946، وهو عبارة عن مجموعة من القصص التي أراد من خلالها أن يوجه نقدًا اجتماعيًا لمشكلة الفقر والحرمان، وموقف الأغنياء تجاه الفقراء وواقعه. يبدأ طه حسين كتابه بهذا الإهداء: "إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل، إلى أولئك وهؤلاء جميعًا، أسوق هذا الحديث إلى الذين يجدون ما لا ينفقون، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون، يُساق هذا الحديث".

ولد طه حسين لعائلة فقيرة في إحدى قرى مصر، والتحق بالأزهر وهو في سن الثالثة عشرة، بعدها دخل الجامعة المصرية، ثم أمضى أربع سنوات في فرنسا حيث تبلورت أفكاره الثقافية والاجتماعية، وأصبح وهو في عمر الثلاثين محور الحياة الأدبية والسياسية والثقافية في مصر، أستاذًا للعربية ثم عميدًا لكلية الآداب ثم وزيرًا للمعارف. ولعل أهم نتاجه في الفكر الاجتماعي كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي نشره عام 1938 والذي يضع فيه فلسفته للمجتمع والثقافة ومفهومه للعدل والقانون. تأثر فيها بابن خلدون وبكتاب فرنسيين من أمثال أناتول فرانس وأوغست كونت وفكتور هيجو، ونجده يستلهم الكثير من أفكار هيجو حول العدالة الاجتماعية، فيكتب أن: "العلاج الوحيد هو تبديل النظام الاجتماعي لإحداث مجالات جديدة والقضاء على تفاوت الثروات، وتأمين حياة كريمة للفقراء وإتاحة التعليم للجميع بالتساوي".

***

"تعتقد أن ألمك لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم، لكنك بعد ذلك تقرأ. إنها الكتب، هي التي علمتني بأن الأشياء التي كانت تعذبني هي التي تربطني بالناس الحيّة أو الميتة"

جيمس بالدوين

في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم 12 كانون الأول عام 1961، قرر عدد من الجنود نقل جثمان رجل توفى بمرض سرطان الدم عبر الحدود الجزائرية التونسية، وكانت تحرسهم مجموعة من قوات جبهة التحرير الجزائرية، حيث تم دفنه بهدوء. كان فرانز فانون المولود عام 1925 في

إحدى جزر المارتنيك التابعة لفرنسا قد توفي في إحدى مستشفيات واشنطن، فتقرر نقله إلى تونس ومن بعدها إلى الجزائر التي حارب من أجل استقلالها. وفرانز فانون هو الابن الخامس لأسرة كاريبية-إفريقية من ثمانية أشخاص، أمضى مراحل دراسته الأولى في باريس ليتخصص فيما بعد بالطب النفسي والبحث الاجتماعي، حيث أقام وعمل في الجزائر سنوات عديدة كمسؤول عن أحد أقسام مستشفى الطب النفساني. وبسبب نشاطاته المؤيّدة لاستقلال الجزائر، قررت السلطات الفرنسية طرده من الجزائر ليستقر في تونس، حيث ساهم بالكتابة بانتظام خلال سنوات 1957 - 1960 في جريدة (المجاهد)، الناطقة آنذاك باسم جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

بعد طرده من الجزائر يكتب رسالته الشهيرة عن الأوضاع في هذه البلاد: "لما يقرب من ثلاث سنوات وضعت نفسي وبشكل كامل في خدمة هذا البلد وسكانه. لم أوفر جهدًا ولا اهتمامًا. ولكن ما جدوى الحماس والتفاني إن كان الواقع اليومي مجرد نسيج من الأكاذيب والخسة وازدراء الإنسان؟ وإن كان الطب النفسي هو الأداة الطبية التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به، فعليّ أن أوكد أن العربي غريب بشكل دائم في بلاده، يعيش في حالة من الاغتراب المطلق. لشهور عدة كان ضميري موقعًا لسجال لا يغتفر، انتهى بالعزم على ألا أيأس من الإنسان، أي ألا أفقد الأمل في نفسي."

وقبل أكثر من عام من كتابته هذا المنشور الثوري كان فرانز فانون قد انضم إلى جبهة التحرير الجزائرية وراح يعمل مع الثوار في قواعدهم، حيث رأس تحرير الطبعة الفرنسية من جريدة (المجاهد) الناطقة باسم الثورة، ويمثِّل جبهة التحرير في أكثر من محفل دولي، ومن منفاه نجده يتنقّل بجواز سفر تونسي باسم عمر إبراهيم فانون صادر في تونس في 10 أب 1958.

كتب فرانز فانون عددًا من الكتب أشهرها (بشرة سوداء أقنعة بيضاء)، (العام الخامس للثورة الجزائرية)، (معذبو الأرض). يكتب سارتر في تقديمه لكتاب فرانز فانون (معذبو الأرض): "لما كان لا يستطيع أحد أن يسلب رزق أخيه الإنسان أو أن يستعبده أو أن يقتله إلا ويكون قد اقترف جريمة، فقد أقرّوا هذا المبدأ: وهو أن المستعمر ليس شبيه الإنسان. إن العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين وإنما يحاول أن يجردهم من إنسانيتهم".

كان فرانز فانون بعد أن علم بإصابته بمرض سرطان الدم طلب من أصدقاء له أن يقنعوا جان بول سارتر بكتابة مقدمة لكتابه، وقد تم عقد لقاء بين سارتر وفانون في روما بعيدًا عن أعين المخابرات الفرنسية. ويذكر فانون فيما بعد أن سارتر استمر بقراءة الكتاب: "كان سارتر في تلك اللحظات عبارة عن طائرة انطلقت في الأجواء العالية. انشغل بكتابة المقدمة طوال الليل، فيما كانت سيمون دي بوفوار تطبع ما يكتبه سارتر، واستمرت على هذه الحال إلى أن طلع الفجر. وكان سارتر قد كتب 120 صفحة بأكملها دفعة واحدة".

في (البؤساء) لفكتور هيجو، و (المعذبون في الأرض) لطه حسين، و (معذبو الأرض) لفرانز فانون، نجد مفردات مثل العدل والحرية والثورة ضد الظلم تتكرر بكثرة، بل إننا نجد الرّوح التي تقاوم الظلم نفسها التي وصف بها هيجو معاناة أبطاله، وما كانت تفيض الصورة به من بؤس وحرمان وغياب للعدل الاجتماعي قدمه لنا طه حسين، وأعاد فرانز فانون كتابته بطريقة ثورية جديدة ربطت بين الكفاح اليومي من أجل التحرر وبين الثقافة باعتبارها عنصرًا لا يتجزأ من حياة المناضل.

19

كلنا ولدنا نعاني من الوحدة.. وبعضنا يبقى على وحدته

"مهمتي أن أستعين بقوة الكلمة لكي أجعلك تسمع، وأن أجعلك تشعر، وقبل ذلك كله أجعلك ترى"

جوزيف كونراد

في حديث مع أندريه جيد حول الكتب العظيمة، يقول الروائي الفرنسي الشهير مارسيل بروست: "لعل إحدى السمات العظيمة والرائعة للكتب الجيدة أنها تتيح لنا رؤية الدور الذي تلعبه القراءة في حياتنا الروحية".

كان بروست آنذاك في الخامسة الثلاثين من عمره، لم ينشر سوى قصص قصيرة، يخطط لكتابة رواية من عدة أجزاء، يجلس كل يوم إلى طاولة الكتابة، وينهض بعد منتصف الليل دون أن تظهر إشارات على إنجاز أي شيء. وهناك وصف يقدمه أحد كتاب سيرته عن حياته في تلك الأيام: "كان السرير يئن من ثقل الكتب والأوراق، وطاولة الكتابة مليئة بأكوام من الورق، وغالبًا ما كان يكتب من دون أن يضع مسندًا، وهناك علبة أقلام رخيصة، البعض منها قد سقط على الأرض".

ولأن بروست كان محبًا للتأمل، نراه يعشق الوحدة باستثناء علاقته بأمه، فقد أحبت مدام بروست ابنها بقوة وكانت تؤكد أنه عاجز عن فعل أي

شيء من دونها. عاشا أربعة وثلاثين عامًا سوية، منذ ولادته وحتى لحظة وفاتها، وكان قلقها الأكبر يتعلق بابنها مارسيل الذي لن يستطيع العيش في هذا العالم بدونها: "أرادت أمي أن تعيش كي لا تتركني في حالة من الأسى والوحدة التي كانت تدرك أنني سأغرق فيها من دونها".

كان من عادة مارسيل بروست أن يقرأ صباح كل يوم في القواميس، وحاول ذات مرة أن يضع قاموسًا صغيرًا للكلمات التي تعجبه، ولاحظت أمه أنه كان يركز على كلمة "وحيد"، وقد أخبرته ذات يوم أن الوحدة لا تقتضي دائمًا انعدام الرفقة، فمن الممكن أن تشعر بالوحدة حتى وأنت في علاقة مع الآخرين أو بين أصدقائك. وقبل أكثر من ألفي عام كتب الفيلسوف اليوناني زينون: "كون المرء وحده لا يجعله وحيدًا، كما أن وجوده بين الجموع لا ينفي عنه بالضرورة صفة الوحدة".

يتولد الشعور بالوحدة بسبب غياب أو عدم كفاية القُرب، هكذا يكتب فرويد في تحليل شخصية دوستويفسكي، ولهذا يقول فرويد إن أعمال دوستويفسكي كانت: "تجربة مؤلمة ترتبط بالحاجة غير المشبعة للألفة الإنسانية".

في العام 1902، بدأت صحة مارسيل بروست بالتدهور، ومنذ ذلك الحين اضطر إلى أن يحيا حياة منعزلة، وبدا كأنه هجر كل شيء، لكنه كان يقرأ كثيرًا. وقبل وفاة والدته بأسابيع، يكتب في يومياته أنه يعيش حاليًا: "وحيدًا محرومًا من كل شيء، من ضوء النهار، من الهواء، من كل عمل، وباختصار من الحياة".

ولد مارسيل بروست في العاشر من تموز عام 1871 لوالد يعمل أستاذًا للطب كرس نفسه لتحسين معايير تعزيز الصحة النفسية، وكان مهتمًا بوجه الخصوص بمعالجة الأمراض المعدية، وقد سميت إحدى المستشفيات في

مرسيليا باسمه. وعند وفاته عام 1903، كان قد حقق شهرة عالمية. وفي يومياته يكتب مارسيل بروست أنه كان يشعر بدونية مقارنةً بأبيه، ويخشى أن يكون الوجه السلبي لهذه الحياة المفعمة بالعمل والنشاط التي عاشها الأب. ما الذي كان مارسيل ينوي أن يفعله بحياته؟ لقد قرر أن يؤسس مجلة أدبية صغيرة (المأدبة)، كان الوالد يتمنى لو أن ابنه برع في مجال العمل المحاسبي، أما هو فقد كان يحب الكتابة والأناقة، ويستحضر أحد أصدقائه صورته في شبابه: "عينان سوداوان واسعتان، متألقتان، نظرة في منتهى النعومة، صوت أشد نعومة أيضًا من النظرة، هندام فائق العناية، صداريات فضاضة من الحرير، وردة أو زهرة أوركيد في عروة المعطف، قبعة مستديرة مستوية الحواف كانت توضع أثناء الزيارات آنذاك قرب مقعد الجلوس".

في العام 1896 ينشر أول كتبه (المسرات والأيام)، وطلب من أناتول فرانس أن يكتب المقدمة له، إلا أن الكتاب يفشل فشلاً ذريعًا. ورغم هذا الفشل كانت أمه تؤمن إيمانًا كبيرًا بموهبته، ويجيب عن سؤال يوجهه له أحد الأصدقاء عن معنى الشقاء في تصوره: "أن أكون منفصلاً عن أمي".

في العام 1905، توفيت والدته، فيقرر الانسحاب نهائيًا من الحياة الاجتماعية. إنه زمن العزلة، هكذا كتب في دفتر يومياته، زمن حجرة الكتابة المليئة بالأوراق والكتب والشبابيك المغلقة دائمًا لصد الرياح القادمة من الشارع، إنه زمن ملازمة الورق بصورة دائمة. حيث ملأ بروست الدفاتر العشرين برواية جديدة، يخرج في الليل بحثًا عن التفاصيل الضرورية لعمله الروائي. من عام 1910 إلى عام 1922 قام بكتابة (البحث عن الزمن المفقود)، وكان يقول لكل من يلتقيه إنه كتب كتابًا جميلاً، لكن المفاجأة كانت بانتظاره حيث رفضت معظم دور النشر طباعة الجزء الأول من الرواية، فقرر في النهاية أن يطبعه على نفقته الخاصة. وفي 1913 يصدر

(منازل سوان) ويتأخر نشر الجزء الثاني بسبب الحرب العالمية الأولى ليصدر عام 1919 بعنوان (في ظلال ربيع الفتيات) فينال عليه جائزة الغونكور، ويصبح مشهورًا، ويحظى كتابه بتقدير القراء ليس في فرنسا وحسب، وإنما في إنكلترا وأميركا وألمانيا. لقد اعترف العالم بأنه ليس أمام كاتب كبير فقط، بل أيضًا أمام أحد المبتكرين النادرين في تاريخ الأدب العالمي.

يتساءل صمويل بيكيت أين تكمن أصالة رواية (البحث عن الزمن المفقود): "إن بروست يرى الكون الأوحد الحقيقي هو كون الفن، وأن الفراديس الحقيقية الوحيدة هي الفراديس التي ضيعناها".

في العام 1928 أقام صمويل بيكيت في باريس للمرة الأولى، حيث تعرف على جيمس جويس، ثم أصبح صديقه وسكرتيره، وحين أخبر جيمس جويس بأنه ينوي تأليف كتاب عن مارسيل بروست، نصحه بأن يتفرغ لقراءة أعمال شوبنهور لكي يفهم ما كتبه مارسيل بروست في (البحث عن الزمن المفقود)، ونجده يصف عمل الفيلسوف الألماني المتشائم بأنه: "المحاولة الأكثر طموحًا لتسويغ الشقاء فكريًا". أما رواية بروست فقد ألهمته أفكارًا جديدة متحررة من الأوهام.

***

كنت في السادسة عشرة من عمري حين قررت الانضمام إلى جماعة مسرحية شبابية، أخوض معهم نقاشات حول المسرح والكتب التي تصدر حديثًا. وفي أثناء المناقشات التي تجري في المجموعة، كان الحديث يدور عن مسرح اللامعقول، والذي كنت لا أعرف عنه شيئًا، وذات يوم أخبرني صديق أنه عثر على مكتبة في شارع السعدون تعرض أحدث الإصدارات في مجال المسرح. كانت المكتبة عبارة عن ممر طويل مليء بالكتب مما اضطر صاحبها إلى أن يستعين بكرسي واحد فقط يجلس عليه في أحيان كثيرة

عبدالوهاب البياتي أو غالب هلسا. وكان من عادة صاحب المكتبة أبي طه أن يحدّثك عن الكاتب والكتاب، والأهم أن باستطاعته أن يحصل لك على أي كتاب تريده. كانت هذه المكتبة بوابتي إلى عالم مدهش من المسرح، ولا زلت أحتفظ بالنسخة التي أعطاني إياها العم أبو طه لكتاب (مسرح العبث) وهو دراسة مع مجموعة مسرحيات، كانت (في انتظار غودو) واحدة منها.

قررت أن أتفرغ لقراءة ما كتبه أعلام مدرسة اللامعقول والعبث. كانت هذه المسرحيات غريبة، إلا أن قدرة كتابها على إقناع القارئ مدهشة، كنت آنذاك أسعى لأن أحوّل قراءاتي للكتب إلى فعل اجتماعي أتشارك به مع الآخرين، وأحببت فكرة أن يقرأ معظم أعضاء المجموعة مسرحية بيكيت هذه.

ولد صمويل بيكيت في الثالث عشر من نيسان عام 1906 في إحدى ضواحي مدينة دبلن في إيرلندا، وهو الابن الثاني لعائلة ميسورة الحال، والده يعمل مساحًا للأراضي، محبًا لقراءة الروايات الغرامية، بينما كانت الأم تلقن أبنائها الصلوات والتراتيل. في نفس اليوم الذي ولد فيه، ظهر كتاب هنري برجسون (التطور الخلاق)، وأعلن عن وفاة الرسام الشهير سيزان. وفي يومياته يخبرنا بيكيت أن لديه ذكريات قبل ظهوره إلى الدنيا: "أتذكر أنني كنت محشورًا حبيسًا، وغير قادر على الإفلات. كنت أبكي كي يسمحوا لي بالخروج لكن أحدًا لم يكن يسمعني. لم يكن يصغي إلي أحد". ونعرف أن ولادته كانت عسيرة، حيث استغرقت أكثر من عشر ساعات. منذ اليوم الأول حظي بعناية متميزة من والدته، ومثل والدة بروست كانت تحمل له مشاعر حب عميقة، وأيضًا كانت تتمنى أن يعمل في مجال المحاسبة والمال والتجارة، وسنجده مثل مارسيل بروست سيرفض ذلك.

منذ الصغر نما لديه شغف حقيقي بالكتاب، أغرم بقراءة هودرلين

وشوبنهور وبودلير وأبولينير وغيرهم، وتفرغ لحفظ التوراة ومعها صفحات كثيرة من القواميس التي كان يقضي معها أوقاتًا طويلة. وعندما يكبر يخبر والدته بأنه سيصبح كاتبًا، في سن الحادية والعشرين نشر كتابه (أحلام المرأة العادية)، وهو كتاب وصفه النقاد آنذاك بأنه مجموعة من الهذيانات، بعدها بعام يقرر أن يرحل إلى باريس. هناك يتعرف على جيمس جويس، وكان عمره 22 عامًا، وبدأ جويس يفرض تأثيره الكبير عليه. وفي حوار معه بعد حصوله على جائزة نوبل عام 1969، قال لأحد الصحفيين إن جويس كتب من موقع كليّ القدرة أو على نحو رباني، في حين أنه - أي بكيت - كتب من موقع الجهل والعجز. في العام 1930 يعود إلى إيرلندا بعد أن علم بموت والده فجأة، كان الخبر بالنسبة له مؤلمًا أصابه بحالة من الاكتئاب، مما دفع أمه إلى أن تدخله مصحة للعلاج النفسي، وقد ساعده ذلك العلاج على أن يتخذ قرارًا ببدء حياة جديدة بفضل معرفته للعديد من اللغات، فغادر إلى ألمانيا للدراسة فيها لمدة سنة واحدة، وهناك يتفرغ للغوص في أعمال شوبنهور. كتب إلى أحد أصدقائه: "كانت قراءته أشبه بنافذة فتحت فجأة في غرفة تفوح منها رائحة العفن. لقد عرفت على الدوام أنه من بين أكثر الأشخاص أهمية في حياتي، وبدأت أفهم وأنا في الثلاثين من عمري لماذا كانت قراءة شوبنهور متعةً أكثر حقيقية من كل المتع التي ذقتها منذ زمن طويل. إنها لمتعة أيضًا أن تجد فيلسوفًا يقرأ، كما يقرأ شاعرًا".

لقد قرر نهائيًا أن يتبنى وجهة نظر شوبنهور التي تتفق مع نظرته إلى العالم والأشياء. القطيعة النهائية بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، والحياة المليئة بالألم والموت والضياع والوحدة والفراغ.

يعود من جديد للقاء معلمه جيمس جويس، وقد ربطت بينهما صداقة استمرت حتى موت جويس، كان الاثنان يحبان الصمت: "كانت المناقشات

بيننا تقتصر غالبًا على تبادل الصمت". كان جويس يجلس جلسته المعتادة، وقد لف ساقيه وقدميه ويتخذ بيكيت برغم قامته الطويلة الوضع نفسه.

في العام 1948، ينتهي بيكيت من كتابة مسرحيته (في انتظار غودو)، لكنه يواجه رفض المسارح تقديمها، لأنها مسرحية بلا حكاية ولا أحداث. ويستمر الأمر حتى يوم الثالث من كانون الثاني 1953، ففي ذلك اليوم كان الباريسيون على موعد مع مسرحية ديكورها مختصر إلى أبعد حد، شجرة جرداء وممثل يحاول خلع حذائه، إنه إستراغون، وسرعان ما يلحق به فلاديمير. ويبدو للمشاهد أنهما التقيا بالأمس فقط، لكننا نكتشف أنهما تعارفا منذ خمسين عامًا. إنهما ينتظران في هذا المكان شخصًا على موعد معهم، لا نعرف سوى أن اسمه غودو، وهما يشغلان وقتهما بانتظار مجيئه بحديث مشتت تختلط فيه الشكوى بالحنين والذكريات، والتأكيد على الصداقة، والتذمر، ورغبة في الذهاب سرعان ما تتلاشى:

- هيا بنا.

- لا يمكننا الذهاب.

- لماذا؟

- إننا بانتظار غودو.

ولسوف تتكرر هذه العبارة سبع مرات، ويستمر ذلك الانتظار الرتيب على طول مدة المسرحية: "لا شيء يأتي، لا شيء يحدث، لا أحد يجيء، إن هذا لا يطاق". لكن شخصين جديدين يظهران على المسرح (بوزو ولوكي)، تبدو على الأول سمات الطاغية، فهو يمسك بالثاني بحبل، ويحمل عليه حقائبه، ويلقي عليه أوامره في قسوة، ولا يفعل شيئًا سوى المرور على المسرح. وعرض مشهد يرقص فيه لوكي بناءً على أوامره، وبعد ذهاب هذين

الشخصين يعود إستراغون وفلاديمير إلى الانتظار، حتى لحظة وصول صبي يعلن أن غودو: "لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدًا بكل تأكيد".

الفصل الثاني هو اليوم الثاني، حيث نشاهد الشجرة مكسوة ببعض الأوراق، ونجد أن الأحداث نفسها تتكرر على المسرح مع تغيرات بسيطة. عاد فلاديمير وإستراغون ليلتقيا مرة أخرى وعادا إلى الانتظار وإلى حديث متقطع، حيث نجد إستراغون يتحدث دائمًا عن الرحيل، لكنه يخفق دائمًا في الوصول إليه. ويعود بوزو ولوكي، لقد أصبح الأول أعمى، والثاني أخرس، ومرة أخرى لن يأتي غودو، ويعود الغلام نفسه لينقل الرسالة ذاتها، وينتهي الفصل الثاني بعبارة مكررة حرفيًا من نهاية الفصل الأول:

- نذهب إذًا؟

- هيا بنا (لكنهما لا يتحركان).

إذن نحن أمام مسرح يتحول الجميع فيه إلى مجرد أسماء. فإستراغون وفلاديمير، وبوزو ولوكي، ليسوا سوى تسميات لحضور وحيد هو: الإنسان. لكن الأكثر غموضًا بالنسبة لجمهور المسرح هو غودو، والذي أفسح اسمه وغيابه الدائم لتفسيرات عديدة. فالاسم جعل البعض يعتقد أنه مشتق من الكلمة الإنكليزية (God) أي الإله، ويتضح بذلك في مجمل أحداث المسرحية، إذ كان فلاديمير وإستراغون في انتظار الإله، لكن هذا لم يأتِ. ونكون بذلك أمام مشهد يمثل بؤس الإنسان من غير الإله، وأن الإله غير آبه بقدر الإنسان العابث. وتبقى النتيجة أن الإنسان لا يعرف إلا وجودًا بلا معنى، لقد خلق ليموت، وما حياته إلا حركة جوفاء لا ترتبط بأية أهمية. ولعل أهمية (في انتظار غودو) تأتي من أنها كانت خلاصة للفلسفة الحديثة من شوبنهور وعدمية الوجود، إلى هيدغر وعبارته الشهيرة "الإنسان خلق للموت" إلى وجودية سارتر الذي قال: "لا يمكن تفسير الوجود، إنه

عبثي".

إن عالم بيكيت حالك السواد والعدمية. وكما حدث مع شوبنهور، فإن نجاح بيكيت كان بطيئًا. كانت كتبه تباع لكن المبيعات قليلة جدًا. فعلى سبيل المثال لم يبع من كتابه (ميرفي) سوى أربع وثمانين نسخة بين 1941 و1951 وكان آنذاك في الخامسة والأربعين. وكان يكسب عيشه من تدريس اللغة الإنكليزية، وزوجته تعمل في خياطة الملابس، تحاول مساعدته، تتحمل نوبات يأسه، وتعجب بحاجته إلى الصمت. ثم بدأت الشهرة، وبدأت مسرحياته تعرض وتمتدح وتترجم إلى لغات العالم، وتحسن وضعه المالي لكنه ظل يعاني من الاكتئاب ويشعر بإحباط شديد، يكتب إلى أحد أصدقائه: "أنا بحاجة إلى قراءة شوبنهور من جديد، كي يساعدني في مصارعة الحالة التي أمر فيها".

***

قال عنه نيتشه إنه عاش وحيدًا، في عزلة مطلقة، ولم يكن يتخذ له في حياته صديقًا قط، وما بين الواحد المفرد واللاشيء، تمتد الأبدية. كان شوبنهور قد فقد أباه وهو في السابعة عشرة من عمره، علاقته مع أمه كانت بين مد وجزر، كما أنه لم يتزوج. ولد عام 1788، ورث عن أبيه كما يقول إرادته، أما عن أمه فقد ورث عنها ذكاءها المفرط. في سن الخامسة عشرة أبدى رغبته في دراسة الأدب، في التاسعة عشرة من عمره بدأ يجرب كتابة الشعر، وقرر أن يعيش في بيت منعزل ليتفرغ لكتابة رسالته الشهيرة في الفلسفة (العالم إرادة وتمثلاً) الذي صدر عام 1819، ولم يبع الناشر سوى 400 نسخة خلال عشرة أعوام.

في هذا الكتاب يرى شوبنهور أن الوساطة الوحيدة بين الإنسان والعالم الخارجي هي الحواس والمشاعر. فأنت إن رأيت شجرة انطبعت صورتها في

ذهنك، وهذه الصورة إنما انتقلت عن طريق عدسة العين، فقد تكون مطابقة لحقيقتها الخارجية وقد لا تكون، إذًا فالصورة التي يكوّنها ذهنك عن هذا العالم هي فكرة خلقتها حواسك ولا يحتم أن تكون لها حقيقة واقعة مطابقة لها. ويكاد يجمع الفلاسفة على أن العقل وجوهره هما الشعور والفكر، إلا أن شوبنهور يرفض ذلك، وكان يتهم الفلاسفة بأنهم يتلاعبون بعقول الشباب، ويسخر من هيغل الذي كان يجده يقارن بين الأشياء ويوازن بين الآراء دون أن يهتم بالأشياء في حد ذاتها، ولهذا نراه يكتب أن الظواهر جميعها، سواء أكانت مادية أم نفسية، محكومة بقوة واحدة، لاشخصية، ولا يمكن مقاومتها، يسميها "الإرادة". إلا أن معنى هذه الكلمة عند شوبنهور يكاد يكون بالنقيض من المفهوم الشائع عن الإرادة بوصفها أمرًا خاضعًا لسيطرة الإنسان وتوجهه، لسنا نحن من يريد، بل العالم، الطبيعة، فنحن لا نملك من الأمر شيئًا، سواءً علمنا أم لم نعلم، فنحن مجرد ظواهر عارضة، محكومون بتلك الإرادة التي تسبقنا وتتجاوزنا، وهذه الإرادة هي جوهر الأشياء في الكون، وهي المادة الأصلية الوحيدة لأية ظاهرة من الظواهر. ولهذا نجد شوبنهور يضع حرية الاختيار في مرتبة الوهم البشري، ويرى أنه حتى في الحالات التي يكون لدينا انطباع بأننا نفعل ما نريد فإن هذه الإرادة تحدها طبيعة شخصيتنا التي لا سلطة لنا عليها. إن ما يحركنا هو دوافع ونزوات لا تخضع لسيطرتنا وبالتالي لا فائدة من الندم على أي من أفعالنا الماضية.

في مقدمة كتاب (العالم إرادة وتمثلاً)، يكتب شوبنهور: "لا إلى معاصريّ، بل إلى البشرية، أكرس عملي الذي اكتمل الآن، واثقًا أنه لن يكون غير ذي قيمة للبشرية، حتى لو كان سيتم الاعتراف بهذه القيمة ببطء، كما هو المصير الحتمي للخير بأية صيغة كانت".

20

ثلاثة مؤلفين وكاتب مجهول يبحثون عن فتاة

"كل الكتب تتحدث، لكن الكتاب الجيد هو الذي يصغي أيضًا"

مارك هادون

في رسالة إلى إحدى معارفه يكتب هيرمان ميلفل: "لا تشتري هذا الكتاب - يقصد روايته (موبي ديك) - لا تقرأيه، رياح قطبية تنفخ فيه، وطيور مفترسة تحوم حوله". يخبرنا ميلفل أنه أيًا كانت هوياتنا، وأيًا كانت التزاماتنا فنحن نبحث عن الكتب التي لا يريدنا أحد أن نقرأها.

شاهدت وأنا صبي أول نسخة قديمة من (ألف ليلة وليلة)، كانت عبارة عن كتيبات صغيرة مرسومة على غلافها الخارجي صورة لرجل يرسل نظراته إلى الأفق، وهو يستند على وسادة كبيرة وأمامه تجلس امرأة، ويبدو أنها تتحدث وهو ينصت. ما الذي كانت تقوله؟ هذا ما أثار اهتمامي. حاولت أن آخذ الكتيبات معي إلى البيت إلا أن صاحب المكتبة أخبرني أن هذه الطبعة غير منقحة، وهناك طبعة خاصة للصبيان أمثالي. ماذا كانت أول حكاية قرأتها؟ لا أتذكر سوى أنني وأنا أقضي الليل مع هذا الكتاب الغريب أصبحت جزءًا من عالم مسحور. ولم أكتشف إلا فيما بعد أن القصص الأولى التي قرأتها من هذا الكتاب العجيب لم تكن هي نفسها التي قدمها للقراء المستشرق الفرنسي

أنطوان جالان، وكانت باثني عشر مجلدًا، ولا هي طبعة بولاق التي صدرت في نهاية القرن التاسع عشر. وقد استطعت أن أرى الفرق بوضوح بعد أن عدت بعد سنوات لقراءة (ألف ليلة وليلة) وكانت الطبعة الجديدة صادرة عن مكتبة المثنى وبأربعة أجزاء كبيرة. وفي هذه المرة أثار الكتاب فضولي، فرحت أتجول فيه بتأنٍ من صفحة إلى أخرى، وباستمتاع غريب لقصص كان فيها الرجال والنساء منشغلين بالدسائس والمؤامرات والجنس، واكتشفت أن واضعي هذا الكتاب العجيب مصرون على أن يقدموا صورة للمرأة وهي تمارس سحرها الجنسي على الرجال. يكتب الروائي التركي أورهان باموق أنه قرأ (ألف ليلة وليلة) أربع مرات، وفي فترات زمنية مختلفة، وفي كل مرة يشعر بالملل، لكنه بعدما بلغ الأربعين من عمره، أعاد قراءتها من جديد ليكتشف في النهاية منطقها السري وأنواع الجمال المدجن والغريب وفصولها القبيحة، وصفاقاتها وابتذالاتها: "لقد كانت باختصار صندوق الكنز، وقد توصلت ببطْء إلى رؤية أنه دون أن نقبل (ألف ليلة وليلة) كما هي، فسوف تستمر مثل الحياة عندما نرفض قبولها كما هي".

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، كان لا بد من الحصول على إذن لقراءة عمل يفسد الأخلاق مثل (ألف ليلة وليلة)، كانت بعض الكتب محرّمة، مما جعلني أرضخ لقراءة طبعات مهذبة منها. دائمًا ما أسأل نفسي ما الذي جعل كتابًا مثل (ألف ليلة وليلة) حيًا عبر العصور، وكأن هناك توصية محبة وإعجاب تنقل من قارئ إلى قارئ آخر. إن الكتب هي أحد الأشياء التي يدللها البشر، هكذا يكتب هنري ميلر. نادرة هي الكتب الفريدة ولعل (ألف ليلة وليلة) واحدة منها، لأنها تعلمنا أن الكتاب ليس صديقًا فقط، بل يصنع لك أصدقاء، وعندما نمتلك كتابًا يعلمنا أن الحياة تتكون من المغامرة والخيانة والعشق والسعادة والفرح والحلم والحزن والحكايات السرية

للغرام، فإنك بالتأكيد تمتلك كتابًا ذا روح وعقل.

حين قرر فلوبير كتابة رواية واقعية عن امرأة حطمت حياتها العائلية لتعطشها للحب، أُتهم بأنه يشيع البذاءة. وبعد سنوات تعرض الكاتب المسرحي إبسن للموقف نفسه حين قدم بطلة مسرحيته (بيت الدمية) وهي تترك زوجها وبيتها لتبحث عن ملذات الحياة. وكاد ه. ج. ويلز أن يقدم للمحاكمة على إحدى رواياته التي تتحدث عن فتاة صغيرة تستمتع بفعل الحب بحرية.

كتب فلوبير ردًا على اتهامه بنشر المجون أن: "جميع الظواهر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية هي نتيجة حتمية حاسمة لعامل واحد هو العامل الاقتصادي. فالطموح الفردي المشبوب الذي امتلأت به جوانح إيما ساقها إلى أحضان أول عشيق أتاح لها التطلع إلى أعلى".

من هو الإنسان؟ يجيب إميل زولا أنه: "كائن بلا أمل، يتحول في الظلام إلى الحيوانية المحض".

كان ه. د. لورنس روائيًا جريئًا في ثورة التحرر الجنسي الذي اعتبر مساويًا للتحرر من العادات التقليدية ومن صخب المدن وقبحها وتعقيداتها. يلقي لورنس الضوء على الظروف التي كتب فيها (عشيق الليدي تشاترلي) فيقول عن الزوج كليفورد الذي تهجره زوجته كونستانس لتضاجع حارسه: "إنه نتاج الحضارة الصناعية المادية الحديثة، مشكلته تتلخص في أن دماءه تسري فيها برودة الموت، وهو لا يفتقر إلى الدفء الإنساني فحسب، بل إنه فقد كل صلة تربطه بالنساء وبزملائه من البشر، في حين أن حارس الصيد يتميز بدفء المشاعر والحيوية". ويضيف لورنس أن هناك ما يبرر استخدامه للكلمات الجنسية المكشوفة في روايته، فالهدف هو تحرير هذه الكلمات من أية دلالات بذيئة، فليس في ممارسة الجنس ما يشين أو يدعو للخجل، ويتابع

دفاعه عن الرواية بالقول: "إن الإنسانية استغرقت في ممارسة الجنس دون فهمه أو إدراكه، ولهذا تحولت الممارسة الجنسية عبر الزمن إلى فعل آلي كالح تغيض عنه الحياة ويبعث على الملل وخيبة الآمال، ومن ثم فقد حان الوقت لإدراكه إدراكًا سليمًا وذلك بتجديد الأفكار المتعلقة به."

***

"عندما أرى كتبًا لا يهمني معرفة كيف أحب مؤلفوها، أو كيف لعبوا الورق، إنني لا أعرف سوى أعمالهم"

تشيخوف

في أحد أيام شهر حزيران عام 1915، سأل التلميذ إرنست جونز أستاذه سيغموند فرويد عن أحب كتبه إلى نفسه، فذهب الأستاذ باتجاه المكتبة ليلوح للتلميذ بكتابه (ثلاث مقالات في نظرية الجنس) وهو يقول: "أتوقع لهذا الكتاب أن يصبح قريبًا مألوف المادة بتقبل الناس لما يحتويه من معرفة".

نشر كتاب (ثلاث مقالات في نظرية الجنس) عام 1905، وفي حياة فرويد ظهرت منه ست طبعات، أجرى عليها فرويد تعديلات طفيفة: "كان من الضروري إلحاق إضافات معينة بهذا الكتاب، كيما يظل معقود الصلة بالمؤلفات التحليلية المستحدثة". وفي كتابه (حياتي والتحليل النفسي) يكتب فرويد: "وما كنت أدرك، في ذلك الحين، أنني بردّي بعض الأمراض النفسية إلى الجنس، قد رجعت أدراجي إلى أقدم أزمنة الطب، وجدّدت الصلة بتراث أفلاطون".

تكمن أهمية كتاب فرويد في أنه كان مفاجأة للباحثين في مجال الأمراض النفسية، ومدخلاً جديدًا على الفكر البشري لفهم الحياة النفسية. فعلى خلاف

ما يُتوقع من عنوان الكتاب، ليست المقالات الثلاثة لدراسة الغريزة الجنسية، بل دراسة في أسباب الأمراض النفسية وبحث في مسبباتها، وبالرغم من أن الكتاب زاخر بتفاصيل النشاط الجنسي، فإنه لا يمس طبيعة الجنس في ذاته، والواقع أن الكتاب يعد مرحلة هامة في تفكير فرويد وفي نظرية التحليل النفسي عامة. هذه المرحلة التي تم الكشف فيها عن نظرية "الليبيدو" - الرغبة الجنسية - والتي يؤكد فيها أن مرض العصاب ينشأ من أمور جنسية طفولية، ويضيف أيضًا أن الأمور الجنسية الطفولية المكبوتة ليست وقفًا على الذين أُصيبوا بعصاب في وقت ما من أوقات حياتهم ولكنها موجودة عند كل إنسان، وتشكل عاملاً مهمًا في حياته. وفرويد يرفض أن يقال إنه يستعمل كلمة جنس مرادفًا لكلمة حب، ويحتج على كل محاولة تنزع عن "الرغبات" صفة الجنس.

يكتب إريك فروم في كتابه (مهمة فرويد): "هناك سبب قوي إلى الاعتقاد بأنه بعد مئة عام منذ الآن، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن، كأحد الرجال الذين فتحوا أفقًا جديدًا من آفاق الفكر. فمن المؤكد أنه في عصرنا هذا لم يلقِ أحد ضوءًا على أعماق عقل الإنسان كما فعل فرويد".

في منتصف سنة 1856، وفي مدينة صغيرة تسمى فرايبرج، كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية، ولد طفل لأب كان يعمل في تجارة الصوف، صارم الطباع متسلط في البيت، كانت أمه تريد أن تسميه جوزيف على اسم والدها، لكن الأب أصر على أن يسميه سيغموند، ليحمل الاسم الثلاثي سيغموند شلومو فرويد. ولد هذا الطفل الذي سيُعنى بآلام النفس ومشاغلها وهمومها في أسرة تعج بالمتناقضات؛ الأم فتاة صغيرة حسناء لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، فيما تجاوز الأب، الذي كان يعاني من العصاب، الخمسين من عمره، وهو يثير مشاعر الكرّه عند الطفل الصغير، الذي يشعر بالمنافسة بينه

وبين أبيه على عطف أمه ورقّتها. في العام الثالث من عمره ولدت شقيقته الصغيرة، فعرف لأول مرة معنى الغيرة، ولهذا يخبرنا في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن أسعد وأجمل سنيّ حياته هي تلك الثلاث سنوات الأولى من عمره. ونراه في كتابه المثير (مدخل إلى التحليل النفسي) يؤكد على أن الأساس التكويني للحياة النفسية عند الإنسان يتم في السنوات الثلاث الأولى من العمر. وقد ظل فرويد يسترجع تلك السنوات وأحلامها فيما بعد لتكون من أهم العناصر التي بنى عليها نظريته في علم النفس، وأيضا لتكون مدخلاً لكتابة الكبير (تفسير الأحلام) الذي يعد إلى جانب (رأس المال) لكارل ماركس و (النظرية النسبية) لأينشتاين، أهم ثلاثة كتب غيّرت مجرى التاريخ البشري.

عندما بلغ الرابعة من عمره أصيبت تجارة والده بالكساد، وانتهى الأمر بالعائلة المكونة من الأب وزوجتين وتسعة أولاد وعدد من الأحفاد أن تنتقل إلى فيينا، وهناك يلتحق الطفل فرويد بالمدرسة الابتدائية التي يثبت بها تفوقًا، حيث ظل الأول على مدرسته لمدة سبعة أعوام، وظهر تفوقه الخارق في حفظ اللغات، فلم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره إلا وكان يتقن الإنكليزية واللاتينية والفرنسية بطلاقة. وبعد سنتين نراه ينكب على دراسة الإيطالية والإسبانية، لكن أكثر ما أثار اهتمامه وهو في سن الخامسة عشرة هو الفلسفة. كان يحلم بأن يصبح مثل الفيلسوف الألماني هيغل. عندما بلغ السابعة عشرة من عمره دخل جامعة فيينا لدراسة الطب، وبعد ثماني سنوات تجبره الأحوال المادية المتردّية لعائلته على ترك الأبحاث للعمل في أحد مستشفيات فيينا طبيبًا مبتدئًا، ونراه يكتب في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) أن تلك السنوات التي قضاها في المستشفى مكنته من التفرغ لكتابة المقالات عن طبيعة المخ، الأمر الذي دفع أستاذه أدينجر أن يطلب منه التفرغ نهائيًا لدراسة المخ ويعده

بأن يجد له مكانًا في معهد التشريح، إلا أن أبحاثه التي نشرها آنذاك سهلت له الحصول على منحة دراسية في فرنسا ليدرس الأمراض العصبية. وفي سبيل تلك الدراسة نجد فرويد يؤجل زواجه خمسة أعوام، ويؤكد لخطيبته وهو يعانقها أنه سيعود إلى فيينا بعد أن يحقق حلمه. كان قد حزم ملابسه وأخذ معه كرسيه الخشبي "بدون ظهر"، واشترى أرخص تذكرة قطار إلى باريس، ليبدأ رحلة الألف ميل إلى التحليل النفسي.

***

"حياتي ليست منفصلة عن كتبي، فكل المشاهد التي رويتها لكم عشت تفاصيلها الدقيقة"

نابوكوف

في عام 1953 أرسل الروائي فلاديمير نابوكوف إلى ناشره مخطوطة روايته (لوليتا)، وطلب منه نشرها باسم مستعار لأنه لا يريد أن يخسر وظيفته كأستاذ جامعي، وقبلها كان قد عرض المخطوطة على صديقه الناقد الشهير إدموند ويلسون الذي أعادها إليه مع عبارة قصيرة: "إنها أسوأ ما كتبت". لكن رغم هذا الرأي السيء إلا أن ويلسون عرض على نابوكوف أن يساعده في نشرها، لكن بسبب إباحيتها لم تجد الرواية قبولاً عند معظم الناشرين، وكان السبب هو الخوف من رفع قضايا ضدهم. وعندما فقد نابوكوف الأمل في نشر (لوليتا) في أميركا، أرسل نسخة منها إلى إحدى دور النشر الفرنسية التي وافقت على النشر بشرط أن يثبت اسم المؤلف الحقيقي على الغلاف لتصدر طبعتها الأولى في باريس عام 1955، لكن بحلول شهر آذار من عام 1958 أعلنت إحدى دور النشر الأميركية عن صدور طبعة

جديدة من الرواية، التي ما إن طُرحت في المكتبات حتى بيع منها في الأسبوع الأول 100 ألف نسخة، ولتثير اهتمام هوليود فيتم الاتفاق مع نابوكوف على كتابة سيناريو للرواية لتقدّم في السينما بفيلم من إخراج ستانلي كوبريك.

رواية (لوليتا) التي صُنفت طويلاً في خانة الأدب الإروتيكي هي ليست كذلك فعلاً، فالمقاطع الحميمة فيها شحيحة، إلّا أن ثيمتها التي تفضح العلاقة المحرّمة بين رجل في أواخر الثلاثينيات وفتاة في الثانية عشرة من عمرها، جعلتها ضمن قائمة الروايات المحظورة الأكثر طلبًا.

وقد توصّل باحثون في أدب نابوكوف إلى أنّ (لوليتا) لم تكن مجرد رواية من الخيال، بل إن أحداثها وقعت بالفعل، وأن نابوكوف قام بأبحاث كثيرة تحضيرًا لروايته هذه. كان يقرأ بدقة كل جرائم القتل والاعتداء الجنسي في الصحف آنذاك، إلى أن صادف حادثة الفتاة سالي هورنر التي اعتقلها رجل أربعيني، وهي تقوم بسرقة دفتر، وأوهمها أنه من مكتب التحقيقات الفيدرالي، ليجبرها على البقاء معه كعشيقة لعامين كاملين، والتنقل معه عبر الولايات الأميركية من فندق إلى آخر، خوفًا من أن ينفذ تهديده ويدخلها إلى سجن إصلاحي للفتيات، يخبرنا نابوكوف أن: "الرواية ما هي إلا اعترافات هامبرت التي كتبها في سجنه حيث توفي بانتظار محاكمته عام 1952".

بعد فشله في قصة حب قرر هامبرت الأستاذ الجامعي المغرم بسحر الفتيات الصغيرات أن يستأجر غرفة في منزل الأرملة شارلوت هايز، ليجد نفسه مهووسًا بحب ابنتها دولوريس، وهي فتاة جميلة لكنها سيئة الطباع لا تتعدى الثانية عشرة من عمرها. ببساطة، قرر أن يتزوج الأم ليبقى قريبًا من فتاة أحلامه الصغيرة.

لم يمر وقت طويل قبل أن تكتشف شارلوت نوايا زوجها عبر قراءة مذكراته، لكنّ القدر يتدخل لمصلحته حين تموت الزوجة في الليلة نفسها

لتصبح دولوريس - أو لوليتا - كما يحلو له تسميتها، في عهدته. عندها يصطحب الصغيرة في رحلة طويلة في سيارته. ينجح هامبرت في إغواء لوليتا، ويجبرها فيما بعد على البقاء معه، مقابل هدايا ووعود. وبعد عامين من العبودية، تهرب لوليتا برفقة روائي مسرحي التقت به خلال فترة قصيرة قضتها في إحدى المدارس.

في نهاية الرواية، يصبح همّ هامبرت الوحيد العثور على غريمه وقتله إلى أن يفعل ذلك. أما لوليتا فينتهي بها المطاف إلى الزواج بشاب فقير، ما يضطرها إلى طلب المساعدة المادية من هامبرت. تلتقيه للمرة الأخيرة وهي حامل، رافضة في شكل مطلق العودة للعيش معه على رغم من إلحاحه المستميت. ثمّ تنتهي الأحداث بموت لوليتا أثناء الولادة، بينما يقضي هو في سجنه بعد كتابته مذكرات اعتبرها الرابطة الأزلية الوحيدة بينه وبين محبوبته الصغيرة.

في العام 1956 يلقي نابوكوف محاضرة بعنوان (حول كتاب لوليتا)، يؤكد فيها أن فكرة الرواية راودته أثناء إقامته في باريس عام 1939، وقد كتبها في البداية باللغة الروسية لم تتجاوز عدد صفحاتها الثلاثين. وفي النسخة الأولى، تدور الأحداث في باريس وكانت الصبية المعشوقة فرنسية وليست أميركية، وفيها يتزوج بطل الرواية واسمه أرثر من امرأة مريضة سرعان ما تموت لتترك له فتاة صغيرة يعشقها بجنون فيقرر اغتصابها، لكنه يفشل، لينتحر في النهاية بإلقاء نفسه تحت عجلات إحدى الشاحنات. ويبدو أن القصة لم تعجب بعض أصدقائه فقرر تمزيقها بعد هجرته إلى أميركا عام 1940 .

في العام 1949 يعود لحكاية لوليتا، ويبدأ بكتابتها من جديد، وفي هذه النسخة نرى الصبية المعشوقة تنحدر من أصل إيرلندي حيث يعود نابوكوف إلى نفس فكرة زواج العاشق العجوز من إحدى السيدات طمعًا

في التقرب من ابنتها، إلا أن هذه النسخة لم تلق الاستحسان أيضًا من العديد من أصدقائه فيقرر حرقها. ليعود لها عام 1952 لينتهي من كتابة النسخة الجديدة عام 1953.

في روايتها (ابتسامة ما) تطرح فرانسوا ساغان فكرة غرام الفتاة الصغيرة بالرجال الكبار، وتكتب في يومياتها: "لم أحب الشبان، بل كنت أفضل عليهم كثيرًا أصدقاء لي من الرجال ذوي الأربعين عامًا الذين كانوا يذيقونني رقة الأب وعذوبة العشيق".

يكتب جان بول سارتر في تعليقه على رواية نابوكوف إن: "هذه الخيالات الشاذة والأحاسيس المشوهة قد تثير الخجل والذعر عند المنافقين الاجتماعيين، لكنها في الحقيقة ليست إلا رواية واقعية تبسط الواقع بصراحة وصدق".

ظل نابوكوف وفيًّا لتقاليد الأدب الروسي، فهو مولع بتشيخوف ونيقولاي غوغول، وبطلات رواياته مثل الكثير من النساء اللائي يظهرن المشاعر المثيرة للحزن والشفقة على حياة لم يعشنها، لكن صاحب (لوليتا) لا يهتم بما يثير الحزن والشفقة، ويفضل أن تكون شخصياته أشباحًا ذات نزوات متقلبة.

21

السر في بهجة الحياة، هو البدء بمعرفة أننا قد وصلنا بالفعل

"عشت حياتي وأنا أفتش عن اللوحة البيضاء التي يشرع الإنسان على أساسها في البناء"

كامو

في الأسطورة اليونانية القديمة، ترغم الآلهة سيزيف ابن الملك أيولوس على دفع صخرة ضخمة من سفح جبل باتجاه القمة، وما أن يصل بها إلى قمة الجبل حتى تعود إلى الأسفل، ويتبعها سيزيف ليدحرجها ثانية إلى القمة، وهكذا إلى ما لانهاية. تقول تفاصيل الأسطورة إن الآلهة أذنت لسيزيف بالخروج من العالم السفلي إلى سطح الأرض للانتقام من زوجته الخائنة، شرط أن يعود ثانيةً إلى العالم السفلي، ولم يدر بخلد سيزيف أنه سيصبح رمزًا للجهد البشري العبثي. فعندما وجد سيزيف نفسه على سطح الأرض ثانية، وعاش الحياة من جديد، قرر أن لا يعود إلى العالم السفلي الذي جاء منه.

يكتب ألبير كامو في تقديمه لكتاب (أسطورة سيزيف): "إن ما يهمني من سيزيف تحديدًا هو هذه الوقفة وتلك العودة، هو ذلك الوجه القريب من الصخور والمتألم ليصبح هو نفسه كالصخرة! فأتخيل ذلك الإنسان وهو يعاود النزول بخطى ثابتة ومثقلة نحو ذلك العذاب الذي لا نهاية له. لأن

هذه الساعة التي تشبه المتنفَس، والتي تعود بالتأكيد مع عودة العذاب، هي ساعة الإدراك. لأن كلَّ لحظة من تلك اللحظات التي يغادر فيها القمم ويتجه هابطًا نحو عرين الآلهة، تجعله أسمى من مصيره، وأقوى من صخرته".

ما الهدف؟ هذا السؤال الذي يطرحه ألبير كامو في كتابه الشهير هذا، والذي نشره عام 1942 بعد رواية (الغريب)، وهو جزء من ثلاثية (العبث) إلى جانب مسرحية (كاليغولا) ورواية (الغريب).

كان ألبير كامو في التاسعة والعشرين من عمره عندما كتب هذه العبارة في أسطورة سيزيف: "من يشعر باللامعقول يرتبط به أبدًا"، حيث نجد أن حياة هذا الكاتب المولود في السابع من تشرين الثاني عام 1913، كانت تجسيدًا لهذه المقولة. فالطفل الذي قضى طفولته وشبابه فقيرًا، مات والده في الحرب بعد عام من ولادته، وجد نفسه فجأة واحدًا من المشاهير، كتبه تُباع بالملايين ويصبح أصغر فائز بجائزة نوبل للآداب - حصل عليها عام 1957 - نشأ في بيت جدته، لأن أمه كانت تعاني من مرض الإعاقة والصمم. ولكنها مع ذلك عملت منظفة في البيوت لكي تعيل طفليها، يكتب عن تلك الفترة في حياته: "أذكر طفلاً كان يقيم في حي فقير، كان هناك طابقان فقط والدرج عديم النور، ورغم مرور السنين فإنه حتى اليوم يستطيع تلمس طريقه إلى البيت في الظلام، حتى جسده مشبع بذلك المنزل. ساقاه تتذكران بالضبط ارتفاع الدرجات ويده تتذكر فزعها الغريزي، الذي عجزت عن السيطرة عليه، من الدربزين، بسبب الصراصير". كان طموحه أن يصبح لاعبًا مشهورًا لكرة القدم، في السابعة عشرة من عمره أصيب بمرض السل، وقال الأطباء لوالدته إنه لن يعيش طويلاً، ويبدو أن مجابهته الأولى للموت ونومه في أحد أسرّة المستشفى محاطًا بالعديد من المرضى، أيقظا لديه مبكرًا الوعي بالمصير الإنساني، فترة النقاهة من المرض ساعدته كثيرًا في تكوين شخصيته

الثقافية. قرأ أندريه جيد وكيركيغارد وستندال ومارسيل بروست، ونجده يكتب عن رحلته مع المرض: "إن الإنسانية إذ تجهد في عملها اليومي، لم تجد أفضل من هذا الهروب البائس إلى المرض، ليدركوا أنه ما تبقى من الروح. المرض بالنسبة إلى الإنسان الفقير رحلة، والحياة في المستشفى حياة في قصر".

في التاسعة عشرة من عمره يتزوج من فتاة تنتمي لعائلة غنية لكنها كانت نزقة، في تلك الفترة بدا كتابة روايته (الغريب)، وانتهى من مسرحة إحدى روايات أندريه مالرو، حياته الزوجية انتهت بالطلاق.. بعدها يعيش حياة مرفهة بسبب عائدات كتبه، ويبدو أن اللامعقول لا يريد أن يفارقه لتنتهي حياته بمشهد عبثي، حيث قتل في حادث سيارة ليموت ميتة لامعقولة، وهو الذي رأى أن كل ما في الوجود الإنساني "لامعقول" رغم أن إيمانه بقدرة الإنسان على المقاومة لم ينقطع حتى آخر يوم في حياته.

يؤكد كامو في (أسطورة سيزيف) أن الإصرار يجب أن يظل دائمًا قريبًا من عيوننا، رغم معرفتنا بعبثية الحياة. إن سيزيف هو بطل المستحيل، بطولته تواضع مخلوط بالمستحيل، وليست عملاً خارقًا يعجز عنه الإنسان، إنه يعيش في فراغ دائم، يحتقر الآلهة ويكره الموت: "من بين خطايا سيزيف أنه قيد الموت بسلاسل". وسيزيف يعرف مصيره ويحمله فوق كتفيه، لكنه لا يشكو ولا يستجدي العطف، إن المعنى الحقيقي لحياته هو في صراعه مع المستحيل: "المستحيل هو الحقيقة المباشرة التي تجعل الإنسان يقول: إن الحياة لا معنى لها".

يبدأ كتاب سيزيف بتوضيح معنى العبث من خلال تعقب سريع لحياتنا اليومية التي تمتلئ بأمثلة من العبث: "يتفق أن يتهاوى حولنا ديكور حياتنا اليومية في حطام. اللباس، الباص، أربع ساعات في المكتب أو المصنع، وجبة أكل، الباص، أربع ساعات من العمل، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس،

الجمعة، السبت، كلها في نفس الإيقاع، والطريق يسهل السير في معظم الوقت. ولكن كلمة "لماذا؟" تظهر ذات يوم وإذا كل شيء يبدو متعبًا ملون بالدهشة".

في (أسطورة سيزيف) يحاول كامو أن ينفي عن نفسه صفة الفيلسوف، إذ يريد أن يُنظر إليه باعتباره كاتب مقالات، ولهذا ينبه القارئ في بداية الكتاب إلى ذلك بقوله: "تعالج الصفحات التالية الحساسية العبثية التي يمكن العثور عليها بشكل متفرق، على امتداد القرن، وليس فلسفة العبث التي لم يعرفها عصرنا هذا بمعنى الكلمة".

ونجد كامو في (أسطورة سيزيف) يرفض محاولات الخروج من عبث الحياة عن طريق الهروب أو الانتحار، فالإنسان العبثي ينبغي عليه أن يظل بمنأى عن كل الحلول، ويرى كامو أن عدم جدوى الحياة لا يمكنه أن يبرر الانتحار الذي يعتبره حماية سيئة للنفس من عبثية العالم. ولهذا فإن الوعي المتمرد الذي يتحدى الوضع الإنساني باستمرار هو وحده الذي يجعل الإنسان يكتشف حريته الحقيقية.

ينتقد جان بول سارتر مفهوم كامو للعبث، وفي حواره معه يقول: "ما أسميّه عبثًا شيء مختلف جدًا، إنه عدم لزوم الكائن الذي يوجد، دون أن يكون أصل وجوده، إنه كل ما يوجد في الكائن من معطيات غير قابلة للتبرير. والخلاصات التي أستخلصها من هذا الطابع الذي يميز الكائن، تتطور على مستوى يختلف عن كامو، الذي هو مستوى المنطق الجاف والمتأمل". ونجد كامو يرد على ما كتبه سارتر بمقال طويل يؤكد فيه: "لو سلم المرء بأنه ما من شيء ذي معنى، فلا بد من الانتهاء إلى استحالة العالم. ولكن هل صحيح أن لا معنى هناك؟ إنني لم أر أبدًا من الممكن البقاء على هذا الوضع. وعندما كتبت (أسطورة سيزيف) كنت أفكر حينئذ في محاولتي للتمرد التي كتبتها

فيما بعد، والتي حاولت أن أعرض فيها، بعد وصف جوانب متفرقة من عاطفة المستحيل، لنواح مختلفة من الإنسان المتمرد".

***

"كل الكتب تتحدث، لكن الكتاب الجيد هو الذي يصغي أيضًا"

مارك هادون

طوال تاريخ الفلسفة تساءل الفلاسفة عن جوهر الحياة، وكان سارتر يعتقد أن لا معنى لطرح أسئلة عن معنى الحياة بشكل عام، وكما يقول سارتر فنحن أولئك الممثلون الذين دُفع بهم إلى خشبة المسرح، دون إعطائهم دورًا محددًا، دون نص يوضع في اليد، ودون ملقن يهمس لهم بما عليهم أن يفعلوا، إن علينا وحدنا أن نختار كيف نعيش حياتنا. وهذا الإنسان يصفه فيما بعد كولن ولسون في كتابه (اللامنتمي) بأنه الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة من أساس واهٍ، والذي يشعر أن الفوضى هي أعمق تجذرًا من النظام: "إنني أرى نفسي في المرآة الطويلة الضيقة المعلقة في واجهة ذلك المحل، قادمًا يلوح عليّ الشحوب والنعاس"، كانت هذه السطور التي اقتبسها كولن ولسون من رواية هنري باربوس الشهيرة (الجحيم)، حيث نجد أنفسنا إزاء رجل غامض يلجأ إلى غرفة في فندق ويغلق بابها عليه، ويعيش لمهمة واحدة وهي مراقبة العالم الخارجي من ثقب الباب، فهو الآن فقط: "يرى أكثر وأعمق مما يجب".

في العام 1946 ينشر جان بول سارتر كتابه (ما الأدب)، وفيه يأخذ الفيلسوف الوجودي على صديقه كامو تغليبه لعبثية الحياة على الحرية، ونراه يصر على أن يقدم الكاتب رسالة أخلاقية يضيء من خلالها عصره، ويؤثر

في الآخرين عند الحاجة، إنه يريد أن يعود الأدب والفن إلى: "ما ينبغي له أن يكون أبدًا وظيفة ومهمة اجتماعية". وهذا الموقف هو نتيجة من نتائج الالتزام، أي تأكيد المسؤولية الآلية التي لا مفر منها والتي يريدها أن تكون واعية لتكون أشد فاعلية، مسؤولية الإنسان بصورة عامة والكاتب بصورة خاصة هي في تضامن البشر. ويعتقد سارتر أن من المستحيل على أي إنسان ألا يبلي بالوقائع الراهنة، لأن هذه الوقائع لا بد لها من أن تؤثر في حياته، ولهذا فإن سارتر يؤكد أن العيش في الواقع يقتضي المشاركة فيه: "إننا لا نكتشف أنفسنا في عزلة ما، بل نكتشفها على الطريق، في المدينة، وسط الجمهور، شيئًا بين الأشياء، إنسانًا بين الناس". إن الإنسان مشروع لإعطاء معنى للعالم، وحياته تتلخص باختياره الحر، والإنسان ليس حرًا فحسب عند سارتر، وإنما هو أيضًا الحرية. وعن اختيار نوع الحرية هذه: "وهو إنما مسؤول عن هذا الاختيار. إنه ليس حرًا أبدًا في الاختيار، إنه ملتزم، وينبغي له أن يراهن، إن الامتناع هو أيضًا اختيار".

في العام 1970 قرر ريتشارد باخ، وهو كاتب أميركي، أن يجرب حظه في كتابة رواية، كان قبلها قد كتب سيناريوهات للسينما لاقت الفشل والرفض، بعدها حاول أن يجرب حظه في كتابة القصة القصيرة، ولم يتمكن من إقناع الناشرين بأهمية ما يكتب. كان ريتشارد باخ، المولود في شهر حزيران من عام 1936 لعائلة ميسورة، يرغب في أن يعيش حياة خارج المألوف، فهو لا يحب أجواء المال والصفقات التجارية وكان يقضي وقته في قراءة الروايات، شغف بأعمال تولستوي ووجد في (الحرب والسلم) عالمًا فسيحًا من التضحية والآلام والموت والحب والطمأنينة.

يقال إن تولستوي عندما كتب (الحرب والسلام) قرأ مصادر بأكثر من سبع لغات؛ الإنكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية واللاتينية،

وقضى ما يقارب الست سنوات حتى انتهى من آخر صفحات الرواية. وتكتب زوجته صوفيا في يومياتها: "لقد نهب تولستوي أرفف مكتبته لصالح الخلفية الاجتماعية والتاريخية للرواية، كان يعتمد على المذكرات وكتب التاريخ". تغير (الحرب والسلم) نظرة ريتشارد باخ إلى الحياة وحين يقرأ هذه العبارة التي جاءت على لسان آندرو بولكونسكي: "الحب هو الحياة. كل شيء أفهمه، أفهمه فقط لأنني أحب الآخرين"، كانت هذه العبارة بمثابة المفتاح لتقديم رواية بعنوان (النورس جوناثان ليفنجستون) ولم يتوقع باخ أن هذه الرواية التي طبع منها ثلاثة آلاف على نفقته الخاصة ستصبح بعد عام على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

يحكي الكتاب قصة النورس الصغير جوناثان ليفنجستون الذي يعتقد أن معظم النوارس لا تهتم سوى بتعلم أبسط الحقائق المتعلقة بالطيران التي تمكنها من الحصول على قوتها اليومي ومن ثم العودة بأمان. لم يكن الطيران بالنسبة للنوارس هو المهم وإنما البحث عن الطعام، أما بالنسبة للنورس جوناثان ليفنجستون فلم يكن الطعام هو الهدف في الحياة بل الطيران بمنتهى الحرية. كان يعشق الطيران وعندما تعاتبه والدته لانفراده بنفسه طوال الوقت ليجرب جناحيه في أساليب جديدة للطيران كان يجيبها: "أريد أن أعرف مدى الإمكانات التي أتمتع بها، هذا كل شيء، أريد أن أعرف"، كانت رغبته في المعرفة تتفوق على رغبة الآخرين في البحث عن القوت اليومي. كان جوناثان قد صادف الطائر الأكثر حكمة شيانغ، الذي يعلمه كيفية التحرك الفوري إلى أي مكان آخر في الكون. ويقول له إن: "السر في البهجة هو البدء بمعرفة أنك قد وصلت بالفعل". وفجأة يكتشف شيوخ النوارس أن جوناثان يعلم صغارهم فنونًا جديدة للطيران، فيقررون طرده من القطيع وهم يقولون إن: "الهدف من الحياة هو أن نحاول العيش أطول

فترة ممكنة، وأن نأكل، لا أن نحاول فهم الحياة، لقد خُلق جناحا النورس بهذا الحجم فقط ويجب أن يطير قدر استطاعته بجناحيه، ولو أن الخالق أراد لك أن تطير أكثر من ذلك لخلق لك جناحي نسر". عندما طُرد جوناثان من القطيع لم يكن يدرك أنه عندما رغب في أن يحلق بالنوارس إلى آفاق الحرية، إنما كان يهدد تقاليدًا توارثتها النوارس على مر الزمن.

وعندما يجده معلمه حزينًا لأن الآخرين يرفضون فكرة الطيران إلى الأعلى، يطلب منه أن يكون صادقًا مع نفسه: "لديك الحرية في أن تكون نفسك، نفسك الحقيقية، هنا والآن، ولا شيء يمكن أن يقف في طريقك". كانت الكلمات الأخيرة لمعلم جوناثان هي: "استمر في العمل على الحب". من خلال تعاليمه، يدرك جوناثان أن الروح لا يمكن أن تكون حرة حقًا دون القدرة على الصفح، وأن طريق التقدم سيكون من خلال مهمته كمعلم وليس فقط من خلال العمل الجاد كطالب.

يعود جوناثان إلى قطيع النوارس ليشاركهم أفكاره الجديدة، وهو جاهز هذه المرة للحرب الصعبة ضد القواعد الحالية التي رسخها مجتمعه وأصبحت أشبه بالتقاليد الموروثة.

***

بدأ فيودور دوستويفسكي كتابة (الإخوة كارامازوف) في حزيران من عام 1878 وانتهى من فصولها الأخيرة في تشرين الأول عام 1880، بعدها بثلاثة أشهر توفي عن عمر بلغ ستين عامًا. وفي رسائله التي ترجمها إلى العربية خيري الضامن يكتب إلى تولستوي: "أنا أعمل جاهدًا ليل نهار، لأنتهي من (الإخوة كارامازوف)، وإني أعيد في ذهني العمل الذي أرى فيه الكثير من نفسي".

إن محور أحداث (الإخوة كارامازوف) هو حادثة مقتل الأب، وقد نسبها الكثير من النقاد إلى حادثة جرت في حياة دوستويفسكي نفسه، فأبوه مات مقتولاً. وثمة حادثة شخصية أخرى كانت سببًا في أن يتفرغ دوستويفسكي لكتابة (الإخوة كارامازوف) وهي وفاة ابنه سنة 1878 متأثرًا بنوبة صرع وكان يبلغ من العمر ثلاث سنوات. فلجأ الأب دوستويفسكي إلى أحد الأديرة وهناك تعرف على الأب أمبروسيوس، والذي نجده مجسدًا في شخصية الأب زوسيما في الرواية، ويقرر دوستويفسكي أن يطلق اسم ابنه المتوفى أليكسي على أصغر الإخوة كارامازوف. غير أن موضوع قتل الأب لم يكن هو الوحيد الذي أثار اهتمام دوستويفسكي، فقد كانت تلك الفترة تعيش صراعًا بين الليبراليين وبين الذين يطالبون بالحفاظ على الهوية القومية الروسية، وكان دوستويفسكي واحدًا منهم.

وتعد (الإخوة كارامازوف) أكثر من رواية، إنها أشبه بوصية إنسانية يضعها دوستويفسكي للبشرية قبل أن يودع العالم، وفيها خلاصة لكل الأفكار التي كانت تدور آنذاك حول الإنسان والدين والإيمان والله، والخير والشر. في تقديمه للرواية يكتب الناقد الروسي يوري سليزنيوف: "لقد أعطانا دوستويفسكي في (الإخوة كارامازوف) خلاصة أدبه وفنه. ففي هذه الرواية نجد التعارض الذي رأيناه في رواية (المراهق) بين الأب والابن، ونجد الصراع الذي رأيناه في (الشياطين) بين الإيمان والكفر، ونجد هيكل ما رأيناه في (الأبله) من شخوص ومن تنافس بين غريمين: وقد كان اسم إليوشا في مسودة (الإخوة كارامازوف)، موشكين بطل رواية (الأبله)... ونرى أن غروشنكا في (الإخوة كارامازوف) تذكّر بآناستازيا في (الأبله). أما ديمتري فيكاد يكون راسكولنيكوف (الجريمة والعقاب)، وسمردياكوف هو فومافومتش في قرية ستيباتتشيكوفو. والمشكلة المطروحة في حلم المفتش

الكبير في (الإخوة كارامازوف) هي نفسها المطروحة في قصة (الجارة) التي كتبها دوستويفسكي في مطلع شبابه".

يبدو للبعض أن (الإخوة كارامازوف) مجرد رواية عن الجريمة التي يقترفها ابن في حق أبيه، ويستغرق الأمر فصولاً طويلة قبل أن يصل التحقيق إلى القاتل الحقيقي، بعدما كان هذا التحقيق قد وجه شكوكه في نواح أخرى في اتجاه الأبناء الآخرين للأب القتيل. إلا أن دوستويفسكي بعد أن يكشف لنا أن القاتل الذي ارتكب الجريمة هو سمردياكوف ينبهنا إلى أن الجريمة تم تنفيذها من خلال اللغة التي كان يحرض فيها الابن الآخر إيفان ضد أبيه، فإذا كان سمردياكوف قد نفذ فعل القتل، فإن القاتل الحقيقي هو إيفان، المفكر ذو العقل البارد، الذي إذ يسيطر على الوعي الباطني لأخيه سمردياكوف، يدفعه بالتدريج إلى ارتكاب الجريمة. فإيفان المتأثر بأفكار نيتشه والذي يتحدث عن أفكار التقدم والسمو الفردي، عرف كيف يسيطر بأفكاره على سمردياكوف، جاعلاً منه مجرد أداة تنفذ له الجريمة التي يريد. ويتساءل دوستويفسكي: هل نحن أمام جريمة عادية؟ أم أننا في الحقيقة أمام حكاية البشرية كلها منذ فجر التاريخ؟ أمام أسئلة الخير والشر الخالدة؟ أمام لعبة الشيطان وأمام ضعف الإنسان البسيط أمام هذه اللعبة؟

يكتب ألبير كامو أن: "لرواية (الأخوة كارامازوف) صفة خاصة تميزها عن باقي أعمال دوستويفسكي، وهي مدى انشغال أبطالها بسؤال الوجود، ويبدو أن كل واحد منهم يحمل فكرة خاصة به عن هذا الموضوع".

22

العقل الذي يتمتع به الجميع هو منبع المعرفة الحقيقي

"إن في السماء والأرض يا هوراشيو لأكثر مما تحلم به فلسفتك"

هاملت

كنت قد بدأت بقراءة بعض الكتب العلمية في سن مبكرة، ولا أستطيع الادعاء بأنني استطعت حل ألغازها، والبعض منها لم أستطع إنهاءه، وإذا سألتني إن كنت أحب مثل هذه الكتب، فسأرد بالإيجاب، وأكثر من هذا، لطالما اعتبرت هذه الكتب بوابتي لأن أكون قارئًا جيدًا. هل يمكن لأحد أن يقول عن نفسه إنه قارئ جيد؟ يكتب موريس بلانشو: "إن القارئ الجيد هو الذي يتجنّب التواضع ويملك العناد على البقاء كما هو أمام ما يقرأ".

كان في السابعة عشرة، خجولاً وحساسًا، يدرس الإنكليزية والفارسية والتركية، ينزوي في غرفته ليقرأ، مما جعل الأب، والذي كان مفتيًا لبغداد ومن كبار الشخصيات فيها، يشعر أن ابنه الذي يعدّه ليكون خليفة له قد أصيب بلوثة. هو يخفي عددًا من الكتب في صندوق خشبي خوفًا من أن يطلع عليها أحد، كان أحد هذه الكتب التي غيّرت حياة الشاب جميل صدقي الزهاوي مطبوعًا بالإنكليزية بعنوان (البحث عن الحقيقة في العلوم) للفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي أراد في كتابه أن يؤكد على أن الأولوية هي

للعقل، وأنه يجب الارتكاز على العقل، وعليه وحده: "إن العقل الذي يتمتع به الجميع هو منبع المعرفة الحقيقي". الكتاب الثاني كان مطبوعًا بحروف عربية بعنوان (شرح بخنر على مذهب دارون) الذي كتبه الطبيب شبلي شميل المولود في بيروت عام 1850، والذي نشأ مثل الزهاوي في أسرة دينية سرعان ما تمرد عليها لتعارض أفكارها مع صريح العقول الحرة، وقد تعمَّق في دراسة الفلسفة والعلوم، وكان الزهاوي يلقبه "الأستاذ الفيلسوف".

في تلك الأيام قرر الزهاوي المولود عام 1863 أن يؤلف كتابًا في العلوم. تعرف على يعقوب صروف، وفرح بفرصة النشر في مجلته (المقتطف)، وكان سعيدًا بالسفر إلى إسطنبول، والجلوس على مقعد في حديقة عامة وهو يحمل كتاب (أصل الأنواع) لداروين، في انتظار مرور غريب يسأله ما إذا كان يؤمن بما كتبه صاحب هذا الكتاب؟ بعد أكثر من عشرين عامًا وفي بغداد، نراه يرسل إلى سلامة موسى مخطوطة كتابه (تعليل الجاذبية). كان قد بلغ السبعين من عمره، شعره أبيض، نظره ضعيف، إلا أن في عينيه تلك اللمعة الطفولية، المشاغبة، الضاحكة التي رآها صاحب مجلة (الرسالة) أحمد حسن الزيات: "كنت أزوره في بيته فأراه قاعدًا يشكو التعب، لأنه قضى الليل ساهدًا يقرأ، فالكتب والمجلات منتشرة على سريره وعلى مقعده، والمسودات مدسوسة تحت مخدته، فأفكر في الذهن الذي لا يكل، واللسان الذي لا يفتر، والزهو الذي لا يسكن، والتمرد الذي لا يهن، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة، والحياة التي تتخذ هيئة الموت".

في (تعليل الجاذبية) يعترض الزهاوي على نظرية نيوتن ويهاجمها بمنطق العلم أيضًا، حيث كان يعتقد أن القاعدة التي انصرف إليها نيوتن وأسماها "الجذب" هي في الواقع دفع، يعني دفع المادة للمادة. ويشرح الزهاوي في كتابه من خلال نظرية الدفع التي ابتكرها كيف تتولد الحرارة والضوء والشموس

والنجوم. كان الزهاوي يرى أن حياته سباق دائم مع الأدب والعلم. نشر أكثر من كتاب في العلوم، لكنه لم يتخلَ عن الشعر. اعتبر نفسه مبشرًا بنظرية التطور، وساهم في أواخر القرن التاسع عشر في التمهيد لانفجار النهضة العربية الحديثة، وبات من رواد حركة التنوير الواسعة الاطّلاع.

كان سقراط يشبّه نفسه بالسمكة الرعاشة، فأسئلته تُجمد الذي يحاوره وتَخلع عن الأشياء قناعها العادي. يهتف التلميذ ثبايتيتوس بمعلمه سقراط بعد أن جعله يقر بجهله: "بحق الآلهة يا سقراط! إنني لا أفيق من الاندهاش من معنى هذه الأشياء، وأحيانًا يصيبني الدوار"، يرد سقراط بشكل مرح وبسيط: "أجل إن هذه الحال بعينها هي التي تميز الفيلسوف، هذا هو وحده الاندهاش، هو أصل الفلسفة". يكتب أحمد حسن الزيات في مقال نشره عام 1936 بعد وفاة الزهاوي بأيام: "كانت عيناه البراقة تترآى من خلف المنظار، تنبئ بحيوية، والدهشة التي تضطرم في نظراته، تجعلني وجهًا لوجه أمام كتلة من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتسأل عن موضوع دهشتها، الذي لا يخرج أبدًا عن سؤال العلم".

***

كانت تنظر إليه وهو يسير في طريقه لا يلتفت إلى أحد، لم يكن يسير كما يفعل معظم الناس ممن يعرفون هدفهم ويتأكدون من مواضع أقدامهم، فقد كان رافعًا رأسه إلى السماء ومشغولاً بتأمل النجوم. وما هي لحظات إلا ويجد نفسه قد وقع في حفرة لم ينتبه إليها، هذا المشهد الغريب استهوى المرأة التي تتابع طاليس المالطي الذي اشتهر في بلاد الإغريق قبل أكثر من ألفين وخمسمائة عام بتنبوئه بحدوث كسوف للشمس، وقد صحّت توقعاته. ففي عام 585 ق. م. حدث كسوف للشمس، مما أعطى لطاليس مكانة وشهرة في مجتمعه. ولهذا عندما رأت المرأة الشيخ المهيب يقع في الحفرة أطلقت ضحكة

عالية وهي تقول له: "أنّى لك أن تعلم كل شيء عن السماء يا طاليس، وأنت لا تستطيع أن ترى ما تحت قدميك؟"

ماذا تعني ضحكة المرأة التي يقال إن بها بدأت قصة العلوم؟ أكان بمحض الصدفة أن يجد طاليس نفسه موضع سخرية؟ هل نفهم أن العلوم تخالف المألوف في الحياة، وأنها في بعض الأحيان تصبح موضع استنكار ومقاومة؟

في العام 1687 أصدر إسحاق نيوتن كتابه (النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية)، وكان في الخامسة والأربعين من عمره. ويخبرنا أحد كتّاب سيرته أنه عندما نشر الكتاب لم يفهمه أحد آنذاك باستثناء أشخاص لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وقد اعترف نيوتن أنه كتاب صعب. آنذاك كانت الجمعية الملكية البريطانية قد وعدت نيوتن بتمويل نشر الكتاب، إلا أنها نكثت بوعدها فقام أحد أصدقائه ويدعى إدموند هالي بتسديد ثمن الطباعة من جيبه الخاص، ليخرج الكتاب من المطبعة بحجم صغير وبسعر عشرة شلنات. ولم يبع من الكتاب سوى اثني عشرة نسخة، وظل صاحب المطبعة يترجى نيوتن أن يخلصه من النسخ المتبقية التي لا يريد أحد شراءها.

ولد إسحاق نيوتن في الخامس والعشرين من كانون الأول عام 1642، لامرأة ترمّلت بعد زواجها بستة أشهر لتتزوج من جار لها غني، شرطه الوحيد أن لا يشاهد هذا الطفل الضعيف البنية، والذي كان يصفه بالغبي، فقررت والدته أن تترك ابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات في عهدة والدتها. بعد أن بلغ العاشرة من عمره قرر خاله القس أن يعلمه المبادئ الدينية أملاً في أن يصبح في المستقبل رجل دين. فألحقه في مدرسة بمدينة غرانثام، واضطر الصبي إلى أن يسكن في غرفة مؤجرة تعود لرجل يعمل صيدليًا. وسيندهش الصبي وهو يشاهد في واجهة الصيدلية الأنابيب والقوارير، وسيلعب لقاؤه بصاحب الصيدلية دورًا حاسمًا في حياته، إذ يجعله يعشق الكيمياء.

وكان يأخذ من الصيدلي كتبًا قديمة، ليتأمل في صورها والرسوم التي تزين صفحاتها. لم يكن آنذاك قد تجاوز الثانية عشرة من عمره، لذلك لم يفهم كل ما يقرأ، ومع ذلك كانت هذه الكتب تسحره، لأنها كانت تتحدث عن كل شيء؛ الفيزياء، وعلم النبات، والتشريح والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك. ومن بين الكتب التي أثارت اهتمام الصبي إسحاق نيوتن كتاب بعنوان (أسرار الطبيعة)، وجد فيه سر عملية بناء الطواحين الهوائية والآلات الصغيرة، وقد تمكن من خلال الكتاب من صنع ساعة شمسية. وفي أوقات الفراغ كان يتسلل إلى الصيدلية ليراقب تجارب الصيدلي وتحضيره للدواء، وأصبح صاحب الصيدلية بمثابة أب له يعوضه عن غياب الأب الذي لم يعرفه.

بعد سنتين سيحدث طارئ في حياته، حيث يتوفى زوج أمه تاركًا لهم مزرعة كبيرة، مع أربعة أبناء. ولهذا قررت الأم أن تستدعي ابنها إسحاق البالغ من العمر 14 عامًا ليكون مسؤولاً عن العائلة. هكذا سيصبح مطالبًا بالذهاب صباح كل يوم إلى السوق الكبير لبيع محاصيل المزرعة ولشراء بعض الأغنام. ولم يتسن له إكمال دراسته إلا بعد أربع سنوات من العمل، حيث عاد إلى مدرسته ليكمل الدراسة الثانوية وهو في العشرين من عمره، ليلتحق بعدها بجامعة كمبردج لدراسة الرياضيات. إلا أن وباء الطاعون الذي اجتاح لندن عام 1665 قضى على آماله في إكمال دراسته، فقد أغلِقت أبواب الجامعة، ليعود نيوتن إلى قريته يمضي أيامه في التأمل والصمت. وكانت هذه التأملات هي الأساس الذي قام عليه إنتاجه العلمي. فخلال الثمانية عشر شهرًا التي قضاها في القرية اكتشف قوانين الحركة والجاذبية، وأجرى تجارب على الضوء ليثبت أن الضوء الأبيض يتألف من جميع ألوان الطيف الشمسي، ولم يكلفه هذا الاكتشاف العظيم أكثر من جنيه إسترليني

جمعه من أمه وعمه وبعض أخواله ليشتري به من سوق القرية قطعًا من الزجاج، يجري عليها تجاربه، وليبتكر بعد ذلك نوعًا من التلسكوب صنعه من العدسات الزجاجية وبقايا المرايا التي اشتراها.

ومثلما كانت حياة نيوتن غريبة، فقد انتشر حول أبحاثه الكثير من الحكايات الغريبة، كان من أبرزها أنه حين كان جالسًا في قريته يتأمل، تحت شجرة من أشجار التفاح، فإذ بتفاحة تسقط على الأرض. ولمع ذهن الطالب الجامعي مع سقوطها، فقال في نفسه متسائلاً: "لماذا سقطت التفاحة إلى أسفل، وليس إلى أعلى أو إلى أية جهة أخرى؟ وهل يمكن أن تكون قوة الجاذبية المؤثرة على التفاحة في الأرض هي ذاتها التي تتحكم في حركة الأجرام السماوية؟" كان هذا الكلام يعتبر ضربًا من الهرطقة، لأنه وفقًا للفكر السائد وقتها، كان يفترض بالكواكب أن تتمركز في أماكن ثابتة تخضع للقوانين السماوية خضوعًا تامًا.

إن من السهل معرفة أنه قبل نيوتن لم يكن هناك تفسير لحركة الأجسام على الأرض أو للأجرام في السماء، وأن الناس كانت تعتقد أن مصائرها معلقة بأيدي الأرواح الخيرة والشياطين. في تلك السنوات انتشرت الشعوذة والسحر والخرافات، وقد جاء في كتابات الفلاسفة الإغريق وكتب اللاهوت أن الأجسام تتحرك بدافع من مشاعر ورغبات البشر، وكان أتباع أرسطو يرون أن الأجسام المتحركة لا بد لها في النهاية أن تبطئ سرعتها ثم تتوقف لأن الإرهاق يتملكها، وأن الأجسام تهوي إلى الأسفل لأنها تشتاق للتوحد مع الأرض.

غير أن الرجل الذي نظم هذه الفوضى الكونية كان إلى حد ما مشهورًا بانعزاله، وأن به مسًا من جنون العظمة. كان شديدًا مع الآخرين وخاض صراعات كثيرة وطويلة حول أفضليته العلمية، واشتهر أيضًا بميله الشديد

للصمت حتى إنه حين كان عضوًا في البرلمان البريطاني لم يسجل أنه تكلم في المجلس إلا مرة واحدة، حين أحسَّ بتيار هواء بارد فطلب من الحاجب أن يغلق النافذة.

خاض نيوتن معركته العلمية والفلسفية من خلال كتابه الشهير (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية)، وفيه عارض نظريات ديكارت في الحركة والكون. وقد تمكن في هذا الكتاب الضخم أن يلخص أفكاره وتجاربه الكثيرة، ويثبت الكثير من القوانين والقواعد. وكان هدفه الأساسي من الكتاب وفق برتراند رسل هو: "إثبات أو شرح كيف أن الجاذبية الأرضية تستطيع المحافظة على نظام الكون"، ويضيف رسل أن نيوتن: "أراد أن يوضح ذلك ليس عن طريق الفلسفة القديمة، ولكن بطريقته الكمية الفيزيائية الجديدة". فيما يرى الفيلسوف الألماني هانز ريشبناخ في كتابه الشهير (نشأة الفلسفة العلمية) الذي ترجمه إلى العربية فؤاد زكريا، أن نيوتن استطاع من خلال هذا الكتاب: "هدم جميع الأفكار الفلسفية القديمة والحديثة".

ومن الطرائف التي تروى عن الكتاب أن نيوتن التقى صدفة بأحد الطلاب وسمعه يقول لزملائه: "انظروا! هذا هو الرجل الذي ألّف كتابًا لا يفهمه هو نفسه ولا يفهمه غيره".

***

”في كل هذه الكتب، يبدو لي أن أول الأفعال التي لا يمكن فصلها عن الانتظار هو القراءة. تمضي العينان على امتداد السطر، وينتظر الفكر أن تتقدما، وهو متشوق لمعرفة ما سيحصل بعد ذلك“

روجيه غرينييه

عندما كتب غاليليو غاليلي كتابه الشهير (حوار بين النظامين الرئيسيين في العالم) عام 1632 بموافقة البابا، لم يكن يعرف أنه سوف يفتح على نفسه أبواب الجحيم. لقد تم توجيه تهمتين إلى غاليليو من قبل الكنيسة، الأولى هي إصراره على تأكيد نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض حول الشمس، والثانية وكانت الأخطر وهي أنه ألف كتابًا باللغة الإيطالية وليست اللاتينية، حيث لم يكن مسموحًا بنشر كتب باللغات المحلية لمنع انتشار العلوم والأفكار الحديثة، والتي كانت تعتبر بنظر الكنيسة أفكارًا هدامة. ولهذا كان كتاب غاليليو أول كتاب علمي يكتب من أجل الناس، وأصبح يشكل ظاهرة استمرت إلى الآن وهي الكتابة العلمية لعامة الناس.

ذات صباح من آذار عام 1974، تعاون عدد من الأشخاص على حمل شاب يرتدي بدلة رسمية لأعلى درجات سلم بناية تضم أشهر الهيئات العلمية، وهي الجمعية الملكية البريطانية. كان هذا الشاب يجلس فوق كرسي ذي عجلات، وقد دفع بكرسيه إلى داخل قاعة كبيرة، حيث تم اختياره عضوًا في الجمعية الملكية، ليجلس على كرسي كان قبل أكثر من ثلاثمائة عام يجلس عليه رجل اسمه إسحاق نيوتن.

ستيفن هوكينغ المولود في الثامن من كانون الأول عام 1942، هو أكبر أطفال عائلة والدها يعمل باحثًا في أمراض المناطق الحارة. يأمل أن يصبح ابنه طبيبًا، لكن الطفل الذي بلغ التاسعة من عمره كان يهوى فك الساعات والراديوهات ليعرف كيف تعمل. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره قرر أن يدرس الرياضيات، وحصل من والده على هدية ثمينة وهي نسخة نادرة من كتاب نيوتن (النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية). كان الأب قد حضر مزادًا لبيع الكتب القديمة وعندما سمع باسم نيوتن أصر على شراء الكتاب لابنه، ولم يبالِ لما قاله بعض المعارف من أن هذا الكتاب صعب على صبي لم يتجاوز الرابعة عشرة، وذكّره صديق له بما كان يُروى عن كتاب نيوتن هذا من أن عشرة فقط في العالم قرأوه ولم يفهموا منه شيئًا، فكان جواب الأب أنه يثق بقدرات ابنه وسيتمكن من حل ألغاز نيوتن.

في الجامعة التي دخلها عام 1959، اتخذ هوكينغ قرارًا بأن يتخصص في علم الكونيات، ففي ذلك الوقت سيطر عليه سؤال محير، وهو من أين يأتي الكون؟ ويتذكر أحد أساتذته أن هوكينغ كان معتادًا على أن يسأل الأسئلة الأكثر إحراجًا، أسئلة يصعب جدًا الإجابة عنها.

في تلك الفترة بدأت آثار المرض الخطير تظهر عليه، في أول سنة كان هناك نقص في القدرة على استخدام اليد وشلل بسيط جعل من الصعب عليه أن يربط حذاءه. وقد شخّص الأطباء مرضه، وهو ضمور عضلي سُمي بمرض العصبة الحركية، وظلت حالته تتدهور، وقيل له إنه سيعيش لمدة عامين فقط. ويقول هوكينغ لكاتب سيرته: "لقد أصابني الإحباط تمامًا من هذا التوقع لسير المرض، ودفعني ترقب الموت إلى الإصابة بالاكتئاب، وخلال انتظار الموت أنفقت معظم وقتي في حجرتي لا أخرج منها، أستمع لموسيقى فاغنر، وأعيد قراءة روايات ه. ج. ويلز، وشغفت بروايته (آلة الزمن)، وحفظت

مقاطع كاملة من رواية (حرب العوالم)".

وبعد مرور سنتين وجد هوكينغ نفسه حيًا، فأدرك أن الموت لم يعد وشيكًا، وارتفعت معنوياته، واكتشف الأطباء أن المرض لم يؤثر على ذهنه، واختفى الاكتئاب. في تلك الفترة حدث تحول مهم في حياته حيث تعرف على جين وايلد التي سيرتبط بها عام 1965 حيث شكل الزواج نقطة تحول في حياته: "لقد جعلتني جين مصممًا على أن أعيش وأواصل طريقي، فقد أعطتني الإرادة لأن أعيش".

في كلمته بالجمعية الملكية البريطانية قال هوكينغ: "إن غاليليو أول عالم بدأ بالفعل في استخدام عينيه، وهو بهذا مسؤول عن عصر العلم هذا الذي نستمتع فيه". في العام 1988 يصدر ستيفن هوكينغ كتابه الشهير (تاريخ موجز الزمن)، ويعد الكتاب من أكثر الكتب تبسيطًا لعلوم الكون، حيث تجاوزت مبيعاته العشرة ملايين نسخة، واحتفظ لسنوات بتصدره لائحة الكتب الأكثر مبيعًا، وترجم إلى 40 لغة منذ إصدار أول نسخة له.

يقدم الكتاب إجابة لأسئلة تدور في بال الكثيرين منا، منها على سبيل المثال السؤال التقليدي: من أين جاء الكون وهل كان موجود دائمًا هنا؟ وسؤال آخر حيّر العلماء حول نسبية الزمن، كيف يبدو الثقب الأسود؟ وما هو أصغر جزء من المادة؟ ولماذا نتذكر دائمًا الماضي وليس المستقبل؟ هل ينكمش الكون بدلاً من أن يتمدد؟ وهل يرتد الزمن وقتها إلى الوراء فيرى البشر موتهم قبل ميلادهم؟ وهل للكون بداية أو نهاية وكيف تكونان وهل للكون حدود؟ إن أينشتاين قد جعل للمكان-الزمان أربعة أبعاد، فماذا لو كان للكون أبعاد أكثر؟

يعد هذا الكتاب هو أول الكتب التي قدمت النظريات العلمية بأسلوب مشوق، وشرح فيه مؤلفه أصعب نظريات الفيزياء والفلك والكونيات

بطريقة تمكن القارئ العادي من متابعتها. وقد روى هوكينغ في مقال له عام 2013 نشرته صحيفة (وول ستريت جورنال) أنه اضطر لإعادة كتابة (تاريخ موجز للزمن) عدة مرات بناءً على طلب محرر دار النشر، من أجل تسهيل فهمه على جمهور القراء من العامة. لكنه يخبرنا في المقال أنه ندم بعد ذلك عندما قرأ الكتاب، فقد اكتشف أن هناك مفاهيم صعبة كان يمكن توضيحها بشكل أكبر.

يكتب ريتشارد دوكنز: "لا يمكن أن يكتمل كتاب عن الكتابة العلمية دون قبس من ستيفن هوكينغ، ومن كتابه (تاريخ موجز للزمن). إن ما يحكيه لنا هوكينغ هي واحدة من أعظم الحكايات على الإطلاق. نحن محظوظون أيضًا أننا نعيش في قرن يمكن فيه لتلك الملحمة أن تُحكى لنا. ومحظوظون أيضًا أن نسمعها من واحد من أكبر المكتشفين".

يكتب هوكينغ في (تاريخ موجز للزمان): "حتى الآن فإن معظم العلماء مشغولون بتطوير نظريات جديدة للإجابة عن سؤال (ما) هو الكون؟ ولم ينشغلوا بسؤال (لماذا) الكون موجود؟ أما هؤلاء الذين من صميم علمهم أن يسألوا (لماذا) فهم الفلاسفة الذين لم يستطيعوا مجاراة تطور النظريات العلمية. في القرن الثامن عشر اعتبر الفلاسفة أن كل المعارف الإنسانية بما فيها العلم من اختصاصهم وناقشوا أسئلة مثل: هل للكون بداية؟ ولكن في القرنين التاسع عشر والعشرين أصبح العلم تقنيًا جدًا ورياضيًا جدًا، وأعقد من أن يفهمه الفلاسفة أو أي إنسان عدا حفنة قليلة من العلماء. لقد تقلص نطاق بحث الفلسفة إلى الدرجة التي قال عنه ويتشغنشتين أشهر فلاسفة القرن: "إن المهمة الوحيدة الباقية للفلسفة هي التحليل اللغوي". يا له من انحدار! يا له من انحدار سيء للتقاليد الفلسفية العظيمة من أرسطو إلى كانط! ومع ذلك فلو قُدّر لنا أن نكتشف نظرية شاملة، فإنها يجب أن تكون

مفهومة في خطوطها العريضة لكل الناس وليس لحفنة من العلماء. عندها سنكون جميعًا فلاسفة وعلماء وأناس عاديين قادرين على المشاركة في النقاش والتساؤل عن: لماذا نحن والكون موجودون؟ لو أننا وجدنا الإجابة عن هذا السؤال فسيكون ذلك أكبر انتصار للعقل البشري، لأننا ساعتها قد نعرف فكر الله".

في أيار عام 1990 نشرت مجلة (تايم) صورة لستيفن هوكينغ وتم ذكره باعتباره نظيرًا لأينشتاين، وحين سئل عن هذه المقارنة ضحك وقال: "لا يصح أبدًا المقارنة بين شخصين مختلفين، أنا أقرب إلى نيوتن، وكنت أتمنى أن أصبح مثل ويلز كاتب روايات خيال علمي".

23

من الآن سأمضي لأحتفل بكل ما أراه أو أكونه

"إن الكتب هم الأصدقاء الأكثـر هدوءًا واستمرارية، هم المستشارون الأكثـر قربًا، والمعلمون الأكثر صبرًا"

إليوت

هل القراءة سبب لأن تمتلئ حياتنا بالكتب؟ يكتب أندريه مالرو: "ليس هناك كاتب دون مكتبة". في القرن الثامن عشر كان لورنس ستيرن قد كتب رواية (حياة وآراء تريسترام شاندي) وفيها أراد أن يروي لنا المزيد من الحكايات، حتى إنه قام باقتباس فقرات من عشرات الكتب التي قرأها، ليتنقل من سيرفانتيس إلى سويفت ومونتاني ورابليه، ونجده يتعامل مع هذه الاقتباسات والنصوص كأنها جزء من روايته، حتى إن جيمس جويس يكتب بعد مرور مئة وخمسين عامًا على صدور رواية (تريسترام شاندي) إنها أقرب ما تكون إلى مكتبة متكاملة.

في العام 1922 يكتب الشاعر الفرنسي أراغون: "في كل ما أقرأ تقودني الغريزة بقوة شديدة إلى البحث عن الكاتب وإيجاده وتفرسه وهو يكتب، وإلى الإصغاء إلى ما يقوله، لا إلى ما يرويه، حتى إنني في النهاية أجد هزلية التمايزات المعتبرة بين الأجناس الأدبية، كالشعر والرواية والفلسفة، كل هذا بالنسبة لي كلام".

يقال إن كارل ماركس كان مغرمًا في شبابه برواية (تريسترام شاندي)، وبقدرة المؤلف على جمع المتناقضات والافتراضات في رواية تأخذك إلى أكثر من حكاية. ولهذا قال لإنجلز إنه يريد لكتاب (رأس المال) أن يكون مثل رواية (تريسترام شاندي)، مليء بالجدل والقصص المشوقة عن الاقتصاد.

من بين الكتب التي شغفت بها في شبابي كتاب ضخم الحجم، متعدد الأجزاء، أشبه بموسوعة أو دائرة معارف، يذكر مؤرخو الأدب أن مؤلفه أمضى خمسين عامًا في كتابته، يسافر ويستمع ويسجل، ثم يكتب منه فصولاً حتى تجاوزت أجزاؤه الخمسة وعشرين مجلدًا. ويخبرنا ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) أن الصاحب بن عباد كان يستصحب في أسفاره حمل عشرة جمال من كتب الأدب والتاريخ، ولما ورد إليه كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عن سواه.

في أثناء عملي بائعًا للكتب، كانت الكتب التي تصل إلى المكتبة كثيرة جدًا، وكنت أصاب بالحيرة في اختيار ما أقرأه، وأسأل نفسي هل أستطيع قراءة كل هذه الكتب؟ بالطبع لا. يكتب أمبرتو إيكو: "تزخر المكتبات الجيدة بملايين الكتب، ولو افترضنا أننا نريد قراءة كتاب كل يوم، فهذه 365 كتابًا في العام، ولو فعلنا ذلك على مدار 10 سنوات، فسنقرأ حوالي 3600 كتاب، ولو تسنى لأحد أن يفعل ذلك من سن العاشرة حتى الثمانين، فسيكون قد قرأ 25200 كتاب وحسب".

هل قرأتُ (الأغاني) كاملة؟ هل هو كتاب جيد؟ أعرف أنني حرصت على اقتنائه وهي رغبة ظلت تراودني سنوات، كلما يصل إلى المكتبة جزء جديد من (الأغاني)، أتناوله وأذهب به إلى البيت، أقرأ منه صفحات على مدى أيام ثم أتركه، وأعود إليه عندما يصل إلى المكتبة مجلد جديد. لكني حرصت على معرفة تفاصيل حياة المؤلف أبي الفرج الأصفهاني، وكنت

مندهشًا وأنا أقرأ أنه كان يتلصص على مجالس الوزراء والشعراء والجواري والمغنيات، ليحصل على معلومة جديدة يضيفها لكتابه، وأن حكايته تشبه حكاية الكاتب الفرنسي موريس لوبلان الذي كان مهتمًا بدراسة علم النفس، لكنه وجد نفسه ذات يوم أمام طلب صديقه ناشر إحدى المجلات، أن يكتب له قصة مغامرات مشوقة. آنذاك أحس لوبلان بالحرج فهو لم يجرب كتابة القصة، لكنه أمام إلحاح صديقه أرسل للمجلة بعد شهر مظروفًا يتضمن رواية قصيرة تتحدث عن مسافر في إحدى السفن التابعة لشركة الخطوط البحرية الفرنسية. وفي عرض البحر يتلقى عامل التلغراف برقية تقول إن على ظهر السفينة لص مشهور اسمه أرسين لوبين تحت اسم مستعار، وفي هذه اللحظة تتسبب عاصفة في انقطاع الاتصال بين السفينة والعالم الخارجي، فيعم الاضطراب في نفوس الركاب، لا سيما بعد الإبلاغ عن بعض السرقات فوق السفينة، ودارت الشكوك حول الرجل الغامض، الذي يلقى القبض عليه بعد وصول السفينة إلى الميناء. تلاقي القصة نجاحًا كبيرًا بعد نشرها، ويطلب رئيس التحرير من صديقه لوبلان أن يواصل كتابة قصص جديدة، لكن الروائي لم يتحمس للأمر ويبرر ذلك بالقول: "لقد أودعت البطل في السجن"، فرد الناشر بقوله: "لا بأس دعه يهرب".

يحدد أبو الفرج الأصفهاني السبب وراء تأليف كتاب (الأغاني) فيقول: "الذي بعثني على تأليفه أن رئيسًا من رؤسائنا كلفني جمعه، فجمعت كتابًا صغيرًا، وعرفني أن هذا الكتاب لا يفي بالغرض، وسيكون قليل الفائدة ما لم أستمر في تأليفه". ومثل سلسلة (أرسين لوبين) التي امتلأت بكم هائل من اللصوص، ورجال الشرطة، وأصحاب المتاجر، والسجناء، والباعة في الشوارع، والنساء الجميلات، امتلأ كتاب (الأغاني) بكم كبير من فرسان الصحراء، والخلفاء والندماء، والشعراء، والجواري والمغنيات، والسلاطين

والصعاليك، وعلماء النحو وقاطعي الطرق، والهازلين، قضى معهم أبو الفرج الأصفهاني خمسين عامًا يخطط فيها أجزاء موسوعته، يقدم لنا تفاصيل حياة مئات الشعراء والمغنيين، ويتعرض من خلال ذلك لكافة جوانب العصر السياسية والاجتماعية. وكان في كل يوم يذهب إلى سوق الورّاقين فيحمل إلى بيته عشرات المخطوطات يراجعها ويجعل منها مصدرًا لكتابه، ويقدّم للقارئ وجبة شهية فيها شعراء زمنه والأزمان التي سبقته، وفي نفس الوقت يقدّم المغنين والمغنيات وأصحاب الأوزان الموسيقية، رابطًا بين هذه الفئات الثلاث بحيث يبدو الشعر والموسيقى والغناء كما كان يجدر بهم أن يكونوا منذ البداية، فنونًا ثلاثة في بوتقة واحدة.

يكتب مانغويل: "إن الرغبة في اقتناء كتاب ما لا يمكن مقارنتها بالرغبات الأخرى، بسبب أنها لا ترتبط بالأنانية أو الجشع أو الشهوة، بل إنها الدافع الذاتي لأن تكون جزءًا من شيء أعظم منك، وأن تنتمي إلى كوكبة قد تمنحك معنى حقيقيًا لوجودك في الحياة، وتلك الإرادة هي التي تستكمل المكتبة التي تعبر عن كينونتنا. وإنني أتوق كثيرًا لاقتناء كتاب ما، كما قد أتوق تمامًا لأصبع مفقودة".

***

"الكاتب الجيد هو من يستطيع أن يضع أفكاره بشكل واضح، بطريقة بسيطة وقابلة للفهم للجميع"

آندي ميلر

في تلك الأيام وأنا طالب في الإعدادية، وقع في يدي عدد من مجلة (الأديب) اللبنانية. وأنا أتصفح المجلة عثرت على مقال بعنوان (والت ويتمان وأوراق العشب) كتبه يوسف عبد المسيح ثروت. كنت آنذاك مهتمًا

بقراءة كتب التراث والروايات، لقد سمعت بأسماء العديد من الشعراء، لكني للمرة الأولى اسمع باسم ويتمان. أخبرت أحد الأصدقاء بأنني لا أملك الكثير من المعلومات عن مثل هؤلاء الشعراء رغم شهرتهم الكبيرة. وفي كل مرة عندما أواجه باسم جديد أردد بنبرة خفيضة وخجولة: "لم يسبق لي أن سمعت بهذه الكتب".

في يوم من أيام شهر تموز عام 1858، تتوقف عربة على الطريق المؤدي إلى واشنطن، ليصعد إليها رجل يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، يملك قامة هائلة تشبه قامة عملاق، يرتدي ملابس تشبه ملابس العمال، غطى رأسه بقبعة. كان مرحًا وهو يروي حكاياته للمسافرين، وعندما قرر مغادرة العربة، بادل الركاب التحية، وقد علّق أحد المسافرين على هذا الرجل الملتحي بقوله: "إنسان لطيف"، فأجابه السائق: "نعم إنسان لطيف، لكنه غريب الأطوار حتى إنه ألف كتابًا عجيبًا"، فسأل الراكب: "وما اسم هذا الكتاب؟" فقال السائق: "أوراق العشب".

ولد والت ويتمان في الثاني من أيار عام 1819 في لونغ آيلند وهي جزيرة تواجه البحر، كان الابن الثاني بين تسعة من الأطفال. خلال طفولته تنقلت عائلته كثيرًا فقد عمل الوالد نجارًا، ثم بعد ذلك جرب الدخول في مشاريع بناء صغيرة. ورغم أنه حاول أن يصبح رجل أعمال، إلا أن حلمه لم يتحقق، فمات وهو مديون بسبب فشل بعض من مشاريعه، ويخبرنا الابن ويتمان أن والده كان إنسانًا مستقيمًا، يثق بالناس ويؤمن بالمثل الديمقراطية، ومثل هذا السلوك يتعارض مع رجل الأعمال مما أدى إلى خسارته. ويعترف ويتمان أنه ورث حب الحرية عن أبيه. كان الأب محبًا للكتب، وفي منزل ويتمان كان هناك على الدوام كتب تتحدث عن الأفكار الثورية. وقبل وفاته قرر الوالد أن ينشر على نفقته أول ديوان شعر لابنه الذي لم يتجاوز آنذاك السادسة عشرة

من عمره، ويبرز لنا كاتب سيرته أن الكتب التي امتلأ بها البيت صرفته عن الدراسة، حتى إن المعلمين في المدرسة أخبروا والده أن ابنه كسول جدًا ولن ينجح بأي شيء. اتفق الأب مع رأي المعلمين، فقد كان يرى من العبث أن يستمر ابنه في شيء لا يحبه، وأن من الخير له أن يتعلم حرفة تقرّبه من الناس، فكان عمله الأول في مكتب محامٍ. وهناك استطاع أن يتعرف على نوع جديد من الكتب، بعدها سعى لتعلم مهنة الطباعة، هذه المهنة التي قال عنها إنها أشبه بالجامعة، وهي نفس المهنة التي أصر مارك توين على تعلمها أيضًا، ولعل أحب الذكريات في تلك السنوات بالنسبة لويتمان، هي تلك الساعات التي كان فيها يجلس في زاوية من زوايا المطبعة يقرأ في كتاب، مما اضطر صاحب المطبعة إلى أن يقول لوالده: "لو أن نوبة أصابت الصبي لما تحرك". ونراه يكتب بعد سنوات: "أنا أقرأ كي أستدعي روحي". بعدها جرّب العمل في التجارة ففشل، وحاول العودة إلى الدراسة فلم يصبر كثيرًا. وفي النهاية انحاز للأدب وقرر أن يتفرغ له. في تلك السنوات كان يولي اهتمامًا لأحوال الناس، ويتمنى رؤية أميركا خالية من الفقر. بدأ اهتمامه بقراءة مفكري التنوير الفرنسيين فولتير وروسو وديدرو، بعد سنوات سيعمل ويتمان محررًا في إحدى الصحف المحلية، إضافة إلى عمله منضدًا للحروف وموزعًا للصحيفة على المشتركين. في تلك الفترة سيبدأ بكتابة مقالات ساخرة عن البؤس، والفقر، وكان يريد أن يستخدم السخرية كسلاح في معركته ضد شر الظلم والتوزيع غير العادل للثروات.

في العشرين من عمره ينشر ويتمان أول عمل روائي، وقد حققت الرواية نجاحًا كبيرًا إذ تمكن الناشر أن يبيع أكثر من خمسة وعشرين ألف نسخة خلال ثلاثة أشهر، وبدا لويتمان أن الطريق أمامه سالك لكي يصبح روائيًا شهيرًا. لكنه تخلى عن الفكرة بعد أن أعاد قراءة روايته فوجدها: "سخيفة

مليئة بالمواقف المضحكة". كانت الرواية بعنوان (حكاية الأزمان)، وبعد سنوات طويلة سيتذكر ويتمان أنه كتب هذه الرواية ليروي فيها الحياة التعيسة للشباب الذين يأتون إلى نيويورك من الأقاليم للبحث عن عمل، ونجد ويتمان يوجه نقدًا شديدًا للأغنياء الذين استولوا على كل شيء.

ويبدو أن ويتمان أدرك أن الرواية والمقالة الأدبية ليست عالمه، فعاد من جديد إلى الشعر، فهو الآن في الثلاثين من عمره، وبدأ يخطط لكتابة ديوانه (أوراق العشب). في كتابه عن والت ويتمان يشرح لنا موريس مندلسن تحول ويتمان إلى الشعر، حيث يؤكد أن الشاعر أصابه ضرب من الإشراق الصوفي الذي حوله من صحفي عادي إلى شاعر كبير.

في العام 1855 تصدر الطبعة الأولى من (أوراق العشب)، وكانت المجموعة عبارة عن كتاب بثمانين صفحة من الحجم الكبير، وقد نشر ويتمان إعلانًا في إحدى الصحف ذكر فيه أن بإمكان أي مواطن شراء الديوان مقابل دولارين، إلا أن الإعلان لم ينجح في جذب القراء، فاضطر المؤلف الذي طبع الكتاب على نفقته الخاصة إلى أن يوزع العدد الأكبر من النسخ التي طبعها على الأصدقاء، وقد تحمل خسارة مادية كبيرة.

بعد عام تقوم إحدى دور النشر بإصدار طبعة ثانية أضيف إليها بعض القصائد، ولم تلق النجاح أيضًا، وبقيت معظم نسخها في مخازن المطبعة وعلى أرفف المكتبات. وبرغم المقدمة التي كتبها الكاتب الشهير إيمرسون والتي وجّه فيها التحية للشاعر: "أنا على بصيرة بقيمة كتابك المدهش فوجدته أعظم تحفة من تحف الحكمة، جادت بها أميركا إلى حد الآن.. أنا أهنئك في بداية عملك العظيم"، فإن الطبعة الثالثة لم تلق النجاح أيضًا، وكسدت في الأسواق، ومنيت محاولة ويتمان الرابعة في طبع الكتاب بالفشل أيضًا. لقد نُشرت (أوراق العشب) عشر مرات خلال حياة والت ويتمان، وفي كل

مرة يلاقي الديوان الفشل، والشاعر الذي وجه قصائده إلى الشعب، وحلم بجمهور واسع من القراء، لم يتمكن خلال حياته من الوصول إلى ذلك الجمهور. وإضافة إلى عزوف القراء، فإن الشعر لم يثر أي اهتمام داخل أسرة ويتمان، فقد كانت العائلة تجد ابنها يصرف المال على مغامرات أدبية فاشلة.

ويبدو أن القصائد ألهمت إبراهام لنكن أحد أبرز الرموز الأميركية آنذاك فنجده يكتب في دفتر يومياته: "إن مجموعة ويتمان (أوراق العشب) ستظل من الأشعار القليلة التي تثير الانتباه لنضارتها ونظرتها المستحدثة وأشكال تعبيرها الفريدة". وفي لندن يحقق ويتمان الشهرة، ويقرر الكاتب الإنكليزي أوسكار وايلد السفر لزيارة الشاعر في بيته ويكتب: "ليس هناك في عالم أميركا الشاسع العظيم هذا من أحبه وأحترمه أكثر من ويتمان"، وبعد سنوات يكتب د. ه. لورنس: "لقد وضعنا ويتمان على الدرب منذ سنوات، فلماذا لم يكمل أحد الطريق؟ لماذا لا يقبل أحد أعظم كلماته؟ إن الأميركيين ليسوا جديرين بشاعرهم ويتمان".

***

في طفولته وقع له حادث مهم سيلعب تأثيرًا كبيرًا على حياته فيما بعد، وهو حصوله على نسخة مزودة بالرسوم من ديوان الشاعر الأميركي والت ويتمان: "كنت أذهب إلى مكتبة جدي لأستمتع بقراءة القصص، وفي كل ليلة يتكرر مشهد الصيادين واللصوص والصراع حول جنية البحر، كنت مأخوذًا بالكتب، وكان كتاب ويتمان واحدًا منها".

أنجب الطبيب الذي يحب الصيد والعيش في الغابات خمسة أولاد، ثلاث بنات وصبيين، وقد أطلقت الأم التي تمارس الإنشاد في جوق الكنيسة على الولد الثاني اسم إرنست، وحين أصبح عمره ست سنوات قرر والده أن يعلمه أصول صيد الطيور والأسماك، أما الأم فراحت تعلمه العزف على

الكمان. الوحيد الذي كان يهديه الكتب هو جده. يتذكر أنه في الثانية عشرة من عمره أهداه جده نسخة جديدة من ديوان (أوراق العشب)، كان الجد مهووسًا بوالت ويتمان، ويتذكر إرنست همنغواي أن جده قال له ذات يوم: "أريد منك أن تصبح مثل ويتمان، صوت لهذه البلاد". وفي مذكراتها تشير أخته الكبرى إلى أن صداقة وطيدة كانت تربط الصبي إرنست بجده، كان والده ووالدته اتفقا على أن يدخل ابنهما إحدى الجامعات المرموقة، ليحصل على وظيفة مناسبة، إلا أن الابن ذهب باتجاه وصية جده، فبدلاً من الالتحاق بالجامعة أخذ يكتب القصص القصيرة ويتجول بين البلدان. وتصف شقيقته لحظة وصول الطبعة الأولى من مجموعة إرنست همنغواي القصصية إلى والديه، فقد كانت ردة فعلهما عنيفة حيث رمى الأب المجموعة في النار، فيما راحت الأم في نوبة بكاء، وهي ترفع يديها نحو تمثال المسيح، تسأل الله عن الآثام التي ارتكبتها في حياتها، ليصبح ابنها فظيعًا بهذا الشكل. بعد ذلك كتب الأب رسالة إلى ابنه قال فيها إنه لا يرغب في رؤيته بالبيت، كان غضب الأب لأن ابنه جعل من أحد أبطال قصصه مصابًا بمرض الزهري - وهو أحد الأمراض الجنسية - فقد كتب الأب في رسالته: "كنت أعتقد أن تربيتي قد أوحت لك أن الناس المهذبين لا يناقشون أمراضهم الجنسية إلا في عيادة الطبيب، ويبدو أنني كنت على ضلال".

بعد ذلك بسنوات يتذكر همنغواي قراءته الأولى لديوان ويتمان، فيكتب عام 1924 رسالة إلى الشاعر عزرا باوند: "في كل الفنون يبقى الرجل العملاق ويتمان قد بلغ طور الرجولة". وفي رسالة أخرى يكتب همنغواي: "إن الشعر والحياة هما المكان الوحيد الذي يشهد شجاعة وفن ويتمان".

في العام 1942 يقول همنغواي لمراسل مجلة (لايف): "إن إخلاص الكاتب للحقيقة يجب أن يكون من القوة، بحيث يبدو ما يبدعه من خلال

تجربته أكثر صدقًا من أي واقع حقيقي".

في بداية عام 1952، ينشر همنغواي روايته (الشيخ والبحر)، أصر الناشر على أن يطبع 50 ألف نسخة، قال له همنغواي إنك تغامر بأموالك، إلا أن توقعات الناشر هي التي تنجح في النهاية، فقد بيعت جميع النسخ خلال الشهر الأول. وأصبحت حكاية الصياد العجوز واحدة من روائع الأدب العالمي.

أربعة وثمانون يومًا ولم يمسك الصياد سانتياغو سمكة واحدة! أهو النحس الذي يطارده أم العجز؟ يتذكر همنغواي قصيدة ويتمان الشهيرة (المحارب القديم) والتي تتحدث عن مقاتل عجوز يحتضر، يريد أن ينهض ليعود من جديد إلى أيامه الماضية: "لم أنسَ ويتمان يومًا، هذا المقاتل من أجل الحياة كان ملهمي في معظم ما كتبت". في اليوم الخامس والثمانين، يقرر العجوز أن يضع حدًا للنحس، فيغامر ويتوغل بمركبه الصغير في أعماق البحر بحثًا عن الصيد الكبير.

يكتب ويتمان في قصيدته على لسان الرجل العجوز:

فلأعدْ من جديد إلى أيامي بالحرب، إلى الرؤى والمشاهد، إلى تشكيل خط المعركة.

فامنحوني من جديد حياتي في المعركة الوحشية القديمة.

ومثل بطل ويتمان يقرر سانتياغو البدء بمعركة وحشية لتغيير هذا الفأل السيء الذي يطارده، لا تطول به المغامرة حتى تبتلع سمكة مارلين الطعم. إلا أن ضخامتها وقوتها يخلقان له مشكلات ومفاجآت غير محسوبة. لكن سانتياغو بدا معها مصممًا على ألا يتركها تفلت، فيربط خيط الصيد بجسمه. ويشرع يشدها ويجذبها إليه. ولم تكن النهاية هنا مثلما يتوقعها القارئ بأن

تستسلم السمكة للشباك، فقد مرّ يومان والاثنان سانتياغو والسمكة يقاومان ويكافحان. فكلاهما يريد أن ينتصر في معركة الوجود. لكن في اليوم الثالث تضعف السمكة، وحينها يبذل سانتياغو كل ما تبقى لديه من القوة. فيفلح في سحبها إلى القارب، ويباشر طعنها برمح الصيد، ومن ثم يربطها إلى جانب القارب. ويعكف إلى إدارة دفة المركب نحو الشاطئ. وفي تلك المرحلة، وبعد أن ينجح سانتياغو في قتل السمكة الضخمة، تظهر أمامه مشكلة جديدة. إذ يجذب خط الدماء الذي تركته السمكة وراءها على صفحة المياه أثناء مسارها القرش، فتندلع معركة جديدة عندها، ويبدأ في قتال ضار مع أسماك القرش. لكن من دون فائدة، ما أدى إلى نهش القرش لسمكته وافتراس كامل جسدها، بينما كانت تُسحب خلف مركب الشيخ. أثناء ذلك كان العجوز لا يحتمل التفكير في شيء غير النوم في كوخه. وعندما وصل الشاطئ في فجر اليوم التالي، لم يكن القرش قد ترك من سمكته الضخمة سوى هيكل عظمي. فنزل من القارب وحمل صاري مركبه على كتفه متوجهًا إلى كوخه. في الخارج، حيث كان هناك ما تبقى من السمكة، تجمع الصيادون والأهالي حولها، تثيرهم الدهشة والعجب من ضخامة وشكل السمكة التي اصطادها. وتأكد للجميع أخيرًا أن العجوز بإمكانه اصطياد سمكة لم يستطع صياد قبله أن يصطاد مثلها، وكانت تلك النقاشات والأحاديث تدور أمام باب الكوخ، بينما كان سانتياغو في الداخل، يغط في نوم عميق، ويحلم بمعركة جديدة.

في رسالة يوجهها همنغواي إلى والده يكتب: "تعلمت من ويتمان أن أمضي في الحياة مقاتلاً، وأردد معه بيت الشعر الذي كتبه:

ومن الآن سأمضي لأحتفل بكل ما أراه أو أكونه

وأغني وأضحك ولا أنكر شيئًا"

24

افعل ما يتوجب عليك وليحدث ما يحدث

"إن القراءة تتيح لنا فهم الحياة، تحدِثنا عما كان وعما يكون، وأيضًا عما كان يمكن أن يكون"

إنريكي بيلا ماتاس

منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أجد نفسي كل جمعة أذهب إلى شارع المتنبي، مثل محب يذهب للقاء محبوبته، دون أن يدري ما المفاجأة التي بانتظاره. وفي كل مرة كنت أشعر بنشوة غريبة لحظة النظر إلى الكتب، وغالبًا ما كانت الأغلفة تقذف بي إلى عالم مجهول، بينما كنت أرغب بكل كياني أن أغور في أعماق هذه الكتب، وحين أتمكن من الحصول على كتب جديدة، يبدأ قلق آخر، البحث عن عناوين جديدة أخرى. كنت أبحث في رفوف المكتبات مرهوبًا بالأسماء، هذا تولستوي وذاك إيمانويل كانط، هنا يقف جان جاك روسو إلى جانب هنري برغسون، من بعيد ينظر إليهم سارتر ساخرًا، فيما فكتور هيجو لا تحلو له الصحبة إلا مع بلزاك. في زاوية ما يقبع الجاحظ فيما يندب أبو حيان التوحيدي حظه، كنت مثل طفل ضائع وسط غابة كبيرة، يتطفل النظر في وجوه الآخرين، شعور بالسعادة يغمرني، وأنا أمارس لعبة بعث الكُتاب الموتى من قبورهم.

عندما دخل الشاعر الفرنسي بول فاليري إلى الأكاديمية الفرنسية سنة 1927 خلفًا للروائي أميل زولا، حرص أشد الحرص على أن يُكرم الكُتاب الذين سبقوه: "لم يعد من مورد للموتى إلا الأحياء، فأفكارنا هي سبيل النور الوحيد المتاح لهم، هم الذين علمونا أشياء كثيرة، واختفوا كأنما ليفسحوا لنا مكانًا وتركوا لنا حظوظهم كلها. فحري بنا أن نُنصفهم وأن نستقبلهم في ذاكرتنا بخشوع وورع.. الحق أقول لكم أيها السادة، لا أعلم كيف يمكن لأي منا أن يحافظ على رباطة جأشه عندما نفكر مجرد التفكير في مخزون الكتابات الهائل المتراكم في هذا العالم، وهل ثمة ما هو أذهب للعقل من تأمل الجدران المصفحة المذهبة في مكتبة كبيرة".

في يوم من شهر تموز من عام 1858، كتب تشارلز ديكنز رسالة إلى أصدقائه يدعوهم إلى زيارته: "تعالوا أقرأ عليكم صفحات من رواية جديدة. وضعت فيها كل ما قرأته من كتب". كانت الرواية التي يتحدث عنها ديكنز اسمها (قصة مدينتين)، والتي ظهرت المرة الأولى في حلقات في شهر نيسان من عام 1859، لتصدر كاملة في كتاب بعد عدة أشهر، ولتصبح الكتاب الأشهر في تاريخ الرواية الإنكليزية حيث بلغت مبيعاتها أكثر من 200 مليون نسخة. كان ديكنز في السابعة والأربعين من عمره، نشر الكثير من الروايات التي حققت له شهرة كبيرة، يكتب في مقدمة (قصة مدينتين): "لقد تحققت في هذه الصفحات، مما جرى من حوادث وعذاب.. وهذا ما جرى لي أيضًا". وفي يومياته يخبرنا ديكنز أنه عانى كثيرًا في كتابة (قصة مدينتين)، ففي شباط من عام 1859 عندما شرع في الكتابة رأى نفسه غير متمكن من وضع بداية مثيرة للرواية: "ليست افتتاحية قصتي مرضية لنفسي". كان يريد أن يقدم صورة لفرنسا قبل الثورة، وصورة للندن وهي بانتظار التغيير: "لقد وضعت على كتفي عبئًا، هو أن أكتب قصة ذات صور.

أي أن أكون في كل فصل على صلة مع شخوص أمينة للطبيعة على أن تعبّر القصة عنهم تعبيرًا يفوق تعبيرهم عن أنفسهم عن طريق الحوار".

تبدأ أحداث الرواية في لندن عام 1775، حيث نجد الشابة لوسي تكتشف أن والدها الدكتور مانيت لا يزال حيًا، بعد أن كان مسجونًا 18 عامًا في سجن الباستيل، وهو الآن موجود في رعاية خادمه القديم، مسيو ديفارج. بعدها يأخذنا ديكنز إلى باريس، هناك تقف عربة تنزل منها لوسي حيث يقودها ديفارج إلى غرفة، يجلس داخلها رجل عجوز منهمك في صنع حذاء. تقترب لوسي وتضع يدها فوق يده. وعندما يقع نظره على شعرها الأشقر الطويل، يحدق به ويتلمسه، ويسألها: "من أنتَ؟" لا تتمالك لوسي نفسها، تضم رأسه لصدرها وتقول: "ستعرف قريبًا. أريد منك أن تباركني. سآخذك معي لتعيش في سلام".

كان الدكتور مانيت قد استدعي قبل 18 عامًا لإنقاذ فلاح شاب وأخته، لكنه تنبه خلال محاولته معالجة الاثنين أن سبب جروحهما يعود إلى الوحشية وسوء المعاملة التي أبداهما نحوهما واحد من أعيان فرنسا، وهو المركيز دي سانت إغرموند وأخوه. وإذ يدرك هذان أن الطبيب قد اكتشف أمرهما يعملان على الإيقاع به ويرسلانه إلى سجن الباستيل، حيث يحتجز سنوات طويلة ضمانة لصمته عما اكتشفه. وهو الآن خارج السجن، تأخذه ابنته لوسي إلى لندن، وهو يعاني من متاعب صحية ويحتاج إلى فترة نقاهة. ومع مرور الزمن يبدأ الدكتور مانيت باستعادة حالته الطبيعية، وفي الوقت نفسه يكون قد وصل إلى لندن أيضًا مواطن فرنسي يحمل اسم شارل دارني. لكن هذا الاسم، كما سنعرف فيما بعد، ليس سوى اسم مستعار، إذ إنه يخفي الاسم الحقيقي لصاحبه الذي هو في الحقيقة ابن أخ المركيز المجرم، وقد آثر ترك فرنسا والتخلي عن ميراثه بسبب كراهيته الممارسات التي تقوم بها طبقة

النبلاء الفرنسيين التي ينتمي إليها، فهو شخص طيب لا يمكنه السكوت عن العنف والظلم، ولهذا يغير هويته ويعيش في لندن.

هناك يتعرف إلى لوسي، ابنة الدكتور مانيت، وبعد حكاية غرام سعيدة يتزوج شارل منها، في الوقت الذي تكون فيه الأمور قد تطورت في فرنسا، وسادت حقبة العنف بعد الثورة. وذات يوم يجد شارل دارني لزامًا عليه أن يتوجه إلى وطنه الأصلي لكي يحاول إنقاذ خادم أمين كان الثوار قد حاكموه وسجنوه، بتهمة العمل في خدمة النبلاء. ولكن شارل، بدلاً من أن ينقذ الخادم، يجد نفسه قيد الاعتقال ويحاكم من قبل الثورة ويحكم عليه بالموت. إلا أن الشاب الإنكليزي سيدني كارتون، الذي كان محبًا للوسي، وها هو الآن مستعد للتضحية من أجلها ومن أجل سعادتها، حتى بروحه، ومن هنا لأنه يشبه شارل دارني شبهًا غريبًا في مظهره، يندفع كي يحل محله في السجن ممكنًا شارل من الهرب والعودة إلى إنكلترا، بينما يستسلم هو لمصير اختاره لنفسه ويبدو راضيًا عنه.

ولد تشارلز جون ديكنز في السابع من شباط عام 1812 وكان ثاني ثمانية أبناء لموظف ضئيل الحجم يعمل كاتبًا في البحرية. ونظرًا لأن الأب كان عاجزًا عن تلبية احتياجات عائلته الفقيرة، اضطر تشارلز وهو في الثانية عشرة من عمره أن يعمل عند صانع أحذية. في بداية عام 1824 سجن أبوه بسبب عجزه عن سداد ديونه، ووجد تشارلز نفسه وحيدًا بعد أن سافرت والدته مع إخوته للعيش في مدينة أخرى، هذه الطفولة البائسة ظهرت بوضوح في معظم شخصيات الأطفال في روايات ديكنز، فكلهم كانوا يعانون من البؤس والحرمان.

***

"لن نتوقف عن الاكتشاف أبدًا. وستكون نهاية كل اكتشافاتنا أن نصل إلى المكان الذي بدأنا منه لنتعرف عليه للمرة الأولى"

إليوت

صبيحة يوم من أيام تشرين الأول عام 1910، كتب تولستوي في يومياته: "افعل ما يتوجب عليك، وليحدث ما يحدث". كان في الثانية والثمانين من عمره، ومن أكثر الكتّاب شهرة في العالم، قبلها بسنوات أعلن أنه مستعد أن يتخلى عن شهرته وماله وحياته إذا تطلب الأمر تقديم خدمة لبني البشر. كان يرتدي ملابس الفلاحين، وقد توقف عن ممارسة الطقوس المسيحية، لأنه ينكر على القساوسة تعصبهم وعلى القيصر طغيانه. والقراء يهتفون أن كاتبهم المفضل أصبح نبيًا، لكن أسرته تعده أحمق، وزوجته تتهمه بالجنون، فالحياة البسيطة ومجالسة الفلاحين قد بدت لها نوعًا من أنواع الحمق. يكتب في إحدى رسائله لصديق: "لعلك غير مصدق، ولكن لك أن تتصور مدى عزلتي أو مدى زراية الناس بشخصي أو هوان أمري عليهم"، كانت مأساة تولستوي أن دعوته لمثل عليا لم تلقَ استحسانًا عند المقربين منه، ولم يجد مفرًا سوى الهروب. ففي الساعة الخامسة من صباح يوم الثامن والعشرين من تشرين الأول 1910 غادر تولستوي منزله. يكتب الدكتور الخاص به في مذكراته: "في الساعة الثالثة صباحًا أيقظني ليف تولستوي، كان مرتديًا روب الصباح، قدماه عاريتان، وبيده شمعة تعلو وجهه علائم الألم. قال لي بصرامة وانفعال: "قررت الرحيل. وسوف تسافر معي. لا توقظ سونيا. لن نأخذ الكثير من الحاجيات معنا". أسرعت لغرفة العمل لأحزم أمتعته. لقد وضع بنفسه بعض الملابس ومجموعة كتب ومعها مسودات كتاباته".

كان المقربون منه يدركون جيدًا أن تولستوي عاش مهمومًا خلال الأشهر الأخيرة، يشعر بالتعاسة، يحلم ويتحدث عن حياته المقبلة، حيث سيعيش أكثر بساطة. يقرأ كثيرًا، وتشغله الأفكار التي طرحها في روايته (الحرب والسلم) عن قدر الإنسانية ودور الفرد في التاريخ، وميزات العقل مقارنة بالغريزة. التهم كتب كانط وشوبنهور، يكتب في يومياته: "ما من أحد كتب قط شيئًا أعمق وأكثر صحة عن ألم الانسان المكافح بكل رغبته في الحياة، ضد قوى التخريب، وعن ضرورة العفة مثل شوبنهور، هذا المتشائم المتوحش".

في محطة القطار في قرية آستابوفو التي وصلها بعد خمسة أيام من السفر المتعب يكتب: "أين أنا؟ إلى أين أذهب؟ وأمام أي شيء أنا أهرب؟"

كانت هذه الأسئلة تؤرقه وتعذبه، فالكلمات تهجره وسيكتب: "كنت أرجو أن أتحرر مما كان يعذبني، قلت لنفسي لماذا أنا حزين؟ مم أخاف؟ أجابني صوت الموت: مني أنا، إني هنا. كان كل كياني يشعر بالحاجة إلى الحياة، بالحق في الحياة، ويشعر في الوقت نفسه بعمل الموت، ذلك التمزق الداخلي رهيب. كل شيء يقول لي لا شيء في الحياة إلا الموت، وعلى الموت ألا يكون!"

حاول أن يفكر في عائلته، في المزرعة التي تركها وراءه، في زوجته، في (الحرب والسلم)، وهل يستطيع أن يكتب مثلها الآن. كان الرعب يحتله، ممتزجًا بالحزن.

يتذكر أنه كتب في إحدى ليالي شهر تموز من عام 1863 إلى أحد أقاربه وكان قد مر عام على زواجه قائلاً: "لم أشعر من قبل قط كما أشعر الآن باستعدادي الذهني والخلقي للعمل والجدارة به. وعندي ما أقوم به، قصة تتعلق بالفترة (1810-1820) هذا العمل الذي شغلني منذ بداية الخريف". كان تولستوي قد تفرغ لأكثر من سنتين لقراءة عشرات الكتب

عن تاريخ نابليون والإسكندر الأول، وقد وجد نفسه مغطى بأكوام الورق والخرائط. يكتب: "امتلأ ذهني باحتمال القيام بعمل عظيم، كتابة قصة نفسية عن الإسكندر ونابليون، عن كل خسة حاشيتيهما وحماقتهم وكلامهم الفارغ وخياناتهم". لقد شغلته كتابة (الحرب والسلم) خمس سنوات، وأبعدته عن كل عمل آخر، وتتذكر زوجته سونيا أن تولستوي كان كلما خرج من غرفته بعد أن يكون قد كتب صفحات من الرواية يقول لها: "إن قليلاً من دم حياتي انصب في المحبرة". عملت زوجته سكرتيره له منذ بداية كتابة الرواية حتى نهايتها، تتصارع مع المسودات التي كان يغيرها بين الحين والآخر، في يومياتها تكتب: "إني أقضي وقتي بأجمعه مستنسخة قصة ليون، وهذا فرح عظيم لي، وكلما أستنسخ شيئًا أعيش في عالم كامل من الأفكار والانطباعات الجديدة". وبعد شهرين تكتب: "ظل ليون يكتب هذا الشتاء بأسره، وكان طوال هذه المدة منشغلاً تطفر الدموع من عينيه، ويغلي قلبه، أعتقد أن قصته هذه ستكون عظيمة".

موضوع (الحرب والسلم) هو مصير البشرية التي تتخبط في نشوة الحرب العجيبة وفوضويتها. أما المشاهد التاريخية فيستخدمها تولستوي كسند توضيحي من أجل تعزيز مواقف الشخصيات. إن (الحرب والسلم) تتناول حياة أسرتين، أسرة روستوف الذين أفقرتهم الظروف، وآل بولكونسكي الذين يقفون على قمة المجتمع ثراءً، ويقدم لنا تولستوي فكرتين عن الحب، الأولى على لسان أندرو: "من الممكن أن تحب قريبك فهذا هو الحب الإنساني، أما أن تحب عدوك، فهذا هو الحب الإلهي"، أما بيير فإنه مشغول بسؤال آخر: "ما الخير، وما الشر؟ وماذا ينبغي على المرء أن يحب؟ وماذا ينبغي عليه أن يكره، من أجل أي شيء يعيش المرء؟"

في يومياته يكتب الطبيب الذي رافق تولستوي عن الساعات الأخيرة

من حياته: "قبل منتصف الليل جلس بسرعة بعد أن بذل كل ما يملك من قوة. كان يتألم ويتنفس بصعوبة قال في صوت مختنق: إنني خائف أن أموت.. إن ذلك يدعو إلى الاشمئزاز، من الصعب جدًا أن تموت، يجب على المرء أن يعيش كما يشاء الله".

***

في الخامس عشر من تشرين الأول عام 1965، وعلى شاطئ بحيرة في كازخستان، وصل الخبر لرجل قصير القامة، خشن الصوت، ذي عينين زرقاوين حادتين كان يقضي إجازته في خيمة ومعه حقيبة مليئة بالكتب، يحملها معه أينما يذهب، يعود إليها بين الحين والآخر. إنها رواية (الحرب والسلم) لتولستوي و (دايفيد كوبرفيلد) لديكنز، وقصص موباسان ومجموعة أعمال تشيخوف. كان في الستين من عمره لم ينجز سوى كتابين؛ الأول رواية متوسطة الحجم والثاني ملحمة روائية أراد فيها أن يتبع خطى المعلم تولستوي. عندما سُئل ميخائيل شولوخوف عن خبر فوزه بجائزة نوبل، ابتسم ابتسامته المعهودة وقال للصحفيين: "من الصعب أن يخرجني هذا الخبر من متعتي اليومية، اعتدت قراءة (الحرب والسلم)، واصطياد السمك والعيش وسط الناس مثل ديكنز. ولكن هذا لا يمنع أن تأتي للإنسان ضربتان من ضربات الحظ في يوم واحد، الحصول على جائزة نوبل واصطياد بطة كبيرة".

ولد شولوخوف في 24 أيار عام 1905، كان عمره خمس سنوات عندما توفي تولستوي، بعد ذلك سمع من والدته أنها كانت تشاهد الكاتب الكبير وهو يتجول مع الفلاحين ويمنحهم بركاته. كانت الأم قد تعلمت الكتابة والقراءة من أجل أن تكتب خطابات لابنها عندما سافر للدراسة في موسكو

عام 1922، أما أبوه فقد عمل في معظم المهن؛ فلاح، بياع في دكان صغير، تاجر أبقار، عامل في مطحنة للدقيق. وعندما يصل شولوخوف إلى موسكو للدراسة تضطره الظروف إلى أن يعمل عتالاً في المراكب وكاتب حسابات. في العام 1924 ينشر أولى قصصه القصيرة، لكنه يقرر في العام 1925 أن يحذو حذو تولستوي ويكتب ملحمة روائية جديدة: "لتكن بعدة أجزاء، تتناول الحرب والسلم، والحب والموت، والعدل والحقيقة". وتمضي السنوات وهو يكتب أجزاءها، حيث ظهر الجزء الأول منها عام 1928، بينما ظهر الجزء الأخير عام 1940. هكذا حقق شولوخوف رواية بأربعة أجزاء وبثلاثة آلاف صفحة، بنفس حجم روايته الأثيرة (الحرب والسلم).

في الدون الهادئ يروي لنا شولوخوف حياة القوزاقي ميلخوف العائد إلى قريته من آخر الحروب مع تركيا، وعلاقته بحبيبته أكسينيا وزوجته ناتاليا، وأخيه وأخته وجيرانه وأصدقائه، وأعدائه، وزملائه في الحرب والعمل والتمرد، وارتفاع نجم حياته من الأرض إلى الحرب والمجد، والتحقق بالحب والإنجاب، ثم تردده وسقوطه وفاجعته وانهياره إلى أن يصبح طريدًا محطمًا، فقد كل شيء، لم يبق له إلا ابنه الصغير وحسه الخلقي المعذب بالإثم والضياع. إنها رواية لا يكاد يفلت من إطارها العريض شيء من أحداث الموت والبلاد، الحب والحرب: "أبانا الدون الهادئ المجيد، أبانا وحارسنا الدون، مبارك اسمك".

يكتب شولوخوف: "في المجال الإنساني، القراء بدأوا يعقدون مقارنات بين الحرب والسلم والدون الهادئ، لكنهم لا يدرون أن تولستوي غيّر حياتي منذ أن كنت في الخامسة عشر من عمري حيث عثرت في إحدى المكتبات على نسخة قديمة من ملحمته الإنسانية (الحرب والسلم)".

25

الميزة الوحيدة للكاتب الجيد هي قدرته على التحرر

"لا تقرأي كما يقرأ الأطفال لأجل المتعة، أو كما يقرأ المتفائلون، لأغراض التعلم. لا، اقرأي لإنقاذ حياتك"

غوستاف فلوبير

في السادسة عشرة من عمره عاش في بيت خالته، وكان زوجها رجلاً غريب الأطوار، يقرأ طوال الليل وفي النهار يعمل في محل لبيع اللحوم، وذات يوم يهديه كتاب (سيرة حياتي) لجون ستيوارت ميل. كان صاحب المذكرات في الثالثة من عمره عندما بدأ يقرأ كتب الفلاسفة اليونانيين بلغتهم، وعندما بلغ السابعة من عمره دخل في حوار مع والده حول (جمهورية) أفلاطون، وبعدها بعام أنجز قراءة (إلياذة) هوميروس. يكتب ألبير كامو: "لم أنس أبدًا كتاب ستيوارت ميل، الذي كان أول من نبهني إلى أهمية القراءة. قرأته في يوم واحد، وبعد أن انتهيت منه بدأت أخطو متقدمًا في أرض مجهولة، مزودًا بحرية غريبة وجديدة. إذ علمت حينها أن الكتب لا تقدم فقط المعارف والمتعة. نوبات سعادتي تلك بدأت يوم وقفت أمام واجهة إحدى المكتبات".

يعتقد فرويد أن القراءة فعل من أفعال التعويض. أو كما يقول كامو ممكن للقراءة أن تنقذنا من العبث. الروائي ستندال كان يقول لرفاقه إن القراءة

هي التي تجعله يحب الحياة. وصف سارتر هذه الحالة في يومياته (الكلمات): "كان يبدو لنا طبيعيًا أن تنمو الكتب كما تنمو الأشجار في حديقة، لقد وجدنا في أنفسنا، منذ الصغر، هواية القراءة وأغرِمنا جداً براسين وفلوبير".

في التاسع عشر من نيسان عام 1960، توجّه ثمانية من أولياء أمور الطلبة وهم يصرخون طالبين نقل مدرِّسة الأدب لأنها قررت أن تدرّس الطلاب رواية (الحارس في حقل الشوفان)، ناعتين الرواية ومؤلفها والمعلمة بالبذاءة والفحش، ولم تكن هذه الحادثة هي الوحيدة، فقد وقعت حوادث مماثلة في كليات ومدارس أميركية أخرى، وكان السبب رواية (الحارس في حقل الشوفان)

عندما بلغ السابعة عشرة من عمره أهداه والده نسخة من كتاب (الأحمر والأسود) للفرنسي ستندال، تعلق بشخصية جوليان سوريل، وحلم ذات يوم أن يصبح مثله شغوفًا بالقراءة والحرية، قرر عندما يكبر أن يكتب رواية يرسم فيها صورة بطل جديد على غرار بطل ستندال، فكان هولدن كولفيلد بطل (الحارس في حقل الشوفان) رمزًا لتمرد المراهقة.

خدم جيروم سالنجر في فرقة للمشاة وشارك في الحرب العالمية الثانية، حمل في حقيبته العسكرية فصولاً من (الحارس في حقل الشوفان)، وكان يطلب مرارًا من سائق الشاحنة التوقف ليجلس إلى جانب الطريق ويكتب الفصول المتبقية. في باريس يلتقي بإرنست همنغواي الذي كان قد قرأ له بعض القصص القصيرة، وقرر أن يجري معه حوارًا، قال للمراسل الحربي همنغواي إنه مشغول بكتابة رواية ربما تغير حياته وإنه أمضى سنوات في التخطيط لها. قال له همنغواي بعد أن قرأ فصولاً من حقل الشوفان: "إن لديك موهبة هائلة لا تضيعها."

عندما أكمل كتابة (الحارس في حقل الشوفان) لم يجد ناشرًا لها، وكان

أصحاب دور النشر يسخرون منه ويصفونه بالجنون. فمن يقرأ رواية عن تصرفات فتى مراهق؟ أمضى عشر سنوات في كتابة الرواية، اختار لها عنوانًا من جملة يقولها بطل الرواية من أنه مستعد أن يصبح حارسًا لحقل شوفان من أجل حراسة الأطفال من أي أذى، في النهاية وجد ناشرًا جازف بطبع خمسمائة نسخة، لكن بعد ثلاثة أعوام بيعَ منها خمسة ملايين نسخة، ودخلت المناهج الدراسية في أميركا. يشكو بطل الرواية من غياب الصدق والبراءة، والتضييق على الحريات الشخصية.

كان والد سالنجر تاجرًا ثريًا، وصمم أن يصبح ابنه تاجرًا أيضًا. لم يفلح في المدرسة حيث طرد منها ليدخل عالم الجيش، تعلم أن يعامل أصدقاءه كأنهم شخصيات في رواياته.

ولد جيروم ديفيد سالنجر في الأول من كانون الثاني عام 1919 في نيويورك من أب بولندي وأمّ أسكتلندية، ترك الجامعة ليبحث عن عمل في شركة لاستيراد اللحوم حيث تم نقله إلى فرعها في فيينا، وهناك أتيح له إتقان اللغة الفرنسية والألمانية. عاد للدراسة بعد سنوات من خلال دورة مسائية خاصة بالكتابة.

تناول في روايته (الحارس في حقل الشوفان) بضعة أيام من حياة بطلها هولدن كولفيلد البالغ من العمر ستة عشر عامًا. وتبدأ القصة عند طرد هولدن من المدرسة نهاية عام 1940 وذلك لرسوبه في الامتحانات، ومنذ البداية يسلط سالينجر الضوء على التشتت الفكري والعاطفي الذي يعيشه هولدن والصراع الداخلي الذي يهيمن على سلوكه. كان اهتمام هولدن ينحصر في نقد سلوك زملائه والسخرية منهم، لكنه سرعان ما يمارس تلك السلوكيات بنفسه، وعلى مدار أحداث الرواية نجده يكرر على الدوام كلمات مثل النفاق والزيف والازدواجية. يقرر هولدن مغادرة المدرسة قبل موعد

العطلة بيومين بسبب خلاف مع زميل له. كان الزميل قد شعر بالغضب بسبب ما كتبه هولدن عن مأساة أخيه الذي مات بسبب مرض السرطان وهو موضوع بعيد عما طلبه منه. على أثرها يقرر هولدن التوجه إلى نيويورك لقضاء بضعة أيام بمفرده قبل موعد عودته إلى أسرته. يتجول في المدينة ويشرب يوميًا حتى الثمالة ويلتقي بأنواع مختلفة من البشر، إلا أنه لا يرى فيهم جميعًا سوى صورة للنفاق.

يزور بلدته ونجده يشرح لأخته الصغيرة بأن دوره الجديد في الحياة يتمثل في إنقاذ الأطفال من الوقوع في الهاوية لدى جريهم في حقول الشوفان من دون أن يدركوا وصولهم لحافة الهاوية. ويتجلى المغزى من هذا الوصف إلى جانب بعض التعليقات والمواقف الأخرى، بأن هولدن متمسك ببراءة الطفولة ويرفض عالم البالغين الزائف، ويصر على أن الحرية هي هدف أسمى للإنسان.

***

"إذا شعرت وأنت تقلب الصفحة الأخيرة من الكتاب الذي تقرأه وكأنك فقدت صديقًا، فاعلم بأنك قد قرأت كتابًا جيدًا"

بول سويني

في الثالثة والخمسين من عمره نشر جون ستيوارت ميل كتابه (عن الحرية)، وفي سيرته الذاتية يكتب: "إذا كان هناك شيء كامن في قرارة أنفسنا ونحاول التعبير عنه، فلا بد أن نجد أولاً شكلاً من أشكال الحرية، وبعبارة أدق أن نستحضر الحرية أولاً". كان ستيوارت ابنًا وحيدًا للسيد جيمس ميل، الصحفي والمترجم ومدير شركة الهند الشرقية، لكنه ترك كل هذا

وقرر التفرغ للعمل مساعدًا للفيلسوف الإنكليزي جيريمي بنثام، صاحب المواقف المؤيدة لحرية الأفراد والفصل بين الكنيسة والدولة والمساواة في الحقوق. ويذكر كاتبو سيرة بنثام أنه عرف منذ صغره بذكاء خارق، إذ تمكّن من تعلّم اليونانيّة واللاتينيّة ولم يتخطّ عامه الرابع، ولقّب بالفيلسوف عندما كان في الخامسة من عمره، وهو الأمر الذي أراد جيمس ميل لابنه ستيوارت أن يسير على خطاه، حيث كان الأب يفخر أن ابنه يتقن اللاتينية والإنكليزية والفرنسية وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره. ومثل بنثام أصر الأب أن يطلق على جيمس الابن لقب فيلسوف وهو في السابعة من عمره، حين ناقش معه كتاب (التأملات) لديكارت.

ولد جون ستيوارت ميل عام 1906، ومن الثامنة من عمره وحتى الحادية عشرة حفظ معظم الأدب اليوناني، وفي الثالثة عشرة تفرغ لقراءة أعمال أرسطو. ويخبرنا في سيرته الذاتية أن كتاب (ألف ليلة وليلة) كان مصدرًا مهمًا من مصادر ثقافته حيث زوّده هذا الكتاب بالخيال، ونجد والده يكتب إلى الفيلسوف بنثام: "ما من خاطر يفزعني ويحمل الضيق إلى نفسي كما يفزعني ويضايقني خاطر الموت، فأرى أني أفارق هذا العالم وعقل الصغير لم يتكون بعد، فإن رحبت مسرورًا برعايتك له وتربيته، فلأنه وريثنا الخليق بكل منا". فيعد بنثام بكفالته ورعايته، وفي السادسة عشرة من عمره يتحمس للمذهب النفعي الذي أراد بنثام أن يرسخه كفلسفة في مجال الأخلاق، ويذهب جيمس بعيدًا فيشكل جمعية تبشر بالمذهب النفعي، وأخذ ينشر المقالات مبشرًا بفلسفة أستاذه بنثام. إلا أن مذهب النفعية أخذ على يديه معنى جديدًا، فأنكر أن تكون السعادة غاية مباشرة أو شعورًا قائمًا، فحالما تسأل عما إذا كنت سعيدًا، فإنك توقف شعورك بالسعادة بانصرافك إلى السؤال وجوابه، كما تبين كيف يروض الألم فيحوله إلى إحساس بلذة

الحياة وما فيها من متع.

ويروي لنا جيمس كيف أراد أبوه أن يجعل منه رجل منطق صارم، لكن المشكلة أن الابن سرعان ما تبدّى رجل عاطفة سريع التأثر مهتمًا بالفكر الإصلاحي وعازمًا على العمل في سبيل مصلحة جميع الناس، مقابل الصورة الفكرية الخالصة التي أرادها الأب للابن، عمل هذا على أن يجعل لنفسه صورة المفكر المناضل.

في موسوعته عن تاريخ الفلسفة يوصينا فريدريك كوبلستون: "أن لا نكتفي بالحديث عن جون ستيوارت ميل باعتباره منظرًا لمفهوم الحرية، بل ينبغي أن نضع كتاباته مقابل كتابات هيغل وكونت، فقد استطاع ثلاثتهم أن يبحثوا عن الحرية ضمن مسار التاريخ، وإذا كان اهتمام هيغل وكونت منصبًا في الدرجة الأولى على مسار العقل والأفكار، فقد كان اهتمام ميل يتركز على المسائل التي ترتبط بعلاقات الإنسان بمجتمعه. فقد كان يرى أن الحرية هي الصورة الوحيدة للوجود الإنساني. عندما بلغ جون ميل الخمسين من عمره أخذ يراجع تفكيره في فلسفة بنثام، حيث نجد أن أفكار سان سيمون تستهويه أكثر وخصوصًا فكرته التي تقوم على إعادة تنظيم المجتمع عن طريق العلم والمعرفة، وفي موجة الحماس يعلن أن المثال الذي ينشده مذهب سان سيمون هو أرقى ما يمكن أن ينشده المجتمع الإنساني لتقدمه وارتقائه، ونجده يتجه إلى ربط حرية الفرد بمصلحة المجموع.

يقسم ميل كتابه (عن الحرية) إلى خمسة فصول، يمهد أولها لفكرة الحرية ويخصص الثاني لحرية الفكر، والثالث يناقش مفهوم الفردية كعنصر من عناصر الحياة الطبيعية، وفي الفصل الرابع يناقش حدود سلطة الفرد على المجتمع، وفي الفصل الخامس يجري تطبيقات حول المبادئ والأفكار التي طرحها في الكتاب. في مقدمة الكتاب يحدد ميل الغرض من تأليفه كتاب

(عن الحرية): "لا يتناول هذا الكتاب ما يسمى حرية الإرادة، وهي التي تتعارض مع ما يدعى خطأً بفلسفة الضرورة، ولكنه بحث في الحرية المدنية والاجتماعية، وطبيعة الحدود التي يمارسها المجتمع شرعًا في سلطانه على الفرد، وهي مسألة قلما اتضحت أو كان من اليسير مناقشتها والكتابة عنها".
ويشرح ميل في الكتاب الأخطار التي تتعرض لها الحرية، فيؤكد أن أخطر ما يتعرض له الفرد هو استبداد مجتمعه، فقد درج الناس على تقاليد وعادات يرون في الإجماع عليها ما يسوغها، وتستوي في ذلك التقاليد التي تستند على العقل والمنطق، أو التي تخضع للهوى والوهم. ويتوصل ميل إلى أن أكثر ما تتبدى لتلك العواطف والتقاليد ما يتعلق بالعقيدة الدينية، حيث يتجلى شعور الكراهية والحقد للمخالفين، ولهذا يجد ميل أن الحرية الدينية هي الضمان الوحيد لكل فريق في الدفاع عن قناعاته وإيمانه. ويؤكد أن التعصب لعقيدة ما يقف حائلاً أمام حرية الفكر والضمير. ويعلن ميل أن سلطة المجتمع التي يمثلها العرف الاجتماعي وسلطة الحكومة التي يمثلها القانون هما ما يحملانا على تقرير مبدأ واضح بسيط، وهو عدم جواز التعرض لحرية الفرد، إلا لحماية الغير منه، أو لمنعه من الإضرار بغيره. ويحدد ميل المنطقة التي تتحرك فيها حرية الفرد وتتمثل:

١- في حرية الضمير، وما يتصل بها من حرية الفكر والعقيدة والتعبير والمناقشة بأوسع معانيها.

٢- في حرية الفرد في اختيار ما يوافق ذوقه ومزاجه، وتكييف حياته على ما يحب ويرضى ما دام لا يتعرض للآخرين بأذى، حتى وأن جلب على نفسه الضرر.

٣- حرية الاجتماع دون إكراه لأي غرض.

فما من مجتمع لا يحترم تلك الحريات ويكفلها إلا وهو مجتمع غير حر

مهما كان شكل حكومته، فجوهر الحرية يقوم أصلاً على مساعدة الأفراد في السعي وراء مصالحهم أيًا كانت هذه المصالح ما دامت لا تجلب الضرر للآخرين، "الفرد سيد نفسه وبدنه وعقله" ولا تعاني البشرية من حرية يمارسها الناس كما يرغبون ويحبون.

ونجد ميل يوجّه نقده الشديد لنظرية كالفن التي تعتبر الإرادة وحرية الاختيار شرًا مطلقًا، حيث يقول إن: "الكالفينية بدأت تتسرب إلى أفكار الناس، فاعتقد البعض أن الحد من نوازع الإنسان وأهوائه هو عين ما ترضاه الإرادة الإلهية، ولكن إذا كان الدين يعرفنا أن الإله خالق الإنسان حكيم عاقل، فأحرى بنا أن نعرف حكمة ما غرسه في نفوسنا منها، فنتعهدها ونرعاها، لنحقق من خلالها المثل العليا".

***

"الكتب هي الطائرة والقطار والطريق. هي الوجهة ورحلة السفر. هي البيت"

آنّا كيندلن

كان خجولاً، وتمنى أن يعمل مزارعًا، لكنه تحوّل إلى كاتب شهير بعد أن نشر أولى رواياته (كأس من ذهب). اشترى في العشرين من عمره آلة كاتبة، وكتب ممازحًا أحد أصدقائه أنه سيكتب رواية تجلب له الذهب. كان أنهى للتوّ كتابه الأول، وحفّزته والدته التي كانت تقرأ له قصص السير والتر سكوت وفصولاً من (جزيرة الكنز)، وكتبًا أخرى كثيرة. يكتب شتاينبك تعليقًا على قراءاته الأولى أنه يتذكر (الجريمة والعقاب) لدوستويفسكي و (مدام بوفاري) لفلوبير، وفصولاً من (الفردوس المفقود) لملتون وأشياء من

جورج إليوت: "لا أتذكرها ككتب، بل كأشياء وقعت في حياتي". وتتذكر إحدى شقيقاته أن أخاها كان يقرأ الكتب ثم يأخذ فيما بعد بتمثيلها، كان جون إرنست شتاينبك المولود في السابع والعشرين من شباط عام 1920 الابن الوحيد في العائلة مع ثلاث شقيقات أكبر منه، ولهذا تلقى عناية خاصة من والدته التي كانت تعمل في مجال التعليم. ورغم إنه كان يقضي وقته في القراءة إلا أنه أحب أن يجرب العمل في كل المهن، فمرة نراه عاملاً بالأجرة في إحدى المزارع القريبة من بيته، ومرة مساعدًا لموظف البريد، وفي الثانوية أصّر أن يعمل في أحد مصانع السكر. وكثيرًا ما كان يناقش زملاءه حول الاشتراكية، لكنه في العام 1925 قرر أن يترك جميع المهن ليصبح كاتبًا، فسافر إلى نيويورك يجرب حظه، وبعد أربع سنوات يصدر أول كتبه (كأس من ذهب) في آب عام 1929. ورغم أن هذه الرواية لم تكن محاولة شتاينبك الأولى، فقد جرب قبلها كتابة ثلاث روايات، إلا أنها الرواية الأولى التي سجلت اسمه في سجل الكتاب الخالدين، رغم أن شتاينبك كتب بعد سبع سنوات على صدورها أنه لم يكن فخورًا بها. في (كأس من ذهب) يروي شتاينبك حكاية الفتى الذي يحلم بالانطلاق في عرض البحر والانضمام إلى القراصنة، وعندما يصل إلى الميناء يخدعه صديقه ويبيعه باعتباره عبدًا، إلا أن الفتى يصر على تحقيق حلمه، وما أن تحين الفرصة حتى ينظم مجموعة من القراصنة يصبح هو زعيمهم، ويطمح بالاستيلاء على مدينة بنما "كأس الذهب"، حيث يصبح حاكمًا لها وغير اسمه إلى السير هنري مورغان. وعندما سأل شتاينبك عن روايته هذه قال: "أردت أن أتخذ من فاوست مصدرًا جيدًا لروايتي هذه".

في العام 1939 يكتب شتاينبك واحدة من أفضل ما أنتجه الأدب الأميركي في القرن العشرين، رواية (عناقيد الغضب). وفيها يروي لنا

حكاية عائلة أميركية يمزقها الفقر واليأس في أعوام الكساد الاقتصادي الذي هز الولايات المتحدة الأميركية في ثلاثينيات القرن الماضي. وقد كتب شتاينبك في يومياته أنه استطاع أخيرًا أن يكتب العمل الذي كان يطمح إليه طوال حياته، حيث يجد القارئ نفسه بمواجهة رواية تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية القاسية للفلاحين، حيث يصور شتاينبك الأحداث كما جرت، ونجده يعتمد على عدد من المقالات الصحفية التي كتبت عن هجرة العمال إلى كاليفورنيا.

يكتب في يومياته: "لقد أردت أن أضع لطخة من العار على أبناء الزنا، أولئك المسؤولين عن أعوام اليأس". قضى خمسة أشهر متواصلة في كتابتها: "لم أجهد نفسي قط في حياتي ولم أكتب هذا العدد من الصفحات"، واختار لها عنوان (عناقيد الغضب) لأنه يشير إلى الحالة الثورية. وفي 26 أيلول عام 1938، كان الكاتب مشغولاً جدًا ومتعبًا لا يرى الصفحة إلا بصعوبة، وأخيرًا كتب كلمة النهاية بأحرف كبيرة، ثم كتب في يومياته: "انتهى هذا اليوم وآمل من الله أن يكون جيدًا".

خرجت (عناقيد الغضب) من المطبعة في 14 نيسان 1939، لتتحول إلى الرواية الأميركية الأكثر قراءةً وشهرةً والأكثر إثارةً للجدل. في القرن العشرين تمت مناقشتها في الراديو، كما هاجمها القراء الغاضبون، بل إنها منعت في بعض المكتبات، وكانت رابطة الفلاحين في كاليفورنيا ضدها أيضًا وقالت إنها: "مجموعة من الأكاذيب". لكن الرواية لقيت الترحاب من بيرل باك، مؤلفة (الأرض الطيبة) والسيدة الأولى إلينور روزفلت، التي قالت إن الرواية لم تبالغ في الأحداث ووقفت في صف شتاينبك. بيعَ منها نصف مليون نسخة في سنتها الأولى، وفي العام 1940 نالت الرواية جائزة البوليتزر وتم تعميم قراءتها في المدارس والمعاهد والكليات في كافة أرجاء الولايات

المتحدة الأميركية. وعندما منح شتاينبك جائزة نوبل للأدب عام 1962، أعلنت اللجنة أن (عناقيد الغضب) عمل كبير.

تبدأ أحداث الرواية عندم يحصل توم جود على إطلاق سراح مشروط بعد أن قضى عقوبة بالسجن لارتكابه جريمة قتل. في طريق عودته إلى منزله في أوكلاهوما، يلتقي توم مع القس السابق جيم كيسي الذي يعرفه منذ الطفولة، ويسافر الاثنان معًا. عندما يصلان إلى مزرعة توم يجدانها مهجورة. يشعر الاثنان بالقلق والارتباك ويلتقيان جارهما القديم، مولي جريفز، الذي يخبرهما أن عائلة توم انتقلت إلى منزل العم جون جود بعد أن أجبرهم البنك على إخلاء الأرض مثل باقي الفلاحين.

يقضي الرجلان الليلة في المنزل المهجور، وينطلقان في صباح اليوم التالي إلى منزل العم جون وبعد قضاء عدة أيام هناك، ترتب العائلة سفرها إلى كاليفورنيا للبحث عن عمل وينفقون كل ما تبقى لديهم من مال للوصول إلى هناك. وبالرغم من أن مغادرة أوكلاهوما تعتبر مخالفة لشروط إطلاق سراحه، إلا أن توم يقرر أن المغامرة تستحق تلك المخالفة، ويدعو كيسي لمرافقة الأسرة. وفي الطريق إلى كاليفورنيا، تجد الأسرة الطريق مزدحمًا بمهاجرين آخرين، يسمعون قصصًا كثيرة من الآخرين، وبعضهم عائدون من كاليفورنيا، لنجدهم جميعًا يشعرون بالقلق من تضاؤل آفاق النجاح هناك. في هذه الأثناء يموت الجد ويدفنونه في أحد الحقول؛ وتموت الجدة قبل الوصول إلى حدود ولاية كاليفورنيا بقليل، وينشق اثنان من أفراد الأسرة عنها: الأخ الكبير وزوج الأخت، ويرى باقي أفراد الأسرة أن خيارهم الوحيد هو في إكمال الرحلة لأنهم خسروا كل شيء في أوكلاهوما. بعد الوصول إلى كاليفورنيا، يجدون أن هناك تخمة في اليد العاملة، ولذلك فإن الأجور منخفضة والعمال يتعرضون للاستغلال، وردًا على الاستغلال،

يبدأ كيسي بتنظيم العمال حيث يحاول كسب مؤيدين لتشكيل اتحاد للعمال.

يعمل من تبقى من أفراد أسرة جود في إحدى المزارع رغم وجود إضراب عن العمل يشارك في تنظيمه كيسي، وفي النهاية يتحول الإضراب إلى أعمال عنف واضطرابات. في آخر فصول الكتاب، تلجأ العائلة من الفيضان إلى حظيرة قديمة. في الداخل يجدون صبيًا صغيرًا ووالده الذي يكاد يموت من الجوع. تساعد العائلة الولد والأب وينقذانهما من الموت.

قرأت (عناقيد الغضب) وأنا في الثانية عشرة من عمري، وكان ولعي فيها على درجة من الشدة بحيث إنني رفضت مقايضتها بأي كتاب. ويمر الزمن إلا أن نسختي تختفي من مكتبتي، لا أدري متى وكيف، وقبل أسابيع قليلة فقط أعدتُ الأمور إلى نصابها بشرائي نسخة من شارع المتنبي، نسخة بغلافها الأخضر، لأعيد قراءتها من جديد وكأنني أقرأها للمرة الأولى.

كتب عاشت عبر العصور

تساءلت مع نفسي وأنا أنتهي من كتاب "في صحبة الكتب"، هل يمكن أن أقدم خبرتي المتواضعة التي حصلت عليها خلال عملي في مجال المكتبات، وأن أضع قائمة للكتب الأكثر أهمية في حياتي، خاصة وأن كثير من الأصدقاء يستشيرني عندما يتعلق الأمر بكتاب معين، وقد إكتفيت في "صحبة الكتب" بأن وضعت قائمة لمئة كتاب أسعدتني في حياتي وعشرة كتب حيرتني، وكررت المحاولة في كتابي الثاني "دعونا نتفلسف" حيث وضعت للقراء قائمة تحت عنوان "مئة كتاب تجعل منك فيلسوفاً !!" تمنيت أن يشاركني القارئ العزيز شغفي بها وعشقي لها وأيضًا يستمتع بها، مثلما أستمتع بنظريات وحكايات وأحاديث ومعارك دارت على كوكبنا من اجل الخير والسعادة للببشر جميعاً، ومن أجل نشر المعرفة وارساء قيم العدالة والحق، وإعلاء شأن العقل.. وهي اختيارات شخصية وبالتألكيد هناك ما هو أفضل منها.. والآن وأنا أختتم كتاب " غوايات القراءة " فكرت في أن أضع دليل بالكتب التي وجدت انها تستحق أن تُعرف وتقرأ، وليس بالضرورة أنها أفضل وأهم الكتب، وقد عرضت القائمة على بعض الأصدقاء من المهوسيين مثلي بالكتب، فإقترح البعض اضافة بعض العناوين وإقترح قسم آخر حذف بعض العناوين لأصل في النهاية إلى القائمة النهائية والتي سعيت أن أقسمها إلى عددة أقسام، بعد أن قرأت في العديد من الكتب التي تضع مقترحات للقراءة، مقترحات طريفة ولطيفة حيث وجدت البعض وضع قوائم لكتب تقرأ في مرحلة الشباب، ومقترح للكتب التي تقرأ بعد مرحلة التخرج من الجامعة، وقائمة طريفة للكتب التي تقرأ بعد أن يتقاعد الإنسان، وقائمة للعشاق، وآخرى لسيدات البيت، وقوائم من كل الأشكال والأصناف كلها

تسعى لنشر ثقافة القراءة.

١- ثلاثية اسخيلوس.. أول وأعظم كتاب المسرح الاغريقي، كتب ثمانين مسرحية لم يبق منها سوى سبعة أهمها " أوريست " وهي ثلاثية تضم مسرحيات " أجاممنون " و" حاملات القرابن " و " الصافحات " وتتحدث عن الانتقام الدموي داخل عائلة اجاممنون.. ترجمة الثلاثية للعربية بعدة ترجمات أشهرها ترجمة ابراهيم سكر وصدرت عن سلسلة المسرح العالمي المصرية، كما ترجمها الراحل عبد الرحمن بدوي ضمن الاعمال المختارة لاسخيلوس، وترجمها امين سلامة وصدرت عن الهيئة المصرية للكتاب

٢- كتاب الأخلاق لارسطو.. أحد أهم الكتب التي أنتجها فيلسوف يعد مؤسس التحليل الفلسفي الدقيق وفيه يدرس الأخلاق والفضائل، وقد ترجم للمرة الأولى بالعربية من قبل أحمد لطفي السيد وصدر عن دار الكتب المصرية

٣- تاريخ هيرودیت.. أقدم عمل تاريخي، تكمن أهميته أن صاحبه يؤرخ للغزو الفارسي لليونان ويكشف من خلاله خفايا التاريخ القديم، ترجمه إلى العربية أمين سلامة وصدر عن الهيئة المصرية للكتاب

٥- الإلياذة هوميروس.. قصيدة ملحمية كتبها أول أديب يوناني، تروي الحرب الأسطورية التي دارت في بلاد اليونان.. ترجمت إلى العربية بأكثر من ترجمه الا أن افضلها واشملها ترجمة احمد عثمان والتي صدرت عن المركز القومي للترجمة في مصر

٥- الغصن الذهبي جيميس فريزر.. دراسة لجذور الأساطير والتقاليد اليونانية والرومانية مع مقارنتها بالتقاليد البدائية ويتطرق إلى دراسة السحر وأصل الأديان.. ترجمت فصول منه إلى العربية، وكان آخر الترجمات قام بها

محمد زياد كبة وصدرت عن مشروع كلمة الاماراتي

٦- الجمهورية أفلاطون.. أحد الفلاسفة العظام، حواراته الفلسفية أحيت معلمه سقراط كأحد اعظم الشخصيات.. الجمهورية أول كتاب يناقش فكرة الدولة ترجم إلى العربية بعدة ترجمات، أفضلها وأدقها ترجمة الدكتور فؤاد زكريا صادرة عن الهيئة المصرية للكتاب .

٧- مسخ الكائنات أوفيد.. كتاب يحتوي جملة من الأساطير القديمة من خرافات اليونان والرومان، وحضارات الشرق، ومن التراث الشعبى الرومانى، له أثر كبير على تاريخ الأدب العالمى ترجمه إلى العربية ثروت عكاشة صدر عن الهيئة المصرية للكتاب

٨- اعترافات أوغسطين.. سيرة ذاتية وتأملات لأحد كبار المفكرين المسيحيين الغربيين الأوائل سرد لسيرته في شبابه، تعليمه، وخطاياه، ثم هدايته. ترجمه إلى العربية ابراهيم الغربي صدر عن دار التنوير.

٩- فن الشعر هوارس.. تأملات شعرية في موضوعات الفلسفة، الحياة، الأدب وقصائد على غرار الشعر الغنائي اليوناني ترجمه إلى العربية لويس عوض صدر عن دار المعارف المصرية.

١٠- في عزاء الفلسفة بوئيثوس.. تأملات لآخر فلاسفة الرومان، كتبها في السجن وهو ينتظر لحظة اعدامه، حيث وجد في الفلسفة عزاءه الوحيد ترجمه إلى العربية عادل مصطفى صدر عن دار رؤيا.

١١- الإنياذة فيرجل.. ملحمة شعرية كبرى عن تأسيس روما الأسطوري، تروى على لسان بطل طروادي، حيث فيها مديح لمجد روما. ترجمه إلى العربية عبد المعطي شعراوي صدر عن المركز القومي للترجمة

١٢- حكايات كاتنبري.. بانوراما عن الحياة الانكليزية والنماذج الاجتماعية في القرن الرابع عشر، كتب باسلوب أدبي متميز .ترجمه إلى العربية

١٣- حكايات الأخوين جريم.. تعد ألف ليلة وليلة الأوروبية. تتألف من ٢٠٠ حكاية تتراوح بين الحكاية الخرافية والأسطروة وحكاية الحيوان والطرائف ترجمه إلى العربية نبيل حفار اصدار دار المدى.

١٤- اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها إدوارد جيبون.. كتاب يؤرخ للامبراطورية الرومانية من القرن الثاني الميلادي وعبر بزوغ المسيحية والاسلام وحتى بداية عصر النهضة في الغرب.ترجمه إلى العربية محمد علي ابو دره صدر عن الهيئة المصرية للكتاب.

١٥ -مثنوي جلال الدين الرومي.. رائعة أكبر شاعر صوفي في تاريخ الاسلام حسب رأي المستشرق نيكلسون صدر في العربية بستة مجلدات ترجمه إلى العربية ابراهيم الدسوقي شتا صدر عن المركز القومي للترجمة .

١٦ -الكوميديا الالهية دانتي الليجيري رحلة ملحمية متخيلة عبر الجحيم والمطهر والفردوس كتبها أحد أكبر الشعراء العالميين، فانتج لنا قصة خالدة عن الايمان والحب تتحدث عن الدين والفلسفة والتعليم والسياسة ترجمه إلى العربية حسن عثمان صدر عن دار المعارف

١٧ -رحلات ماركو بولو.. سرد ذاتي مثير لمغامرات تاجر من البندقية الذي كان موظفا لفترة عند ملك الصين ترجمه إلى العربية عبد العزيز جاويد صدر عن الهيئة المصرية للكتاب .

١٨ -الأورغانون الصغير فرنسيس بيكون.. مقالات في الفلسفة والحكمة ووصف للحياة الانسانية ترجمه إلى العربية عادل مصطفى صدر عن دار رؤيا

١٩ - الديكاميرون جيوفاني بوكاشيو.. مائة حكاية عن الحب والمؤامرات والمغامرات كتبها أحد أساتذة الأدب في عصر النهضة .ترجمه إلى العربية صالح علماني صدر عن دار المدى

٢٠- الأمير ميكافيللي.. كتاب مهم لكنه سيء السمعة، يحلل الواقع الوحشي للحصول على السلطة والاحتفاظ بها، كتبه رجل عاش وسط الفوضى السياسية في ايطاليا في عصر النهضة وقد قال " على الأمير أن يملك عقلا يخطط وذراعا تضرب " ترجمه إلى العربيه محمد مختار الزقزوقى صدر عن دار الشروق.

٢١ - الفردوس المفقود جون ملتون.. أعظم الملاحم الشعرية الانكليزية، ويعتبر المثل الأعلى لانسان عصر النهضة. ترجمه إلى العربية محمد عناني صدر عن الهيئة المصرية للكتاب

٢٢ - مسرحيات شكسبير.. مجموعة من الأعمال التراجيدية والكوميدية، كتبها أعظم شاعر في كل العصور ن وقد استطاع أن يلم بكل جوانب الوضع الانساني، ويعتبر نموذجاً للكاتب المتميز.. ترجمت إلى العربية في عدة طبعات.

٢٣- خرافات لافونتين.. حكايات خرافية على ألسنة الحيوانات م عددها ٢٣٤ حكاية، وقد كتبها على غرار أساطير إيسوب، كتبت في عصر لويس الرابع عشر ترجمه إلى العربية مصطفى كامل خليفه صدر عن المركز القومي للترجمه .

٢٤- مسرحيات راسين.. مجموعة مسرحيات تعد من روائع المسرح الكلاسيكي الفرنسي.. يقدم الكاتب من خلالها صراعات متناقضة للعقل والعاطفة.. ترجمت إلى العربية باربعة اجزاء باشراف طه حسين، صدرت عن دار المعارف .

٢٥- رسالة في الحكم المدني جون لوك.. يقال أن هذا الكتاب وضع حدا لأنصار الملكية المطلقة في بريطانيا وجعلها تتقيد بالقيود الدستورية التي ما زالت قائمة حتى اليوم. ترجمه إلى العربية ماجد فخري صدر عن اللجنة الدولية للترجمة بيروت.

٢٧ - الكلمات والأشياء ميشيل فوكو.. كتاب في دراسة العلوم الانسانية وهو دراسة مهمة لتصورات النظام والمعرفة في القرن السادس عشر وكيف ساهمت في بزوغ التصور الحديث عن الانسان ترجمه إلى العربية سالم يفوت اصدار دار الانماء العربي

٢٨ - قصة الحضارة ول ديورانت.. موسوعة مفصلة لتاريخ الحضارات منذ أقدم العصور وحتى القرن التاسع عشر مكتوبه باسلوب شيق وجذاب وتوضيح مفصل. صدرت ترجمتها إلى العربية بعدة أجزاء عن الهيئة المصرية للكتاب .

٢٩- إيفانهو والتر سكوت.. رواية تاريخية من وحي الخيال وتعد من أفضل الروايات الشعبية التي تناولت التاريخ الانكليزي ترجمه إلى العربية مصطفى الرمز صدرت عن سلسلة الألف كتاب المصرية .

٣٠- بحث في مباديء السكان توماس مالتوس.. نظريه شهيرة حول مبدأ السكان تقول إن وتيرة التكاثر السكاني هي أسرع من وتيرة ازدياد المحاصيل الزراعية وكميات الغذاء المتوفرة للاستهلاك وهذا من شأنه أن يؤدي في المحصلة إلى اختلال التوازن بين عدد السكان من جهة وإنتاج الغذاء اللازم لإطعامهم من جهة أخرى، مما ينذر بمشاكل اقتصادية واجتماعية خطيرة ترجمه إلى العربية فادي الطويل صدر دار الفرقد.

٣١ - الاعترافات جان جاك روسو.. سيرة ذاتية يتحدث فيها روسو عن ثلاث وخمسون سنة من حياته، كتبت باسلوب جريء ترجمه إلى العربية خليل رامز سركيس

٣٢ - ثروة الامم آدم سميث.. التفسير الكلاسيكي للفوائد الاقتصادية للتجارة الحرة وخصخصة العمل، يعد أشهر كتاب في الاقتصاد بنيت عليه الرأسمالية منهجها الاقتصادي ترجمه إلى العربية وليد شحادة .

٣٣- مقدمة ابن خلدون..وجهة نظر فلسفية للتاريخ يقلم عالم اجتماع شهير، يعد كتابه علامة على طريق تطور علم الاجتماع.. حققها الدكتور عبد الواحد موافي صدر عن دار المعارف المصرية.

٣٤- تكوين العقل الحديث جون هرمان راندال، تفسير علمي للقوى الثقافية التي شكلت الأفكار والأفعال الانسانية منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحالي ترجمه إلى العربية جورج طعمة صدر عن دار الثقافة بيروت.

٣٥- كوخ العم توم هارييت نيشر ستاو.. رواية ضد العبودية، الشخصيات فيها نابضة بالحياة، أثارت ضجة كبيرة حين صدورها.. ترجمه إلى العربية منير بعلبكي، صدر عن دار العلم للملايين.

٣٦- الشارع الرئيس سنكر لويس.. الرواية التي حاز بفضلها على جائزة نوبل، أشبه بدراسة واقعية لسكان ضاحية عقولهم ضيقة الأفق. وهي حكاية منطقة وشارع يمكن أن يتواجدا في أي بلد كان، محلات رخيصة، وأبنية قبيحة، ومواطنون محكومون بالأعراف والتقاليد.. ترجمه إلى العربية أمين السعيد. صدر عن دار المدى

٣٧- الانسان ذو البعد الواحد هربرت ماركيوز.. صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٤ ليسلط الضوء على إشكالية ستنتشر في سنوات قادمة بكيفية مثيرة، خصوصاً في بلدان أوروبا الغربية. تلك الكيفية اتضحت ملامحها عام ١٩٦٨، حين هبَّت انتفاضة الطلبة والشباب عموماً، يطالب روُّادها بكسر الحصار الكثيف، الذي راح يفرضه المجتمع الأوروبي، على معظم فئات الشعوب المعنية. ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي صدر عن دار الآداب.

٣٨- غاتسبي العظيم سكوت فيتزجيرالد.. رواية تعتبر نقداً للقيم الأميركية خلال عصر الجاز عبر تجارب بطل أسطوري ونهايته المفجعة.

ترجمه إلى العربية أسامة منزلجي. صدر عن دار المدى

٣٩- محاورة ديكارت.. أقدم ديكارت على كتابة هذا الكتاب قبل وفاته مباشرة، حيث قام من خلاله بمناقشة كل أفكاره، ولكن القدر لم يسمح له باستكماله هذا الكتب حيث مرض أثناء وجوده بمدينة ستوكهولم وتوفيي هناك. ترجمه إلى العربية مجدي عبد الحافظ. صدر عن المركز القومي للترجمة.

٤٠ - الأرض الخراب ت . س إليوت.. تعد من أهم القصائد في الشعر المعاصر، إذ لم تكد تنشر خلال الأربعينات من القرن العشرين حتى أصبحت مصدر إيحاء لأجيال من الشعراء المحدثين.. وقد نشرت هذه القصيدة في معظم لغات العالم، وطبعت مئات المرات باللغة الانكليزية وكتبت عنها المقالات والدراسات لأهميتها، ترجمت إلى العربية بعدة ترجمات أشهرها ترجمة توفيق صائغ. صدر عن دار الجمل

٤١- آلة الزمن ه.ج.ويلز.. واحدة من أفضل كتب الخيال العلمي، حيث كان ويلز يدرك أن سلطة العلم قد تؤدي إلى أدب خيالي.. ترجمه إلى العربية ترجمة كوثر محمود محمد. صدر عن دار هنداوي

٤٢- روح الشرائع مونتسكيو.. مؤلف واسع ومتشعب. وبالرغم من صعوبة الولوج إليه والغموض فيه، إنما يلاحظ من قراءته أنّ هناك فكرة واحدة واضحة تسيّر القارىء من الصفحة الأولى إلى النهاية ألا وهي: (إن القوانين تنشأ حتما من طبيعة الأشياء وتُصقل رويداً).. ترجمة عادل زعيتر صدرعن المنظمة العربية للترجمة

٤٣- دراسة التاريخ أرنولد توينبي.. كتاب موسوعي تاريخي يتكون من أحد عشر جزئًا يتحدث فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر ويتسم بالموضوعية، وبالمنهج العلمي، ترجم إلى العربية بعنوان " مختصر دراسة التاريخ " بأربعة أجزاء ترجمة فؤاد محمد شبل

اصدار المركز القومي للترجمة .

٤٤- كتاب التاو لاوتسوا.. مجموعة من الحكم الصينية كتبت في الألف الرابع قبل الميلاد.

٤٥- الأيام طه حسين.. سيرة ذاتية في ثلاثة أجزاء يتناول فيها الكاتب حياته منذ الولادة حتى تخرجه من السوربون في فرنسا، وفيها يسلط الضوء على الحياة المصرية في منصف القرن العشرين صدر عن دار المعارف المصرية

٤٦- راس المال كارل ماركس.. أهم نقد للمجتمع الرأسمالي ويعد الأساس الذي بنيت عليه النظم الاقتصادية في البلدان الاشتراكية، مزيج من الفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع.. ترجم إلى العربية بعدة ترجمات كان آخرها ترجمة فالح عبد الجبار صدرت عن دار الفارابي

٤٧- نقد العقل العملي إمانؤيل كانط.. يؤكد كانط أن النفس الحقيقية بتناغمها مع الضمير الحي تقود إلى معرفة الله والحرية والحقيقة.. ترجمه إلى العربية غانم هنا، صدر عن المنظمة العربية للترجمة .

٤٨- مقالة في العبودية إيتيان دي لا بويسي، يطرح المؤلف سؤاله المِحوري: كيف يستطيع شخصٌ التحكّم في رقاب الملايين ممّن يسمّيهم رعاياه؟، فجاء الجواب على شكل مقالة سرّية تداولتها النخب التي ترمي إلى التغيير، وكان ذلك سنة ١٥٤٨ حيث كانت أوربا تعيش تحت نير الاستبداد، فنال بذلك لابويسي لقب المناضل المُصلِح واعتُبِرت مقالته بمثابة رسالته ضد حكم الفرد ترجمة إلى العربية في عدة ترجمات .

٤٩- أعترف بأنني قد عشت مذكرات بابلو نيرودا، سيرة ملهمة لإنسان إحترف فن الحياة وعاش بين الشعر والسياسة مسافراً، توحد العالم بقاراته بين يدية ما جعل من سيرته هذه موسوعة قائمة بذاتها حيث تحتوى هذه السيرة على تفاصيل ملهمات شعره و تفاصيل دواوينه وعلاقاته بالفنانين

وغيرهم من الكتاب والسياسيين ترجمه إلى العربية د.محمد صبح صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

***

هل القراءة تحتاج إلى دليل؟ وهل من الضروري أن نضع قائمة للكتب التي سنقرأها هذا الشهر، أو الكتاب الذي سنختاره لهذا الاسبوع، بالتأكيد هناك عشرات الكتب التي نتمنى أن نقراها، ومن أجل هذا وضعت هذا الدليل لكل الأعمار وهو أشبه بقائمة مختصرة للقراءة اعتمدت فيها على بعض الكتب الموسوعية المتخصصة في فنون القراءة .

١- كبرياء وهوى جين اوستين

٢- توم جونز هنري فيلدنغ

٣- قصة الفلسفة ول ديورانت

٤- محاضرات في التحليل النفسي سيغموند فرويد

٥- دايفيد كوبر فيلد تشارلز ديكنز

٦- أوديب ملكا سوفوكليس

٧- الشمس تشرق ثانية ارنست همنغواي

٨- أبناء وعشاق د.ه.لورنس

٩- مغامرات اوجي مارش سول بيلو

١٠- أصل الانواع تشارلز دارون

١١- قصة تجاربي مع الحقيقة المهاتما غاندي

١٢- الجبل السحري توماس مان

١٣- مئة عام من العزلة غابريل غارسيا ماركيز

١٤- مراة في الثلاثين بلزاك

١٥- السيدة صاحبة الكلب انطوان تشيخوف

١٦- مدام بوفاري غوستاف فلوبير

١٧- اليوتيبيا توماس مور

١٨- الامير ميكافيلي

١٩- والدن هنري ثورو

٢٠- الصخب والعنف وليام فوكنر

٢١- بيجامليون جورج برنادشو

٢٢- مفارقات الحياة توماس هاردي

٢٣- أن تقتل طائرا بريئا هاربر لي

٢٤- الصعود إلى الهواء جورج اورويل

٢٥- يوميات فرانز كافكا

٢٦- أخبار الايام بوب ديلان

٢٧- كيف يمكن لمارسيل بروست أن يغير حياتك آلان بوتون

٢٨- الوصمة البشرية فيليب روث

٢٩- الاحساس بالنهاية جوليان بارنز

٣٠- حياة وآراء تريسترام شاندي اورينس ستيرن

٣١- جيم المحظوظ كنغزلي إإيمس

٣٢- مرتفعات وذرينغ اميل برونتي

٣٣- الأرض الخراب ت.س.اليوت

٣٤- أحدهم طار فوق عش الوقواق كين كيسي

٣٥- الدفتر الذهبي دوريس ليسنج

٣٦- أسنان بيضاء زيدي سميث

٣٧- رحلة في آخر الليل فريديناند سيلين

٣٨- خفة الكائن التي لاتحتمل ميلان كونديرا

٣٩- رجل بلا صفات روبرت موزيل

٤٠- تاريخ موجز للزمن ستيفن هوكينغ

٤١- الطريق فاسيلي غروسمان

٤٢- تكلمي ايتها الذكريات ڤلاديمير نابوكوف

٤٣- أنا وهو البرتو مورافيا

٤٤- عبادة الانسان الحر برتراند رسل

٤٥- محاكمة سقراط اي .اف .ستون

٤٦- روح الفلسفة الحديثة جوزايا رويس

٤٧- من سقراط إلى سارتر ت.ز. لافين

٤٨- البحث عن اليقين جون ديوي

٤٩- جبروت العقل جلبرت هايت

٥٠- التطورالخلاق هنري برجسون

٥١- من هو شارلي ايمانويل تود

٥٢- فلسفة الحضارة ألبرت أشقيتسر

٥٣- خطابات السلطة بارى هندس

٥٤- فكرة الثقافة تيري إيغلتون

٥٥- قانون الشعوب جون رولز

٥٦- الرجل والطفل أرتور أداموف

٥٧- البراغماتية وليام جيمس

٥٨- العولمة كلاوس موللر

٥٩- التنمية حرية أمارتيا صن

٦٠- الإحساس بالجمال جورج سانتيانا

٦١- الحرية إيزايا برلين

٦٢- ابن البلد ريتشارد رايت

٦٣- ملحمة كلكامش ترجمة طه باقر

٦٤- سبارتاكوس هوارد فاست

٦٥- هذا هو كل شيء برتولد برشت

٦٦- الذرة الرفيعة الحمراء مويان

٦٧- مذكرات زوجة دستويفسكى أنا جريجوريفنا دستويفسكايا

٦٨- هوليوود جور فيدال

٦٩- العنصر الإنسانى غراهام غرين

٧٠- الحرس الأبيض ميخائيل بولغاكوف

٧١- اللاطمأنينة فرناندو بيسوا

٧٢- عشت لأروي غابرييل غارثيا ماركيز

٧٣- مدار السرطان هنري ميللر

٧٤ - مهنة العيش تشيزار بافيزي

٧٥ - عودة الروح توفيق الحكيم

٧٦- دكتور جيفاكو بوريس باسترناك

٧٧- مذلون مهانون فيودور دوستويفسكي

٧٨- أسطورة سيزيف ألبير كامو

٧٩- الأميركي الهادئ غراهام غرين

٨٠- مهاجر بريسبان جورج شحادة

٨١- طبائع الاستبداد عبد الرحمن الكواكبي

٨٢- رسالة الغفران ابو العلاء المعري

٨٣ - رحلة نيلز العجيبة سلمى لاغرلوف

٨٤ - محبوبة توني موريسون

٨٥ - عالم الأمس ستيفان تسفايغ

٨٦ - مصير إنسان ميخائيل شولوخوف

٨٧ - أزهار الشر شارل بودلير

٨٨ - اسطنبول أورهان باموق

٨٩ - البحر... البحر آيرس ميردوك

٩٠ - النزعات المادية حسين مروة

٩١ -ثلاثية دروب الحرية جان بول سارتر

٩٢ - الجوع كنوت هامسن

٩٣ - المجتمع المفتوح وأعداؤه كارل بوبر

٩٤ - جسر على نهر الدرينا إيفو أندريتش

٩٥ - ثورات غوستاف ليكليزيو

٩٦ - مبادئ فلسفة المستقبل فيورباخ

٩٧ - عصر مثير إريك هوبسباوم

٩٨ - تاريخ الأيديولوجيات فرانسوا شاتليه

٩٩ - رينوار أبي جان رينوار

١٠٠- حرب نهاية العالم بارغاس يوسا

فهرس المحتويات

غواية القراءة

لماذا نقرأ؟ وماذا تقدم الكتب لنا؟ سؤال حاول ان يجيب عليه عالم الفلك الشهير غاليلو الذي رأى ان القراءة افضل طريقة لامتلاك قُوى الإنسان الخارق. وكان كافكا يصر على ان الكتب مثل "الفأس الذي يكسر البحر المتجمد بداخلنا"، ويعتبر الشاعر الفرنسي بول فاليري ان مجرد فتحنا لصفحات الكتـــاب يمكنه أن يمنح أفعالنا رؤيا جديدة.

بالنسبة لي ليس مهما ان اكون قارئا ، بل يجب ان اكون قادرا على بث الشغف بالقراءة عند الاخرين، وعنما اكتب عن الكتب واستذكر مؤلفيها لايمكنني غض الطـــرف عن الروابط العاطفية بيني وبين الكتب والقراءة.. وبرغم مئـــات الصفحات التي كتبتها في مديح الكتب، ساظل طوال عمري أتذكر نصيحة الروائي الراحل الكبير عبد الرحمن منيف، عندما قال للشاب العامل في المكتبة - الذي هو أنا -: حاول أن تجعل من القراءة واقعاً تعيشه.


isbn: 978-1-947836-23-5



